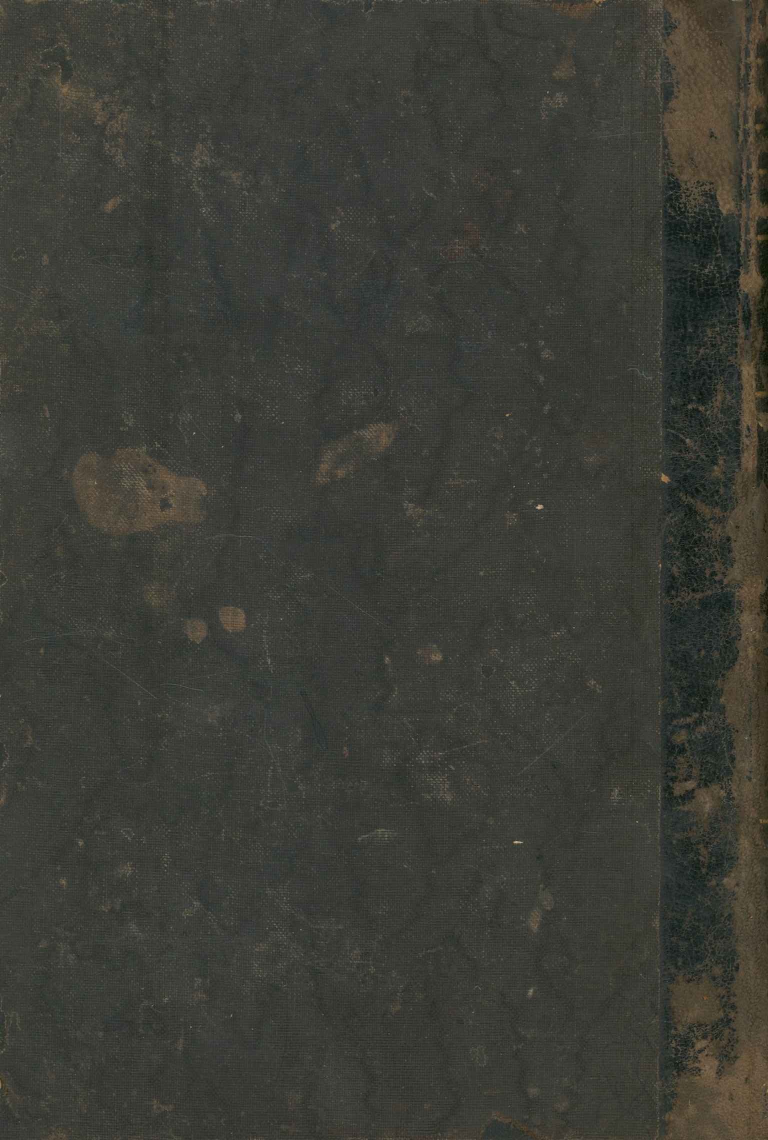




بقلم

مصطفى لطفي المنفلوطي

الجزء الاول

الطبعة الرابعة

رمضان سنة ١٣٤١ هـ — ابريل سنة ١٩٢٣ م

يطلب من مكتبة الهلال بأول شارع الفجالة بمصر

عنوان المؤلف : البرلمان بمصر

المطبعة الرحمانية

بالخرنفش بمصر رقم ٣٥

المقدمة

يسألنى كثير من الناس كما يسألون غيرى من الكتاب كيف أكتب رسائلى كأنما يريدون أن يعرفوا الطريق التى أسلكها اليها فيسلكوها معى ، وخير لهم ألاّ يفعلوا ، فانى لا أحب لهم ولا لأحد من الشادين فى الأدب أن يكونوا مقيدين فى الكتابة بطريقتى أو طريقة أحد من الكتاب غيرى ، وليعلموا إن كانوا يعتقدون لى شيئاً من الفضل فى هذا الامر أنى ما استطعت أن أكتب لهم تلك الرسائل بهذا الأسلوب الذى يزعمون أنهم يعرفون لى الفضل فيه إلا لانى استطعت أن أتفلّتَ من قيود التمثُّل والاحتذاء ، ومانفعنى فى ذلك شئ مانفعنى ضعف ذاكرتى والتواؤها علىّ وعجزها عن أن تمسك إلا قليلا من المقروءات التى كانت تمر بى ، فلقد كنت أقرأ من منثور القول

ومنظومه ما شاء الله أن أقرأ ثم لا ألبث أن أنساه فلا يبقى منه فى ذاكرتى إلا جمالُ آثاره وروعة حسنه ورنّة الطرب به ، وما أذكر أنى نظرت فى شىء من ذلك لأحشوَ به حافظتى ، أو أستعين به على تهذيب بيانى ، أو تقويم لسانى ، أو تكثير مادة علمى باللغة والأدب ، بل كل ما كان من أمرى أنى كنت أمرءا أحب الجمال وأفتتن به كلما رأيته فى صورة الانسان ، أو مطلع البدر ، أو مغرب الشمس ، أو هجعة الليل ، أو يقظة الفجر ، أو قمم الجبال ، أو سفوح التلال ، أو شواطئ الأنهار ، أو أمواج البحار ، أو نغمة الغناء ، أو رنّة الحداء ، أو مجتمع الاطيار ، أو منتَثَر الازهار ، أو رقة الحس ، أو عذوبة النفس ، أو بيت الشعر ، أو قطعة النثر ، فكنت أمر بروض البيان مرًّا فاذا لاحت لى زهرة جميلة بين أزهاره ، تتألق فى غصن زاهر بين أغصانه ، وقفت أمامها وقفة المعجَب بها الحانى عليها المستهتر بحسن تكوينها واشراق منظرها من

حيث لا أريد اقتطافها، أو إزعاجها من مكانها، ثم أتركها حيث هى وقد علقت بنفسى صورتها إلى أخرى غيرها، وهكذا حتى أخرج من ذلك الروض بنفس تطير سروراً به، وتسيل وجداً عليه، وما هو إلا أن درت ببعض تلك الرياض بعض دورات، ووقفت ببعض أزهارها بضع وقفات، حتى شعرت أنى قد بدلت من نفسى نفساً غيرها، وأن بين جنبى حالا غريبة لا عهد لى بمثلها من قبل، فأصبحت أرى الأشياء بعين غير التى كنت أراها بها، وأرى فيها من المعانى الغريبة المؤثرة ما يملأ العين حسناً، والنفس بهجة، فقد كنت أرى الناس فرأيت نفوسهم، وأرى الجمال فرأيت لبه وجوهره، وأرى الخير فرأيت حسنه، وأرى الشر فرأيت قبحه، وأرى النعماء فرأيت ابتساماتها، وأرى البأساء فرأيت مدامعها، وأري العيون فرأيت السحر الكامن فى محاجرها، وأرى الثغور فرأيت الخمر المترقرقة بين ثناياها، وكنت أرى الشمس فرأيت

خيوطها الفضية الراقصة في جو السماء ، وأرى القمر فرأيت شعاعه يهم أن يسيل على جوانبه سيلا ، وأرى الفجر فرأيت بياضه وهو يدب في تجاليد[1] الظلام دبيب المشيب في تجاليد الشباب ، وأرى النجوم فرأيت عيونها الذهبية تطل على الكون من فروج قميص الليل ، وأرى الليل فرأيته وهو يهوى بأجنحته السوداء إلى الارض هُوِىّ الكرى إلى الاجفان ، وكنت أسمع خرير المياه فسمعت مناجاتها ، وحفيف الاوراق ففهمت نغماتها ، وتغريد الاطيار فعرفت لغاتها ، فأحببت الادب حباً جماً ملأ ما بين جانحىّ فلم تكن ساعةٌ من الساعات أحب الىّ ولا آثر عندى من ساعةٍ أخلو فيها بنفسى و أمسك علىّ بابى ثم أُسلم نفسى الى كتابى فيخيل الىّ أنى قد انتقلت من هذا العالم الذى أنا فيه إلى عالم آخر من عوالم التاريخ الغابر ، فأشاهد بعينى تلك العصور الجميلة عصورَ العربية الاولى ، وأرى

(١) التجاليد الجسم

العرب فى جاهليتها بين خيامها وأخبيتها ، وأطنابها وأعوادها ، وإبلها وشائها ، وشيحها وقيصومها ، وأرى مساجلاتها ومنافراتها ، وحبها وغرامها ، وعفتها ووفاءها ، وصبرها وبلاءها ، وحداءها وغناءها ، وأسواق شعرائها ، ومواقف خطبائها ، وفقرها وإقلالها ، وشحوب وجوهها ، وسمرة ألوانها ، وضوى أجسامها ، وترددها فى بيدائها بين حمارّة [1] القيظ ، وصبارّة [2] البرد ، وتنقلها من صحراء إلى ريف ، ومن مشتى إلى مصيف ، ومن نجد إلى وهد ، ومن شرف إلى غور ، وانتجاعها مواقع الغيث ، ومنابت العشب ، وقناعتها من الطعام بأحفان التمر وقعاب اللبن وأصوع الشعير ، فاذا جد الجد أكلت القد [3] واشتوت الجلد ، وتبلغت بالضب واليربوع ، وعراقيب الآبال ، وأظلاف الابقار ، واكتفت من اللباس بأكسية الكرابيس وأردية الاشمار ، وقمص الاوبار ، فاذا أعوزها ذلك لبست

(١) شدة الحر (٢) شدة البرد (٣) السير يقد من جلد

الظل ، وافترشت الرمل ؛ غير ناقمة ولا ساخطة، ولا متبرمة بقضاء الله وقدره فى قسمة أرزاقه بين عباده ، ولا باكية حظها من رخاء العيش ولينه ، ثم أراها بعد ذلك وقد أنعم الله عليها بنعمة المدنية الاسلامية فأرى رغد عيشها، ولين طعامها، واعشوشاب جانبها ، وعذوبة مواردها ومصادرها ، وسرورَها وغبطتها بما أفاء الله عليها من ذخائر الفرس وأعلاق الروم ، وامتلاء قصورها باللؤلؤ المنظوم من القيان ، واللؤلؤ المنثور من الولدان ، وأرى مجالس غنائها ، ومجامع أنسها ، ومسارح لهوها ، ومجالات سبقها ، وملاعب جيادها ، ومذاهب طرائدها ، ومواقف حجها ، وازدحامَ شعرائها على أبواب أمرائها ، وجوائز أمرائها فى أيدى شعرائها ، وانطلاقَ ألسنتها بوصف ما تشاء من الأعواد والبرابط والمعازف والمزاهر والأقداح والدنان والموائد والصحف ، وألوان الطعام حلوه وحامضه ، وأصناف الشراب حلاله وحرامه ، والطيورِ المحلقة فى الأجواء ، والسفن الذاهبة

فى الدأماء [1] ، والرياض الخضراء ، والغابات الشجراء ، والقصور وتماثيلها ، والبحيرات وأسماكها ، والأنهار وشواطئها ، والأزهار ونفحاتها ، والغيوث وقطراتها ، ودبيب الحب فى القلب ، والغناء فى السمع ، والصهباء فى الأعضاء ، وخلجة الشك ، ولمحة الفكر ، وبارقة المنى ، ثم لا أشاء أن أرى بين هذا وذاك خلقاً عذباً ، أو أدباً غضاً ، أو حباً وفياً ، أو مجوناً مستظرفاً ، أو حواراً مستملحاً ، إلا وجدته ، ولا أن أسمع ما تهتف به العاتق فى خدرها ، وما يحدو به الحادى فى أعقاب إبله ، وما يتغنى به العاشق ، وما يهذي به الشارب ، وما يترنم به الشادى ، وما يساجل به الماتح [2] إلا سمعته ، ولا أن أعلم ما يهجس فى نفس المحب إذا اشتمل عليه ليله ، والحائر إذا ضل به سبيله ، والثاكل إذا فجعت بواحدها ، والموتور إذا حيل بينه وبين واتره ؛ والكريم إذا لاح له منظر من مناظر البؤس والشقاء ،

(١) الدأماء البحر (٢) الماتح المستق على البئر

والغريب فى دار غربته ، والسجين بين جدران سجنه ، والخائف اذا وقف بين الرضا والغضب ، والمقدَّم للقتل إذا وقف بين الرجاء واليأس ، والبائس إذا أعوزه القوت ، واليائس إذا أعوزه الموت ، والعزيز إذا ذل ، والمشرف إذا هَوَى ، والشريف إذا عبث بشرفه عابث ، والغيور إذا لمس عرضه لامس ، إلا عامته ، ولا أن أعرف خُلُق الدهر فى تنقله بالناس ما بين رفع وخفض ، وجِدَة وفقر ، ونعيم وبؤس ، وإقبال وإدبار ، ولا أثر يده السوداء فى خراب القصور ، وخلاء الدور ، وإقفار المغانى ، وتصويح الرياض ، إلا عرفته ، فكنت أجد فى نفسى من اللذة والغبطة بذلك ما لا يقوم به عندى كلُّ ما ينعَم به الناعمون من رغد فى العيش ورخاء ، حتى ظننت أن الله سبحانه وتعالى قد صنع لى فى هذا الأمر وأنه لمَّا علم أنه لم يَكتب لى فى لوح مقاديره ما كَتب للسعداء والمجدودين من مال أو جاه أعيش فى ظله ، وأنعَمُ بثمرته ، زخرف لى هذا الجمال الخيالىَّ البرىء

من الريبة والاثم وزوّره[1] لى تزويراً بديعاً ووضع لى فيه من الملاذ والمناعم مالم يضع لغيرى رحمة بى وإرعاءً علىّ أن أهلك أو يهلك لبى بين اليأس القاتل ، والرجاء الكاذب ، وهكذا لا أزال محلقاً فى هذا الجو البديع من الخيال أضحك مرة واكتئب أخرى ،وأتغنى حيناً وأبكى أحياناً ، حتى يرمينى الباب ببعض الطارقين أو يستعيد إلىّ نفسى مُستعيد

ولم يكن حولى لذلك العهد ممن يستعين بمثلهم مثلى على الأدب أحد ، لانى كنت أعيش فى مفتتح عهدى به ولم أكن زاهيت إذ ذاك الثالثة عشرة بين أشياخ أزهريين من الطراز القديم لا يرون رأيى فيه ، ولا يتعلقون منه بما أتعلق ، فكانوا يرون أن التوفر عليه أو الالمام به عمل من أعمال البطالة والعبث ،وفتنة من فتن الشيطان ، فكان الذين يتولون أمرى منهم لا يزالون يحولون بينى و بينه كما يحول الأب بين ولده و بين ما يعرض له من فتن الهوى ونزغات الصبوة ضناً بى يزعمون أن أنفق ساعة من ساعات

(١) زوره حسنه وقومه

دراستى بين لهو الحياة ولعبها ، فكنت لا أستطيع أن ألم بكتابي إلا فى الساعة التى آمن فيها على نفسى أن يلموا بأمرى، وقليلا ما كنت أجدها ، وكثيرا ما كانوا يهجمون منى على مالا يحبون ، فاذا عثروا فى خزانتى أو تحت وسادتى أو بين لفائف ثوبى على ديوان شعر أو كتاب أدب خيل اليهم أنهم قد ظفروا بالدينار في حقيبة السارق ، أو الزجاجة فى جيب الغلام ، أو العشيق فى خدر الفتاة ، فأجد من البلاء بهم ، والغصص بمكانهم ، مالا يحتمل مثله مثلى ، وهم لا يعلمون أحسن الله اليهم أنهم وجميع من يدور به جدار مسجدهم حسنة من حسنات الأدب الذى ينقمون منه ماينقمون ، ويد من أياديه البيضاء على هذا المجتمع البشري ، فلولا الادب ما استطاع أئمتهم المجتهدون فهم آيات الكتاب المنزل ولا استنباط تلك الاحكام التي دونوها لهم وتركوها بين أيديهم يستغلونها كما يستغل المالك ضيعته ، ويعيشون فى ظلها عيش السعداء المترفين ، ولولاه لما استطاع علماؤهم

اللغويون أن يورّثوهم هذه العلوم اللغوية التى يدرسون اليوم نحوها وتصريفها وبيانها فى مجالس علمهم ويُدِلون بمكانهم منها على الناس جميعاً، كما لا يعلمون أن الادب هو خير ما يستعين به متعلمٌ على علم، وأن الذوق الادبى الذى يستفيده المتأدب من دراسة الادب ومزاولته هو الميزان الذى يزن به ما يحاول فهمه من عبارات العلوم وأساليبها، والدليل الذى يتسمّته ويترسم مواقع أقدامه فى فهم أصول الدين ليكون مجتهداً ان استطاع أو واقفاً على منازع المجتهدين، واللسانُ الذى يستعين به على الافضاء بأدق أغراضه وأعمقها وأقصاها مكاناً من قلبه ليكون إنساناً ناطقاً، ومعلماً نافعاً، ولو أن هؤلاء الزارين على الأدب من علماء الدين وشيوخه وهم اليوم والحمد لله قليل بل هم فى طريق الفناء والانقراض قد تعلقوا منه بما كان يتعلق به أسلافهم وأئمتهم من قبل لنالوا به فى دينهم خيراً كثيراً، ولاستدفعوا به عن أنفسهم فى أمره شراً عظيما، فما زال الدين واضح المنهج قائم الحجة وما زالت

آيات الكتاب ومتون الأحاديث سائغة هنيئة لا يلحقها الريب ولا يحيط بها الشك ولا تطير بجنباتها الأوهام والظنون حتى جهل علماء الدين الأدب ففسدت أذواقهم ، وضلت أفهامهم ، فكثر بينهم التأويل والتخريج ، ووهت تلك العقدة الوثيقة بين الألفاظ والمعانى ، واسترخت عراها من أيديهم ، فأصبح كل لفظ فى نظرهم محتملا لكل معنى حتى ما يأبى أحدهما على الآخر شيئاً ، وتَهافتَ ذلك الحاجزُ الحصين الذى كان قائماً بين الحقيقة والمجاز ، والحقيقة والخيال ، فبغى بعضُ الكلم على بعض وعاث كل منهما فى تربة صاحبه إقبالا وإدباراً ، وجيئةً وذهوباً ، وصعوداً ونزولا ، فاستطاع الواغلون فى الدين والناصبون له أن يدخلوا عليه من الأحاديث المنحولة الغريبة فى أساليبها ومناهجها عن مناهج العرب وأساليبهم مالا يضبطه الحساب كثرة فهلكت الامة بين هذا وذاك هلكا لا تزال تتجرع كأسه المريرة حتى اليوم

فالحمد لله أولا وللأدب ثانياً على تجافى منهم فيما كانوا يرومون بى ، ويحاولون منى ، بل أحمد الله اليهم كذلك فقد كُفيت بسوء رأيهم فى الأدب ونقمتهم عليه شر من يدخل بينى وبين نفسى فى المفاضلة بين شاعر وشاعر ، وكاتب وكاتب ، أو الموازنة بين أسلوب وأسلوب ، وديباجة وأخرى ، فلم يكن لى عونٌ على ذلك كله غير شعور نفسى وخفوق قلبى خفقة السرور أو الألم إن مرّ بى ما أحب أو ما أكره من حسنات القول أو سيئاته من حيث لا أعرف سبيل ذلك ولا مأتاه ، فكان شأنى فى ذلك شأن السامع الطروب الذى تطربه نغمة وتزعجه أخرى فيطير بالأولى فرحا ، وبالثانية جزعا ، وقد يكون ضعيف الالمام بضروب الايقاع وقواعد النغم ، فكنت لا أقرأ إلا ما أفهم ، ولا أفهم الا ما أشعر أنه قد خرج من فم قائله خروج السهم من القوس فاذا هو فى كبد الرمية ولبها ، فان رأيتُ أن المعنى قد قام دونه ستار من التراكيب المتعاظلة ، والأساليب

الملتوية ، علمت أن القائل إما ضعيف المادة اللغوية فهو يعجز عن الافضاء بما في نفسه لانه لا يعرف كيف يفضى به ، وإما جاهل لم يستوِ له المعنى الذى يريده كل الاستواء ولم يَدُرْ في جوانب نفسه حتى يستقر فى قراره منها ، فهو يتوهمه توهما ويجمجمه جمجمة ويهذى به هذيانا ، فلا سبيل له إلى الافصاح عنه ، وإما داهية محتال قد علم أن المعنى الذى يجول في نفسه ويتردد فى خاطره تافه مرذول وكان لابد له أن ينفّقه[1] على الناس ويزخرفه لهم ويزوّره[2] فى أعينهم فهو يكسوه أسلوبا غامضاً ليُكدّهم ويجهدهم فى سبيله حتى إذا ظفروا به بعد ذلك خيل اليهم أنهم قد ظفروا بمعنى غريب ، أو خاطر بديع ، وجدوا فيه عند الوصول اليه من اللذة والمتعة ما يجد الظامئ في ضَحضاح[3] الماء الكدِر إذا أُبعد النُّجعةَ فى طلبه ووصل اليه بعد الجَهد والإشفاء ، وإما عاجز ضعيف القوة النفسية قد علم أن ضعفاء الأفهام

(١) ينفقه بالتشديد يجعله نافقاً أى رائجاً (٢) زور الشيء حسنه وزخرفه
(٣) الضحضاح الماء القليل فى قعر البئر

من الناس وهم سواد الأمة ودهماؤها لا يرضون عن معنى من المعانى ولا يستسنون[1] قيمته ولا يقيمون له وزناً إلا إذا جاءهم في جلدة من الألفاظ المتكرّسة المتقبّضة ، وأنهم إذا ورد عليهم أثمن المعانى وأغلاها ، وأكرمها جوهراً ، وأطيبها عنصراً ، فى ثوب من الاساليب الرقيقة الشفافة ذهب بهم الوهم إلى أنه ماجاءهم على هذه الصورة إلّا لانه ساقط مبتذل ، أو سُوق مطروق ، فاحتقروه وازدروه ، وكان يرى لضعف حيلته وسقوط همته أن لابد له من موافاة رغبتهم وبلوغ رضاهم ، والنزول على حكمهم ، فتجمّل لهم باللُّكنة والعِى ، وتملقهم بالغموض والابهام ، وإما أعجمىّ يظن أن اللغة العربية حروف وكلمات وهو لايعرف منها غيرها فينطق بشىء هو أشبه الأشياء بما يترجمه بعض المترجمين من اللغات الاعجمية ترجمة حرفية ، فان نعيتَ عليه غرابة أسلوبه واستعجامه والتواءه على الفهم

(١) استسنى قيمته رآها سنية رفيعة

كان مبلغ ما يَنضحُ به عن نفسه أن المعانى العصرية والخيالات الحديثة لا يستطاع إلباسها الا الكسيةَ البدوية، والاردية العربية، كأنما هو يظن أن المعانى والخواطر خطط وأقسام، وأنصبة وسهام، هذا للشرق وهذا للغرب، وهذا للعرب وهذا للعجم، أما الحقيقة التى لا ريب فيها فهى أن الرجل لا ينتزع تلك المعانى من قَرارة نفسه ولا يصور فيها صورة عقله وانما هو مترجم قد عثر بتلك المعانى فى اللغة الاعجمية التى يعرفها لاصقة بأثوابها الاصلية فلما أراد أن يفضىَ بها الى العرب وكان غير مضطلع بلغتهم ولا متمكن من أساليبهم عجز عن أن ينزع عنها أثوابها اللاصقة بها فنقلها اليهم كما هى الا ما كان من تبديل حرف بحرف أو لفظ بآخر من حيث يظن أنه يهتف بشىء قام فى نفسه أو يفضى بخاطر من خواطر قلبه، وإما شحيح يأبى له لؤم نفسه وخبث فطرته أن يمنح الناس منحته سائغة هنيئة دون أن يكدرها عليهم بالمطل والتسويف والمدافعة والمحاولة،

والشح خلق إذا نزل منزله من نفس صاحبه أقام من نفسه حارساً يقظاً على كل حاسة من حواسه الباطنة والظاهرة حتى لا يجد فيه واجدٌ مصطنعاً ، ولا يظفر منه مُعتصِرٌ ببلة ، فيضن بعلمه ، كما يضن بماله ، ويقبض لسانه عن النطق ، كما يقبض يده عن الانفاق ، ويصرّد[1] عطاءه تصريداً ليستديم حاجة الناس إليه ، كما يجيع كلبه ليتبعه ، ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، على العجزة والجاهلين ، والمحتالين والكاذبين ، والاشحاء والباخلين

وكان أشعر الشعراء عندي وأكتب الكتاب سواء في ذلك المتقدم والمتأخر والنابه والخامل أو صفهم لحالات نفسه أو أثر مشاهد الكون فيها وأقدرهم على تمثيل ذلك وتصويره للناس تصويراً صحيحاً كأنما هو يعرضه على أنظارهم عرضاً ، أو يضعه في أيديهم وضعاً ، فإن ظننتُ أن القائل كاذب فيما يقول ، أو أنه يرسم صورة غير الصورة التي تتلجلج في نفسه ، أو أنه لغوي يفر من ضعف أسلوبه وفساد

(١) صرد العطاء أعطاه قليلا قليلا

نظمه إلى أكمة من الالفاظ الغريبة والتراكيب المستوعرة يكمن وراءها ، أو ناقلٌ يتخذ الكتابة حقيبة يحشوها بالمسائل العلمية والوقائع التاريخية حشواً ، أو مترجمٌ ينقل عن اللغة الاعجمية التي يعرفها آراء علمائها وخيالات شعرائها وكأنما هو صاحبها ، أو شعرتُ انه قد قدّر في نفسه وهو يكتب كلمته أن يكون بليغاً فيها أو مبدعاً ليعجّبَ الناسَ منها ، كان كلُّ حظه عندي أن أعرف له قدره في العلم ، ومنزلته من الذكاء والفهم ، إن أحسن فيما يقول ، ولكنني لا أعده كاتباً ولا شاعراً ، لذلك كان أغزل الغزل عندي غزل العاشقين ، وأفضل الرثاء رثاء الثاكلين ، وأنبل المدح مدح الشاكرين وأشرف العظات عظات المخلصين ، وأجمل البكاء بكاء المنكوبين ، وأحسن الهجاء هجاء الصادقين ، وأبرع الوصف وصف الرائين المشاهدين

ولا أدري ما الذي كان يعجبني في مطالعاتي من شعر الهموم والأحزان ومواقف البؤس والشقاء وقصص

المحزونين والمنكوبين خاصة ، فقد كان يعجبني كثيراً ويبكيني أحر بكاء وأشجاه شقاء المهلهل في الطلب بثأر أخيه ، وشقاء امرئ القيس في الطلب بثأر أبيه ، وبكاء جليلة أخت جساس على زوجها وأخيها ، وبكاء عدي بن زيد على نفسه في سجن النعمان ، وبكاء متمم بن نويرة على أخيه مالك حتى دمعت عينه العوراء ، وبكاء ليلى بنت طريف على أخيها الوليد ، وهيام أم حكيم زوج عبيد الله ابن العباس في المواقف والمواسم تنشد طفليها الذبيحين ، وبكاء الشريف على المناذرة في خرائب الحيرة ، وبكاء أبي عبادة على الأكاسرة في خرائب المدائن ، وبكاء الرضي على بني هاشم ، وبكاء العبلي على بني أمية ، وبكاء الرقاشي على بني برمك ، وذل أبي فراس في أسره ، والمعتمد بن عباد في سجنه ، وبكاء الوزير ابن زيدون على نفسه مرة ، وعلى ولادة أخرى ، وبكاء ابن مناذر على عبد المجيد ، والبحتري على المتوكل ، وابن اللبانة على ابن عباد ، والتيمي على يزيد

ابن مَزْيد، ومروان بن حفصة على معن بن زائدة ، وجنونُ المجنون بليلاه ، وجلوسه فى جنبات الحى منفرداً عاريا مذهوب اللب مشترك العقل يهذى ويخطط فى الأرض ويلعب بالتراب ، ثم هيامُه بعد ذلك مع الوحش فى البرية لا يأكل إلا ماينبت فيها من بقل ، ولا يشرب إلا مع الظباء إذا وردت مناهلها ، وراحتُه إلى الطريق يصعد مع مُصعديه ، وينحدر مع مُنحدريه ، حتى هلك فى أرض مقشعرّة مغبرة بين الصخور والأحجار ، وشقاءُ قيس بلُبناه بعد أن طلقها براً بوالده، ونزولا على حكمه ، وذَهابُ الحب به بعد ذلك كل مذهب ، حتى هلك بين الوفاء للفضيلة والوفاء للحب ، وموقفُ جميل بن معمر بين يدى أبيه وهو يعتب عليه أشد العتب وأمرّه فى استهتاره بحب بُثَينة ومخاطرته بنفسه فى الالمام بحبها فيقول : ياأبت هل رأيت قبلى أحدا قدر أن يدفع عن قلبه هواه أو ملك أن يسلى نفسه أو استطاع أن يتقي ما قُضي به عليه ، والله لو

قدرت أن أمحو ذكرها من قلبي أو أزيل شخصها من عيني لفعلت ولكن لا سبيل إلى ذلك وإنما هو بلاء بليت به لحين قد أتيح لي وأنا أمتنع عن طروق هذا الحي والالمام به ولو مت كمداً، وهذا جهدي ومبلغ ما أقدر عليه ، وبكاء النبي صلى الله عليه وسلم عند ماسمع قيس بن عاصم يحدث عن نفسه أنه كان يئد بناته في الجاهلية وأن واحدة منهن ولدتها أمها وهو في سفر فدفعتها إلى أخوالها ضنًّا بها على الموت واشفاقا عليها فلما عاد وسألها عن الحمل قالت له إنها ولدت مولوداً ميتاً ثم مضت على ذلك سنون عدة حتى كبرت البنت ويفعت فزارت امها ذات يوم فرآها عندها فأعجب بجمالها وعقلها وذكائها وسألها عنها فحدثته حديثها على وجهه ولم تكتمه شيئاً طمعا في أن يضمها اليه ويمنحها رحمته وعطفه فأمسك عنها أياماً ثم تغفل أمها عنها ذات يوم وخرج بها إلى الصحراء حتى أبعد فاحتفر لها حفرة وجعلها فيها فأخذت تقول : يا أبت ما تريد أن

تصنع بي ؟ وما هذا الذى تفعل ؟ وهو يَهيل عليها التراب ولا يلتفت اليها وهي تئن وتقول : أتاركي أنت ياأبت وحدى فى هذا المكان ومنصرفٌ عنى ؟ حتى واراها وانقطع أنينها ، وبكاء الأعرابية التى مات منها ولدها فى دار غربة فدفنته ثم وقفت على قبره تودعه وتقول : والله يابني لقد غذوتك رضيعاً ، وفقدتك سريعاً ، وكأن لم يكن بين الحالين مدة ألتذ بعيشك فيها فأصبحت بعد الغضارة والنضارة ورونق الحياة والتنسم بطيب روائحها تحت أطباق الثرى جسداً هامداً ورفاتاً سحيقاً وصعيداً جُرُزاً ، اللهم إنك قد وهبته لى قرة عين فلم تمتعني به كثيراً ، بل سلبتنيه وشيكا ، ثم أمرتنى بالصبر ، ووعدتنى عليه الأجر ، فصدقت وعدك ، ورضيت قضاءك ، فارحم اللهم غربتــه ، وآنس وحشته ، واستر عورته ، يوم تنكشف الهنات والسوآت ، وا ثُكلَ الوالدات ! ما أمضّ حرارةَ قلوبهن ، وأقلقَ مضاجعهن ، وأطول ليلهن ، وأقلّ أنسهن ، وأشد وحشتهن ، وأبعدَهن

من السرور ، وأقربهن من الاحزان ، وشقاء ذينك البائسين المنكوبين عروة بن حزام وعفراء بنت عقال ومناصبةُ الدهر لهما وانقطاع سبيله بهما حتى أصبحت زوجا لغيره وأصبح من بعدها هائما مختبلا يرمى بنفسه المرامىَ ويقذف بها فى فجاج الارض ومخارمها حتى بلغ منزلها ذات يوم فتنكَّر حتى زارها وهو يظن أن زوجها لا يعلم من أمره إلا أنه أحد الأضياف الغرباء ، فلما علم أنه يعرف حقيقته وأنه على ذلك لا يتهمه ولا يتنكَّر له عزم على الانصراف حياء منه ، وقال لها ياعفراء أنت حظى من الدنيا وقد ذهبتِ فذهبَتْ دنياى بذهابك فما قيمة العيش من بعدكِ ، وقد أجمل هذا الرجل عشرتى واحتمل لى مالا يحتمله أحد لأحد حتى استحييتُ منه ، وإنى راحل من هذا المكان ، وإنى عالم أنى أرحل إلى منيتى ، وما زال يبكى وتبكى حتى انصرف ، فلما رحل نُكس بعد صلاحه

وتماسكه وأصابه غشىٌ وخفقان فكان كلما أغمى عليه ألقى على وجهه خماراً لعفراء كانت زودته إياه فيفيق حتى بلغ حيّه وأمسك عاماً كاملا لا يسمع منه سامعٌ كلمة ولا أنّة حتى بلغ منه اليأس فسقط مريضاً ، فمر به بعض الناس فرآه مطّرحا بجانب خبائه فسأله عما به فوضع يده على صدره وقال :

كأن قطاة علقت بجناحها ... على كبدى من شدة الخفقان

ثم شهق شهقة كانت نفسه فيها ، فلما بلغ عفراءَ خبرُه قامت إلى زوجها وقالت له ، لقد كان من خبر ابن عمى ما كان ، وقد مات فىّ وبسببى ، ولابد أن أندُبه وأقيم مأتماً عليه ، فقال افعلى ، فما زالت تندبه ثلاثاً حتى ماتت فى اليوم الرابع ، وشقاء سعد الوراق بحب عيسى النصرانى حينما علم أن أهله قد بنوا له ديراً بنواحى الرقة ليترهّب فيه ويحتجب عن الناس فضاقت عليه الدنيا بما رحبت وأحرق بيته وفارق أهله واخوانه ولزم صحراء الدير علّه يجد السبيل الى الوصول إليه ، فامتنع عليه ذلك بعد ما ذلّ للرهبان وتخضّع وتأتّى

لهم بكل سبيل فلم يُجْده ذلك شيئاً ، فصار إلى الجنون وخرّق ثيابه وأصبح عُريان هائماً لا شأن له إلا أن يقف بكل طائر يراه على شجرة فيناشده الله أن يبلغ رسائله إلى عيسى حتى رآه بعض الناس فى بعض الأيام ميتاً إلى جانب الدير ، وأمثالُ ذلك من مواقف البؤس ومصارع الشقاء ، كأنما كنت أرى أن الدموع مظهر الرحمة فى نفوس الباكين فلما أحببت الرحمة أحببت الدموع لحبها ، أو كأنما كنت أرى أن الحياة موطن البؤس والشقاء ومستقر الآلام والأحزان ، وأن الباكين هم أصدق الناس حديثاً عنها ، وتصويراً لها ، فلما أحببت الصدق أحببت البكاء لأجله ، أو كأنما كنت أرى أن بين حياتى وحياة أولئك البائسين المنكوبين شبهاً قريباً وسبباً متصلا ، فأنست بهم وطربت بنواحهم طرب المحب بنوح الحمائم ، وبكاء الغمائم ، أوكأنما كنت فى حاجة إلى بعض قطرات من الدمع أتفرّج بها مما أنا فيه ، فلما بكى الباكون وبكيت لبكائهم وجدت

فى مدامعهم شفاء نفسى ، وسكون لوعتى ، أوكأنما كنت
أرى أن جمال العالم كله فى الشعر وأن الشعر هو ماتفجّر
من صدوع الافئدة الكليمة فجرى من عيون الباكين مع
مدامعهم ، وصعد من صدورهم مع زفراتهم

تلك أيامى التى سعدت بها برهــة من الدهر ومرّ لى
فيها أحسنُ ما مر لأحدٍ والتى لا أزال أذكرها بعــد
مرور تلك الأعوام الطوال فأكاد أشرق بدمعى لذكراها،
ثم انثنيت فوجدت يدى صِفرا منها وإذا أنا بين يدىْ هذا
العالم المظلم المقشعر عالم الحقيقة والألم ، فنظرت اليــه نظر
الغريب الحائر إلى بلد لا عهد له به ولا سكن له فيه فرأيت
مخازيَه وشروره وظلمة أجوائه ، واغبرار سمائه ، وقتال
الناس بعضهم بعضاً على الذرة والحبة ، والنسمة والهبوة [1]
واتساعَ مسافة الخلف بين دخائل القلوب وملامح الوجوه
وسلطانَ القوة على الحق ، وغلبةَ الجهل على العلم ، وإقفارَ

---

(١) الهبوة الغبرة

القلوب من الرحمة ، وجمودَ العيون عن البكاء ، وعجزَ الفقراء عن فُتات موائد الاغنياء ، وتمضغ الأغنياء بلحوم الفقراء ، ورأيت التراثىَ بالرذيلة حتى ادعاها لنفسه وأنحلها إياها من لا يتخلق بها طلباً لرضا الناس عنه برضاه عنها ، ورأيت البراءة من الفضيلة حتى فرّ بها صاحبها من وجوه الساخرين به والناقمين عليه فرار العارى بسوأته ، والموسوم بخزيته ، ورأيت الرجل والمرأة وقد سرا [1] كل منهما ثوبه عن جسمه وألقاه بين يديه ، ثم تقايضا فلبست قباءه ولبس غلالتها ، فأصبح امرأة لها من النساء التكسر والتبرد ، وأصبحت رجلا له من الرجال التوقح والتشطر [2] ورأيت الدين وهو دوحة السلام الخضراء التي يستظل بها الضاحون [3] من لفحات الحياة وزفراتها قد استحال فى أيدى الناس الى سهام مسمومة يحاول كل منهم أن يصيب بها كبد أخيه

---

(١) سرا الثوب عن جسمه ألقاه عنه (٢) تشطر صار شاطراً والشاطر هو من أعيا أهله خبثا (٣) الضاحى المنكشف للشمس

فلا يخطئها ، ورأيت ضلال الاسماء عن مسمياتها وحيرة مسمياتها بينها ، واضطرابَ الحدود والتعاريف عن أماكنها ومواقفها حتى دخل فيها مالم يكن داخلا ، وخرج منها مالم يكن خارجاً ، فسمى الشح اقتصادا ، والكرم اسرافاً ، والحلم جبناً ، والسماجة جرأة ، والسفاهة براعة ، والفجور فتوة ، والتبذل حرية ، واشتبهت طرق الفضيلة ومسالكها على من يريد ركوبها ، لانه يجد على رأس كل واحدة منها زعيما من زعماء الخديعة والكذب يصرفه عنها الى غيرها ، وكنت أرى أن الأدب حال قائمة بالنفس تمنع صاحبها أن يقدم على شر أو يحدث نفسه به أو يكون عونا لفاعليه عليه ، فان ساقته اليه شهوة من شهوات النفس أو نزوة من نزواتها وجد فى نفسه عند غشيانه ومخالطته من المضض والارتماض ماينغص عليه عيشه ، ويقلق مضجعه ، ويطيل سهده وألمه ، فاذا هو صورة من صور الجوارح وعرض من أعراض الجسم لا دخل له فى جوهر النفس ،

ولا علاقة بينه وبين الحس والوجدان ، فأكثر الناس عند الناس أدبا ، وأقومهم خلقاً ، وأطهرهم نفساً ، من لا يفي على شرط أن يعد ، ومن يكذب على أن يكون كذبه سائغاً مهذباً ، ومن يملأ صدوه موجدة وحقدا على أن يكون بساما ضحوك السن ، ومن يسرق على أن يستطيع العبث بمواد القانون وخداع القضاة عنها ، ومن يبغض الناس جميعاً بقلبه ، على أن يحبهم جميعا بلسانه ، ومن يحفظ تلك المصطلحات اللفظية وتلك الصور الجافة من الحركات الجسمية التي تواضع عليها المتكلفون في الزيارة والاستزارة والهناء والعزاء والمؤاكلة والمنادمة وأمثال ذلك مما يرجع العلم به غالباً إلى صغر النفس وإسفافها ، أكثر مما يرجع إلى علوها وكمالها ، فداخلني من ذلك خطر عظيم لم أستطع أن أملك نفسي معه كأنما خيل إليّ لقرب عهدي بما أرى انني أرى شيئا عجيبا ، أو منظرا غريبا ، أو كانما كنت أحسب أن عالم الخيال الذي كنت فيه إنما هو صورة صحيحة

لعالم الحقيقة الذى انتقلت اليه ، فأزعجنى ما رأيت من هذا الاختلاف العظيم بينهما فأرسلت الكلمة إثر الكلمة كما يتنفس المتنفس أو يئن الحزين ، فقرأ ذلك بعض الناس فسموا ما رأوه كلاما ، ثم ما زالوا يستحسنون ما أقول ويغرونني بأمثاله وما زلت أطمع فيهم وأرجو أن أصيب مافى نفوسهم حتى سمونى كاتباً

وكان لذلك الأدب الذى توليت به نفسى فيما مضى أثر باق عندى حتى اليوم فانى لا أحسن أن أكتب كلمة يفضى بها إلىّ غيرى أو أعبر عن معنى لا يقوم بنفسى ، أو أبكى على من لا يحزنى فراقه . أو أندب من لا يفجعنى موته ، أو أستنكر ما أستحسن ، أو أستحسن ما أستنكر ، كما لا أستطيع أن أمر بمشهد من تلك المشاهد التى تهيج فى نفسى حزناً شديداً ، أو طربا كثيراً ، فأملك نفسى عن محاولة الافضاء بما تركه عندى من خير أو شر ، وما أعلم أنى كتبت كلمة فى شأن من الشؤون إلا وكان بعض تلك

المشاهد منشأها في قلبي ، فقد كنت رجلا لا أحب الكذب ولا آخذ نفسي به ما وجدت منه بداً ، فأبغضت الكاذبين بغض الأرض للدم ، فكان من همي أن أقاتلهم على الصدق قتالا مستحرّا ، حتى أصل بهم إلى إحدى الحسنيين ، إما أن يكونوا صادقين ، وإما أن يَعلم الناسُ أنهم كاذبون ، وكنت إنسانا بائساً لم يترك الدهر سهماً من سهامه المريشة لم يرمني به ، ولا جرعة من كأس مصائبه ورزاياه لم يجرعني إياها ، فقد ذقت الذل أحيانا ، والجوع أياما ، والفقر أعواما ، ولقيت من بأساء الحياة وضرائها مالم يَلق بشر ، فشعرت بمرارة الحياة في أفواه المساكين ، ورأيت مواقع سهام الدهر في أكباد البائسين والمنكوبين ، فكان من همي أن أبكي كل بائس ، وأندب كل منكوب ، وأطلب رحمة القوى للضعيف ، والغنى للفقير ، والعزيز للذليل ، وقد قُدّر لي فيما مر بي من أيام حياتي أن رأيت بعيني من

وقفت بين يديه امرأة ذليلة تبكى وتضرع اليه أن يرضخ لها بقليل من المال تستعين به على ستر ما كشف ابنه من سوأة ابنتها فأبى ذلك عليها وقال لها وهو يحسب أنه يعقل ما يقول : أيتها المرأة لا حق لابنتك عندى ولا عند ولدى فلم يكن حظه منها فيما كان من أمرهما بأكبر من حظهامنه ، ورأيت من تزوج من فتاة كان يمسك فى نفسه لأهلها حقداً قديماً فما دنا منها ليلة البناء بها حتى صدف عنها صارخاً : أيها الناس إن الفتاة مريبة ، وكان كاذبا فيما يقول ، ولكن صدّقه الناس ، فانتقم لنفسه بذلك شر انتقام وأفظعه ، ورأيت من دخلت اليه امرأة من أولئك النساء المريبات تسأله بعض المعونة على أمرها فأمر بطردها ذهاباً بنفسه أن تسوء سمعته بدخولها بيته وكان هو الذى أفسدها على نفسها فنزل بها فسادها الى هذه المنزلة من السقوط ثم الفقر ، فلما جد الجد حاسبها على لقمة تتذوقها فى بيته ، ولم يحاسب نفسه على عرض كان يأكله فى بيتها أكلا ، فكان بى منذ

ذلك العهد أن أنظر الى المرأة بعين غير العين التي ينظر بها الناس اليها ، وأن ألتمس لها من العذر وإن زلت بها قدم ما لا يلتمسه لها أحد ، وأن أنتصف لها من الرجل ما وجدت سبيلا إلى ذلك حتى يُدِيل لها الله منه ، وكنت من شؤون عيشي في حالة لا أستطيع معها أن أعتزل الناس الاعتزال كله ، ولا أن أختار لعشرتي من أشاء من خيارهم وذوي المروءة فيهم ، فلبستهم على علاتهم فما حفظ لي صديق عهداً ، ولا صان لي صاحب سرا ، ولا استدنتُ مرة فنفّس عني دائن ، ولا دِنت فوفى لي مَدين ، ولا رد لي مستعير عارية ، ولا شكر لي شاكر صنيعة ، ولا فرج لي كربتي مفرج إلا إذا استقطر ماء وجهي إلى القطرة الاخيرة منه ، ليأخذ أكثر مما أعطى ، ويسلب فوق ما وهب ، ووجدتُ في طريق حياتي من خالطني مخالطة الزائر للمزور حتى أمكنته الفرصة فسرق مالي بعد ما تحرّم بطعامي وشرابي ، ومن كان يبسط اليَّ يد الآمل الراجي فأكره أن أرده

خائباً فلما عجزتُ عن ذلك مرة أضمر لى فى قلبه من الشر ما لا يضمر مثله الرجل الا لمن يغلبه على تُراث أبيه وأمه ، أو يُخضّب لحيتَه من دم مفرَقه ، ومن نصب[1] لى وغَرِىَ بمحادّنى ومماظّتى[2] لأنه كان يحمل فى رأسه فتكة لم يجد فى طريقه من يحملها عنه ويَستخذى له فيها سواى ، ومن أخذ نفسَه بالنيل منى والغض من شأنى لانه كان يشكو الخمول والضعة وكان لابد له أن يكون نابهاً مذكوراً ، فاتفق له أن رأى عاتق بين يديه فظن أنه أعلى العواتق وأبعدها مذهباً فى جو السماء ، فعلاه ليشرف منه على الناس فيعرفوا مكانه ، فوالله ما تحلحلت ولا نبوت به بُقياً عليه وضناً به أن يسقط سقطة لا يثل منها ، ومن كان لا يكبر شأنى إلا إذا اتقانى فاذا أضاء ما بينى وبينه كنت فى عينه أصغر منه فى عين نفسه ، ومن كان يقبل ويدبر باقبال الدهر على وإدباره عنى لا يستحيى أن

(١) نصب فلان لفلان عاداه (٢) المماظة المخاصمة والمشارة

يكرر ذلك حتى أستحي له منه ، فعركت بجنبي [١] كل ما كرهت من ذلك ، ولكنني لم أرضَ لنفسي أن أنزل في الغرارة والسذاجة دون المنزلة التي ينزل اليها الغر الكريم ، فلم أثأر لنفسي ولكن أصبح رأيي في الناس غير رأيهم في أنفسهم ، ورأيِ بعضهم في بعض ، وخفتُ أن يصيب كثيراً من الضعفاء والمحدودين ، [٢] أمثالي مثل ما أصابني ، فكان من همي أن أدل على شرور الاشرار الكامنة في نفوسهم ، وأن أكشف الستر عن دخائل قلوبهم ، حتى يتراءَوْا ويتكاشفوا ، فيتواقوْا ويتحاجزوا ، فلا يهنأ خادع بخدعته ، ولا يبكي مخدوع على نكبته ، ولا يتخذ بعضهم بعضاً حُمُراً يركبونها الى أغراضهم ومطامعهم ، وكان مَنشئي في قومٍ بُداة سذّج لا يبتغون بدينهم ديناً ، ولا بوطنهم وطناً ، ثم ترامى بي الأمر بعد ذلك وتصرفتْ بي في الحياة شؤونٌ جمة ، فخضعت لكثير من أحكام الدهر

(١) عرك بجنبه ذنب صاحبه احتمله (٢) المحدود المحروم ويراد به سيء الحظ

وأقضيته الا أن أكون ملحدا فى دينى ، أو زاريا على وطنى ، فاستطعت وقد غمرَ الناسَ ما غمرهم من هذه المدنية الغربية أن أجلس ناحية منها ، وأن أنظر اليهـا من مَرقب عال ، وكنت أعلم أن مِن أعجز العجز أن ينظر الرجل إلى الأمر نظرة طائرة حمقاء ، فإما أخذَه كله أو تركه كله ، فرأيت حسناتها وسيئاتها ، وفضائلها ورذائلهـا ، وعرفت ما يجب أن يأخذ منها الآخذ ، وما يترك التارك ، فكان من همي أن أحمل الناسَ من أمرها على ما أحملُ عليه نفسى ، وأن أنقم من هؤلاء العجزة الضعفاء تهالكهم لها ، واستهتارَهم بها ، وسقوطهم بين يدى رذائلها ومخازيها ، وإلحادها وزندقتها ، وشحها وقسوتها ، وشرهها وحرصها ، وتبذلها وتهتكها ، حتى أصبح الرجل الذى لا بأس بعلمه وفهمه ، اذا حزَبه[1] الأمر فى مناظرة بينه وبين من يأخذه برذيلة من الرذائل لا يجد بين يديه ما ينضح به عن نفسه إلا أن

(١) حزبه الامر اشتدعليه

يعتمد عليها فى الاحتجاج على فعل مافعل ، أو ترك ماترك ، كأنما هى القانون الالهى الذى تثوب اليه العقول عند اختلاف الانظار ، واضطراب الافهام ، أو القانون المنطق الذى توزن به التصديقات والتصورات لمعرفة صوابها وخطئها وصحيحها وفاسدها ، وحتى أصبح السيد فى منزله يستحيي الحياء كله من خادم غرفته الأوروبية أن تطلع منه على جهل ببعض عاداتها وعادات قومها حتى فى لبس الرداء ، وخلع الحذاء ، أكثر مما يستحيي من الله ومن الناس أن يهجموا منه على أرذل الرذائل ، وأكبر الكبائر ، وحتى أصبح تاريخ المشرق وتاريخ علمائه وأدبائه وفلاسفته وشعرائه صورة من أقبح الصور وأسمجها فى نظر كثير من الشرقيين يفخرون بجهله إن جهلوه ، ويراؤون بجهله إن علموه ، وحتى قدر الغلام الرومى خادم الحان منفرداً على مالم تقدر عليه الامة جميعها مجتمعة ، فحملها على النزول اليه لتحدثه بلغته ،

قبل أن تحمله على الصعود اليها ليحدثها بلغتها ، وهو إلى أن يترضاها ويستدنيها أحوج منها إلى أن تترضاه وتزدلف إليه

فذلك ماتراه فى رسائل النظرات منتثراً ههنا وههنا قد شعر به قلبي ففاض به قلمى من حيث لا أكذب الناس عن نفسى ولا أكذب نفسى عنها

وعندى أن الكاتب المسخّر الذى لاشأن له إلا أن يكتب ما يفضى به الناس اليه صانع غير كاتب ، ومترجم غير قائل ، لا فرق بينه وبين صائغ الذهب وثاقب اللؤلؤ ، كلاهما ينظم مالا يملك ، ويتصرف فيما لا شأن له فيه ، على أن خير ماينتفع به الأديب من أدبه أن يترك يوم وداعه هذه الدنيا صفحة يقرأ فيها الناظرون فى تاريخه من بعده صورة نفسه ، ومضطرب آماله ، ومسرح أحلامه ، فان كان كل شأنه فى حياته أن يكون مرآة تتقلب فيها مختلفات الصور ، أو وفيعة [1] تتمسح بها أعواد

(١) الوفيعة خرقة يمسح بها القلم

الاقلام كان خسرانه عظيما لا يقوم به كل ما يربح الرابحون من مال أو يؤثلون من جاه ، والتاريخ أضنُّ من أن يحفظ بين دفتيه من مجد الأدباء إلا مجد أولئك الذين يودعون نفوسهم صفحات كتبهم ثم يموتون وقد تركوها نقية بيضاء من بعدهم ، وحياة الكاتب بحياة كتابته فى نفوس قرائها، ولا تحيا كتابة كاتب سيعلم الناس من أمره بعد قليل أنه يَكذِبهم عن نفسه وعن نفوسهم وأنه روّاغ متخلج [1] يأمرهم اليوم بما ينهاهم عنه غداً ، ويَرى فى ساعة مالا يرى فى أخرى، وانه يستبكى ولا يبكى، ويسترحم ولا يرحم ، ويحرك النفوس وهو ساكن ، ويثير الثائرة وهو سالم ، فيستريبون به ، ويحارون فى مصادره وموارده ، ثم يحملون أمره على شرحاليه ، ثم ينقطع ما بينهم وبينه ، والبيان ليس سلعة من السلع التى يتنقل بها تجارها من سوق إلى سوق ، ومن حانوت إلى آخر ، ولكنه

(١) المتخلج المضطرب في مشيته

حركة طبيعية من حركات النفس تصدر عنها آثارها عفواً بلا تكلف ولا تعمُّل صدورَ النور عن الشمس ، والصدى عن الصوت ، والاريج عن الزهر ، وشعاع لامع يشرق فى نفس الاديب إشراق المصباح فى زجاجته ، وينبوع ثرّارٌ يتفجر فى صدره ثم يفيض على أسلات قلمه ، وهو أمر وراء العلم واللغة والمحفوظات والمقروءات والقواعد والحدود ، ولو أن أمراً من ذلك كائن لكان أبرعُ الكتاب وأشعر الشعراء أغزرَهم مادة فى العلم أو أعلمهم بقواعد اللغة أو أجمعهم لمتونها أو أحفظهم لفصيح القول ورائعه ، أما العلم فأكثر المؤلفين الذين تركوا بين أيدينا هذه الاسفار التي تقرؤها فى الشريعة والحكمة والمنطق وغيرها كانوا علماء مايتدافع فى ذلك اثنان ، وهاقد مرت علينا وعلى ما تركوه بين أيدينا القرون والحقب وأكثرنا عاجز عن فهم أكثر ما كانوا يكتبون ، وأما المحفوظات فما نعلم أحداً أحفظ لكتاب الله من جماعة القراء ولا أحفظ للحديث من الفقهاء ولا أقل

منهم إلماما بالأدب ولا أبعد عنه مكانا ، وأما اللغة فما عرفنا بين المتقدمين والمتأخرين من رواتها وحفاظها والمتوفرين على تدوينها وتحقيقها والمنقطعين لدرس قواعدها وفنونها من عُرفت له البراعة والتفوق فى تحبير الرسائل أو قرض الشعر أو القوة القلمية فى التصنيف فى غير ما أخذوا أنفسَهم به ، وكان الخليل بن أحمد إذا سئل عن نظم الشعر قال يأبانى جيده وآبى رديئه ، وكان الأصمعى يحفظ ثلث اللغة ، وأبو زيد الأنصارى يحفظ نصفها ، وأبو مالك الاعرابى يحفظها كلها ، وكذلك كان شأن النضر بن شميل وأبى عبيدة وابن دريد والازهرى والصاغانى وابن فارس وابن الأثير صاحب النهاية والجوهرى والفيروزبادى وأمثالهم من علماء اللغة والنحو ، وما سمعنا لواحد منهم فى إحدي الصناعتين شيئاً مذكوراً ، وقال أبو العباس المبرد فى بعض أحاديثه : لا أحتاج الى وصف نفسى ، لعلم الناس بى أنه ليس أحد من الخافقين تختلج فى نفسه مشكلة إلا لقينى بها

وأعدنى لها . فأنا عالم ومتعلم وحافظ ودارس لا يخفى علىّ مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنثور والخطب والرسائل ، وربما احتجتُ الى اعتذار من فلتة أو التماس حاجة فاجعل المعنى الذى أقصده نُصب عينى ثم لا أجد سبيلا الى التعبير عنه بيد ولا لسان ، ولقد بلغنى أن عبيد الله بن سليمان ذكرنى بجميل فحاولت أن أكتب اليه رقعة أشكره فيها وأعرض ببعض أمورى ، فأتعبت نفسى يوما فى ذلك فلم أقدر على ما أرتضيه منها ، وكنت أحاول الافصاح عما فى نفسى فينصرف لسانى الى غيره اهـ بل لو شئت لقلت إنه ما أفسد على المتنبى وأبى تمام كثيراً من شعرهما ولا على المعرى كثيرا من منظومه ومنثوره ولا على الحريرى مقاماته ولا على ابن دريد مقصورته الا غلبة اللغة عليهم واستهتارهم بها وشغفهم بتدوينها فى كل ما يكتبون ، فقد كانوا هم وأمثالهم من حبائس اللغة وأنضائها فى كثير من مواقفهم يؤلفون ويدونون ، من حيث يظنون أنهم

ينظمون أو يكتبون ، ولا تزال نفسي تشتمل على لوعة من الحزن لا تفارقها حتى الموت كلما ذكرت أن الأدب العربي كان يستطيع أن يكون خيرا مما كان لو أن الله تعالى كتب للزوميات المعرى النجاة من قبضة اللغة وأسر الالتزام ، وإنك لا تكاد ترى اليوم من شعراء هذا العصر وكتابه الذين يأخذون بزمام المجتمع العربي ويقيمون عالمه ويقعدونه بقوتهم القلمية في شؤونه السياسية والاجتماعية والأدبية كافة من يعد من حفاظ اللغة العربية وثقاتها ، أو من يَسلم له مقالٌ من مأخذ نحوى أو مَغمز لغوى ، وهم على ذلك أدخل فى باب البيان وألصق به وأمسّ به رحماً من أولئك الذين يستظهرون متون اللّغة ويحفظون دقائقها ويحيطون بمترادفها ومتواردها ويتباصرون بشاذها وغريبها ويحملون فى صدورهم ما دقّ وما جلّ من مسائل نحوها وتصريفها ، فاذا عرَضَ لهم غرض من الأغراض فى أى شأن من شؤون حياتهم وأرادوا أنفسَهم على الافضاء

به ارتج عليهم فأغلقوا . أو تقعروا وتشدقوا ، فكأنهم لم ينطقوا ، والفرق بين الأدباء واللغويين أن الأولين كاتبون ، والآخرين مصححون ، فمثلهما كمثل النساج وعامله ، هذا ينسج الثوب وهذا يلتقط زوائده ويمسح عنه زئبره (١) أو كمثل الشاعر والعروضى ، هـذا ينظم الشعر وهذا يعرضه على تفاعيله وموازينه ، وليس البيان ذهاب كلمة ومجىء أخرى ، ولا دخول حرف وخروج آخر ، وانما هو النظم والنسق والانسجام والاطراد والماء والرونق واستقامة الغرض وتطبيق المفصل ، والأخذ بمجامع الألباب ، وامتلاك أزمة الهواء ، فاذا صح ذلك لامرئ فهو الكاتب القدير ، أو الشاعر الجليل ، فان زلت به قدم فى وضع حرف مكان حرف ، أو غلبه على لسانه دخيل ، أو خرج من يده أصيل ، أو كان ممن يفوته العلم ببعض قواعد اللغة أو بعض وجوه الاستعمال فيها ، كان ذلك عيباً لاحقاً بعلمه

(١) الزئبر ما يظهر من درز الثوب

أو بحافظتِه ، لا ببيانه وفصاحتِه ، ومتى صدَر القائلُ فى قوله
عن سجية وطبع أصبح شأنه شبيهاً بشأن العرب الاولين،
وكان من شأنهم أن يسبقهم فى كلامهم الخطأ اللفظى
فى بعض الأحيان ، وكان السبب فى ذلك كما يقول أبو على
الفارسى أنهم كانت تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به ،
فربما استهواهم الشىء فزاغوا به عن القصد من حيث
لا يشعرون ، وكما أن الجسم لا يغير من صورته ، ولا يبدل من
سحنته ، أن تطير منه ذرةٌ وتحل أخرى محلها لتُمثلها ، كذلك
لا يغير صورةَ الكلام ولا يذهب بنسقِه خروجُ أصيل ،
أو دخول دخيل ، ولقد قيل لأحد الكتاب الانكليز
نراك كثير الاعجاب بالكاتب « كبلنغ » وهو رجل لحانةٌ
لا يحفِل بقواعد اللغة ، فأجاب إن سطرا واحداً مما يكتبه
« كبلنغ » أثمن عندى من قوانين اللغة جميعها ، وليس من
الرأى أن أحرم نفسى التمتعَ بأدبه إكراماً لسواد عيون

الغراماطيق [١] الانكليزى ، وفضل الأدباء على اللغة في سيرورتها وذيوعها وتداولها وخلودها أكبر من فضل اللغويين عليها في ذلك ، لأنهم هم الذين يمهدون سبلها ، ويعبّدون [٢] طرقها ، ويستدنون نافرها ، ويجمعون شاردها ، وينظمون لآلئها ، نظم الثاقب لآلئه في السلك ، فيأخذها الناس عنهم من أخصر الطرق وأقربها ، وأشهاها الى النفس ، وأعلقها بالقلب ، وقليل من الناس من يأخذ مادته اللغوية من معاجم اللغة أو يكتسب ملكة الاعراب من كتب النحو والتصريف ، وما كانت اللغة عدوة للأدب ، ولا كان عدواً لها ، بل هي أساسه وقوامه الذى يقوم به ، ولكن المشتغلين بها ، والمتوفرين على دراستها ، والمنقطعين لاستظهارها ، والنظر في دقائقها ، والتعمق في أطوائها ، لايزال يغلب عليهم الولع بها والفناء فيها ، حتى تصبح في نظرهم مقصداً من المقاصد ، لاوسيلة من الوسائل ، وللبيان وسائل كثيرة غير وسيلة اللغة ، فمن لا يأخذ نفسه

(١) الغراماطيق النحو (٢) يعبدون يذللون ويمهدون

بجميع وسائله لا يصل اليه والتربية العلمية كالتربية الجسمية، فكما أن الطفل لاينمو جسمه ، ولا ينشط ، ولا تتبسط أعضاؤه ، ولا تنتشر القوة فى أعصابه ، إلا إذا نشأ فى لهوه ولعبه ، وقفزه ووثبه ، كذلك الكاتب لاتنمو ملكة الفصاحة فى لسانه ، ولا تأخذ مكانها من نفسه ، إلا إذا ملك الحرية فى التصرف والافتنان والذهاب فى مذاهب القول ومناحيه كما يشاء وحيث يشاء ، دون أن يسيطر عليه فى ذلك مسيطر إلا طبعه وسجيته ، واللغوى لا يزال يحوط نفسه بالحذر والخوف ، والوساوس والبلابل ، فان مشى خيل إليه أنه يمشى على رملة ميثاء ، وإن تحرك خيل إليه أن تحت قدميه حفرة جوفاء ، حتى يقعد به خوفه ووسواسه عن الغاية التى يريد الوصول إليها ، على أن الكاتب لا يبلغ مرتبة الكتابة إلا إذا نظر إلى الألفاظ بالعين التي يجب أن ينظر بها إليها فلم يتجاوز بها منزلتها

الطبيعية التي تنزِلها من المعاني ، وهي أن تكون خدَماً لها وخولا ، وأوعية وظروفاً ، فاذا كَتب تركها وشأنَها وأَغفل أمرَها حتى تأتيَ بها المعاني وتقتادَها طائعة مرغمة، والمعانى هى جوهر الكلام ولبه ، ومِزاجه وقِوامه ، فما شغل الكاتبُ من همته بغيرها أزرى بها ، حتى تُفلت من يده فيفلت من يده كل شيء .

وبعد فالعلم والمحفوظات والمقروآت والمادة اللغوية ، والقواعد النحوية ، إنما هى أعوان الكاتب على الكتابة ووسائله اليها ، فالجاهل لا يكتب شيئاً لانه لا يعرف شيئاً ، ومن لا يضطلعْ بأساليب العرب ومناحيها فى منظومها ومنثورها سرَتْ العجمة إلى لسانه ، أو غلبته العامية على أمره ، ومن قلّ محفوظه من المادة اللغوية قصرت يده عن تناول مايريد تناوله من المعانى ، ومن جهل قانون اللغة أغمض الأغراض وأبهمها ، أو شوه الألفاظ وهجّنها ، ولكنها ليست هى جوهر الفصاحة ، ولا حقيقة البيان ،

فأكثر القائمين عليها ، والمضطلعين بها ، لا يكتبون ولا ينظمون ، فان فعلوا كان غاية إحسان المحسن منهم أن يكون كصانع التماثيل الذى يصب فى قالبه تمثالا سويا متناسب الأعضاء ، مستوى الخلق ، الا أنه لا روح فيه ولا جمال له ، لانه ينقصهم بعد ذلك كله أمر هو سر البيان ولبه ، وهو الذوق النفسى والفطرة السليمة ، وأنّى لهم ذلك وما دخلت الفلسفة أياً كان نوعها على عمل من أعمال الفطرة إلا أفسدته ، وما خالط التكلف عملا من أعمال الذوق إلا شوه وجهه ، وذهب بحسنه وروائه

ولقد قرأت ما شئت من منثور العرب ومنظومها ، فى حاضرها وماضيها ، قراءة المتثبت المستبصر ، فرأيت أن الأحاديث ثلاثة ، حديث اللسان ، وحديث العقل ، وحديث القلب

فأما حديث اللسان فهو تلك العبارات المنمقة ، والجمل المزخرفة ، أو تلك الكلمات الجامدة الجافة التى لا يَعنِى

صاحبها منها سوى صورتها اللفظية ، فان كان لغوياً تقعر وتشدق ، وتكلف وأغرب ، حتى يأتيك بشئ خير ما يصفه به الواصف أنه متن مشوش من متون اللغة لا فصول له ولا أبواب ، وإن كان بديعياً جنّس ورصّع وقابل ووشّع وزاوج وافتنّ فى الاتيان بالكلمة مهملةً كلها أو معجمة كلها ، أو راوح بين الاهمال والاعجام ، فيخيل اليك وأنت تراه ينطق بما ينطق به كأنما هو يصنعه بيديه صنعاً ، أو يصففه تصفيفاً ، ثم لا يبالى بعد ذلك باستقامة المعنى فى ذاته ولا بمقدار ماله من الأثر فى نفس السامع ، وهذا الحديث هو أسقط الأحاديث الثلاثة وأدناها وأجدرها أن ينظمه الناظم فى سلك الصناعات اليدوية التى لا دخل للعقل ولا للفهم فى شئ منها ، وأن ينظم صاحبها فى سلك جماعة المحللين الذين لا شأن لهم إلا تحليل المواد وتركيبها ، وجمعها وتفريقها ، والمزاوجة بين مقاديرها ، والموازنة بين أثقالها ، من حيث لا يكون لقوة

التصور ولا لذكاء القلب دخل فى هذا أو ذاك

وأما حديث العقل فهو تلك المعانى التى ينحتها الناحتون من أذهانهم نحتاً، ويقتطعونها منها اقتطاعا، ويذهبون فيها مذهب المعاياة والتحدى والتعمق والاغراب ويسمونها تارة تخييلا، وأخرى غلواً، وأخرى حسن تعليل، إلى كثير من أمثال هذه الأسماء والألقاب، التى تتفرق ماتتفرق ثم يجمعها شىء واحد، هو الكذب والاحالة، وآية ما بينك وبينها أنك اذا رأيتها شعرت بأنك ترى أمامك شيئاً غريباً عن نفسك وعن نفس صاحبه وعن نفوس الناس جميعاً، وأن صاحبه لا يريد منه إلا أن يُطرفك أو يضحكك أو يُعجِّبك من ذكائه وفطنته، واقتداره على تصوير مالا يتصور، وإيجاد مالا يكون، وهو أمر لا علاقة له بجوهر الشعر، ولا حقيقة الكتابة، وربما انعكس عليه حتى غرضه هذا فنفّرك وأكدّك، وملأ قلبك غيظاً وقيحاً كأن يقول:

لو لم تكن نية الجوزاء خدمتَه

لما رأيت عليها عقد منتطق

فان الجوزاءَ لا تنتطق ، ولو كان هذا الذى نراه يستدير بها نطاقاً فهو شىء متصل بها قبل أن يخلق الممدوح ويخلق أباؤه الأولون إلى آدم وحواء ، والكواكب ليست أشخاصاً أحياءً ، يتخذ منها الناس خدما وخولا لأنفسهم ، ولو كانت كذلك لاستحال عليها وهى من سكان السماء أن تهبط إلى الأرض لتخدم سكانها ، فقد كذب وأحال أربع مرات فى بيت واحد ، ثم عجز بعد هذا كله أن يترك فى نفس السامع صورة تمثل جلال ممدوحه ، وعظم شأنه ، فهو فى الحقيقة إنما يريد ببيته هذا أن يمتدح نفسه بالابداع وقوة التخييل ، لا أن يمتدح ممدوحه برفعة الشأن وعلو المقام

أو يقول : —

مابه قتل أعاديه ولكن يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب

فان الذى يحمل فى صدره قلباً رحيماً مشفقاً على الذئاب من الجوع مستعظماً أن يخلفها ما عودها إياه من طعام وشراب لايمكن أن يكون هو نفسه ذئباً ضارياً يريق دماء الناس ويمزق أحشاءهم ، ويقطع أوصالهم ، ليملأ بها بطون الوحش ، ولايوجد بين الاسباب التى تحمل الناس على القتال سبب يشبه هذا السبب الذى ذكره ، على أن المحسن لايكون محسناً إلا اذا وهب مايهب من ماله ، ومن خزائن بيته ، فأما أن يقتّل الناس تقتيلاً ويمثل بهم ثم ينعم بجثثهم على الجائعين والظماء من وحوش الارض وذئابها فذلك شيء هو بالجنون أشبه منه بالاحسان

أو يقول : —

لايذوق الاغفاء إلا رجاءً

أن يرى طيف مستميح رواحا

فان النوم قوام الانسان وعماد حياته ، ولازم من لوازمه اللاصقة به ، أراد ذلك أم لم يرد ، فان كان لابد من

دخوله فى باب الاختيار فان من أبعد الاشياء عن التصور والفهم أن يكون مايحمل الانسانَ على طلب النوم رجاؤه أن يرى فيه الأحلام والرُؤَى ، فان فعل فلا يدخلُ فى باب أغراضه وأمانيه أن ينام ليرى خيال جماعة المتسولين والمتأكلين وهم ملء الارض وهَباء الجو ، وأرصاد الاعتاب ، وأعقاب الابواب ، لاتفتح الأعين إلا عليهم ، ولا تمتلئ الانظار إلا بهم ، فهم لم يبلغوا فى الضن بأنفسهم والعزْف بها مبلغ من لايراه الرائى ولا يعثر به إلا اذا ألقى فى طريقه حبائل الاحلام ليصطاده بها

أو يقول : —

لم يتخذ ولداً إلا مبالغة

فى صدق توحيد من لم يتخذ ولدا

فان الاولاد لا يتخذون اتخاذاً وإنما ينعم الله بهم على من يشاء من خلقه إنعاما ، وأكثر ماتقذفُ به الارحام من النسمات إنما هى ثمرات الحب يأتى بها عفواً ، لا نبتة من

نبات الارض يبذر الزارع بذورها ليستنبتها ، والله تعالى غني بربوبيته ووضوح آثارها عن الاستدلال عليها بنطفة يقذفها قاذفها في بعض الأرحام ، فان كان لا بد في اثبات ربوبيته من دليل يدل على مخالفته للحوادث في الصفات والافعال فالادلة على ذلك كثيرة لا يضبطها الحساب كثرة ، وربما كان أهونها وأضعفها أنه لا يتخذ ولداً وأنهم يتخذون ، على أن المتخذين كثيرون قد ضاق بهم بطن الارض وظهرها ، فالمسألة مفروغ منها قبل أن يخلق هذا الممدوح ويخلق ولده فلا فضل له في الإتيان بشيء جديد

أو يقول : —

وماريح الرياض لها ولكن كساها دفنهم في الترب طيبا

فان الأزهار التي تستمد حياتها ونماءها من جثث الموتى ورممهم لا يمكن أن تكون طيبة الريح ، على أن الازهار مُريحة قبل أن يُدفن هؤلاء الموتى في قبورهم ، فلم يزد في كلمته هذه على أن أتى بخيال ضعيف مبتذل هو أشبه

الاشياء بخيال العامة الذين يرون أن بعض الازهار ما خلق
إلا إكراماً لبعض النبيين

أو يقول : —

تُتلف فى اليوم بالهبات وفى السا عة ما تجتنيه فى سنتك

فقد أراد أن يصف ممدوحه بالكرم وصفا فوق
ما يصف الناس ويأتي فى ذلك بما لم يأت به غيره فانزله منزلة
مجانين المسرفين الذين لا يحسنون الموازنة بين أدخلهم
ونفقاتهم ، ولو تقدمت هذه التهمة بهذه الصورة الى قاض
من قضاة المال لما كان له بد من الحجر عليه ، والقضاة
يرضون فى مثل هذه الاحكام بدون انفاق دخل السنة
جميعها فى ساعة واحدة أو يوم واحد

أو يقول : —

ولما ضاق بطن الارض عن أن يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا
عن الاكفان ثوب السافيات

فان شيئاً من ذلك لم يكن ، فالقبر لا يضيق بأحد ، والجو لا يكون قبراً ، والريح ليست كفناً ، والرجل لا يزال مصلوباً غير مقبور ، ولا يزال عارياً غير مدرج في كفن

وأما حديث القلب فهو ذلك المنثور أو المنظوم الذى تسمعه فتشعر أن صاحبه قد جلس الى جانبك ليتحدث اليك كما يتحدث الجليس إلى جليسه ، أو ليصور لك مالا تعرف من مشاهد الكون ، أو سرائر القلوب ، أو ليفضى اليك بغرض من أغراض نفسه ، أو لينفس عنك كربة من كرب نفسك ، أو ليوافى رغبتك فى الافصاح عن معنى من المعانى الدقيقة التى تعتلج فى صدرك ثم يتكاءدك الافصاحُ عنها ، من حيث لا يكون للصناعة اللفظية ، ولا الفلسفة الذهنية ، دخل فى هذا أو ذاك ، حتى ترى حجاب اللفظ قد رق بين يديك دون المعنى حتى يفنى كما تفنى الكاس الصافية دون ما تشتمل عليه من الخمر ، فاذا الخمر قائمةٌ بغير اناء ، أو كما تفني صفحة المرآة الصقيلة بين يدى الناظر فيها ، فلا يرى

إلا صورته ما ثلة بين يديه ، ولا لوح هناك ولا زجاج ، وهو أرقى الاحاديث الثلاثة وأشرفها ، وهو الذى يريده المريدون مهما اختلف عباراتهم ، وتنوعت أساليبهم ، من كلمة البيان

ولقد كان من أكبر ما أعانني على أمرى فى كتابة تلك الكلمات أشياء أربعة أنا ذاكرها لعل المتأدب يجد فى شىء منها ما ينتفع به فى أدبه

« أولها » أنى ما كنت أحفل من بين تلك الأحاديث الثلاثة بحديث اللسان ولا حديث العقل ، أى اننى ما كنت أتكلف لفظاً غير اللفظ الذى يقتاده المعنى ويتطلبه ، ولا أفتش عن معنى غير المعنى الطبيعى القائم فى نفسى ، بل كنت أحدث الناس بقلمى كما أحدثهم بلسانى ، فاذا جلست إلى منضدتى خيل إلى أن بين يدىّ رجلا من عامة الناس مقبلا على بوجهه ، وأن من ألذ الأشياء وأشهاها إلى نفسى أن لا أترك صغيراً ولا كبيراً مما يجول بخاطري حتي أفضي

به إليه ، فلا أزال أتلمّس الحيلة الى ذلك ولاأزال أتأتى اليه بجميع الوسائل وألح فى ذلك إلحاح المشفق المجد حتى أظن أنى قد بلغت من ذلك ماأريد ، فلا أقيد نفسى بوضع مقدمة الموضوع فى أوله ، ولا سرد البراهين على الصورة المنطقية المعروفة ، ولاالتزام استعمال الكلمات الفنية التزاما مطرداً إبقاء على نشاطه وإجماحه ، وإشفاقا عليه أن يمل ويسأم فينصرف عن سماع الحديث أو يسمعه فلا ينتفع به

« وثانيها » أنى ما كنت أحمل نفسى على الكتابة حملا ، ولا أجلس إلى منضدتى مطرقاً مفكراً : ماذ أكتب اليوم ، وأى الموضوعات أعجب وأغرب ، وألذ وأشوق ، وأيها أعلق بالنفوس ، وألصق بالقلوب ، بل كنت أرى فأفكر فأكتب فأنشر ما أكتب فأرضى الناس مرة وأسخطهم أخرى من حيث لا أتعمد سخطهم . ولا أتطلب رضاهم

« وثالثها » أنى ما كنت أكتب حقيقة غير مشوبة بخيال ، ولا خيالا غير مرتكز على حقيقة ، لانى كنت

أعلم أن الحقيقة المجردة عن الخيال لاتأخذ من نفس السامع مأخذاً، ولا تترك فى قلبه أثراً، وأحسب ان السبب فى ذلك أن اكثر ما تشتمل عليه النفوس من العقائد والمذاهب، والآراء والاخلاق، والخواطر والتصورات، إنما هو أثر من آثار الخيالات الذهنية التى تتراءى فى سماء الفكر، ثم لا تزال بها الأيام تكسوها طبقة بعد طبقة من غُبار القِدم حتى تصبح حقيقة من الحقائق الثابتة فى الأذهان، وكما أن الحديد لا يفل الا الحديد، واللون لا يذهب به إلا لونٌ غيره، كذلك الخيال لا يذهب ولا يزعجه من مكانه إلاالخيال، وللخيال الأثر الاعظم فى تكوين هذا المجتمع الانساني وتكييفه على الصورة التى يريدها، فلولا خيال الشعر ما هاج الوجد فى قلب العاشق، ولولا خيال الشرف ما هلك الجندي فى ساحة الحرب، ولولا خيال الذكرى ما اخترعت المخترعات، ولا ابتدعت المبتدعات، ولولا خيال الرحمة ماعطف غنى على فقير، ولاحنا كبير على صغير، كما كنت

أعلم أن الخيال غير المرتكز على الحقيقة انما هو هبوة طائرة من هبوات الجو لا تهبط أرضاً ، ولا تصعد الى سماء

« ورابعها » أني كنت أكتب للناس لا لأعجبهم ، بل لأنفعهم ، ولا لأسمع منهم أنت أحسنت ، بل لأجد في نفوسهم أثراً مما كتبت ، والناس كما قلت في بعض رسائلي خاصة وعامة : أما خاصتهم فلا شأن لي معهم ، ولا علاقة لي بهم ، ولا دخل لكلمة من كلماتي في شأن من شؤونهم ، فلا أفرح برضاهم ، ولا أجزع لسخطهم ، لاني لم أكتب لهم ، ولم أتحدث معهم ، ولم أُشهدهم أمري ، ولم احضرهم عملي ، بل أنا أتجنب جهد المستطاع أن أستمع منهم شيئاً مما يتعلق بي من خير أو شر ، لاني راض عن فطرتي وسجيتي في اللغة التي أكتب بها فلا أحب أن يكدرها علي مكدر ، وعن آرائي ومذاهبي التي أُودعها رسائلي فلا أحب أن يشككني فيها مشكك ، ولم يهبني الله من قوة الفراسة ما أستطيع به أن أميز بين مخلصهم ومشوبهم ، فأصغيَ الى الأول لاستفيد علمه ، وأعرضَ عن الثاني لأتقيَ غشه ،

فأنا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لا بد له أن يفرغ منها فى ساعة معينة ، ثم علم أن على يمين الطريق التى يسلكها روضةً تعتنق أغصانها ، وتشتجر أفنانها ، وأن على يساره غاباً تزأر أسوده ، وتعوي ذئابه ، وتفحّ أفاعيه وصلاله ، فمضى قُدُماً لا يلتفت يَمنة مخافة أن يلهو عن غايته بشهوات سمعه وبصره ، ولا يَسرة مخافة أن يهيج بنظراته فضولَ تلك السباع المقعية ، والصلال الناشرة ، فتعترض طريقه ، وأما عامتهم فهم بين ذكى قد وهبه الله من سلامة الفطرة ، وصفاء القلب ، وسلاسة الوجدان ، ما يعده لاستماع القول واتباع أحسنه ، فأنا أحمد الله فى أمره ، وضعيف قد حيل بينه وبين نفسه فهو لا يرضى الا عما يعجبه ، ولا يسمع إلا ما يطربه ، فأكل أمره الى الله تعالى ، وأستلهمه صواب الرأى فيه ، حتى يجعل الله له من بعد عسر يسراً ؟

مصطفى لطفى
المنفلوطى

الغـد

عرفتُ أنى فكرت ليلة أمس فيما أكتب اليوم ، وعرفتُ أنى آخذٌ الساعة بقلمي بين أناملى ، وأن بين يدىَّ صحيفة بيضاء تسودّ قليلا قليلا كلما أجريت القلم فيها ، ولكنى لا أعلم هل يبلغ القلم مداه. أو يكبو [1] دون غايته، وهل أستطيع ان أتمم رسالتى هذه ، أو يعترضَ عارضٌ من عوارض الدهر فى سبيلها ، لأنى لا أعرف من شؤون الغد شيئاً ، ولأن المستقبل بيد الله

عرفتُ أنى لبست أثوابى فى الصباح ، وأنى لا أزال ألبسها حتى الآن ، ولكنى لا أعلم هل أخلعها بيدي او تخلعها يد الغاسل .

الغد شبح مبهم يتراءى للناظر من مكان بعيد ، فربما

(١) كبا سقط على وجهه

كان ملكا رحيما ، وربما كان شيطانا رجيما ، بل ربما كان سحابة سوداء اذا هبت عليها ريح باردة حللت اجزاءها، وبعثرت ذراتها، فأصبحت كأنما هى عدم من الاعدام التى لم يسبقها وجود

الغد بحر خِضمٌ زاخر يَعُبُّ عُبابه [1] ، وتصطخب أمواجه ، فما يدريك إن كان يحمل فى جوفه الدر والجوهر، أو الموت الاحمر

لقد غمض الغد عن العقول، ودق شخصه عن الانظار، حتى لو أن إنسانا رفع قدمه ليضعها فى خروجه من باب قصره لايدرى أيضعها على عتبة القصر ، أم على حافة القبر

الغد صدر مملوء بالأسرار الغِزار ، تحوم حوله البصائر، وتَتسقّطه [2] العقول، وتستدرجه الأنظار ، فلا يبوح بسر من أسراره إلا إذا جادت الصخرة بالماء الزلال

كأنى بالغد وهو كامن فى مَكمنه، رابض فى مَجثمه [3]

---

(١) يعب عبابه يرتفع موجه (٢) تسقط الخبر أخذه شيئا فشيئا (٣) مجثم الطائر موضع جثومه أي تلبده بالارض

متلفع بفضل إزاره، ينظر إلى آمالنا وأمانينا نظرات الهزء والسخرية، ويبتسم ابتسامات الاستخفاف والازدراء، يقول فى نفسه لو علم هذا الجامع أنه يجمع للوارث، وهذا البانى أنه يبنى للخراب، وهذا الوالد أنه يلد للموت، ما جمع الجامع، ولا بنى البانى، ولا ولد الوالد

ذلل الانسان كل عقبة فى هذا العالم، فاتخذ نفقاً فى الارض، وصعد بسلم إلى السماء، وعقد ما بين المشرق والمغرب بأسباب[1] من حديد، وخيوط من نحاس، وانتقل بعقله إلى العالم العلوى فعاش فى كواكبه، وعرف أغوارها وأنجادها، وسهولها وبطاحها، وعامرها وغامرها، ورطبها ويابسها، ووضع المقاييس لمعرفة أبعاد النجوم، ومسافات الأشعة، والموازين لوزن كرة الأرض اجمالا وتفصيلا، وغاص فى البحار فعرف أعماقها، وفحص تربتها وأزعج سكانها، ونبش دفائنها، وسلبها كنوزها، وغلبها على لآلئها

(١) الاسباب الحبال وكل مايوصل بين الشيئين

وجواهرها ، ونفذ من بين الأحجار والآكام الى القرون الخالية ، فرأى أصحابها وعرف كيف يعيشون ، وأين يسكنون ، وماذا يأكلون ويشربون ، وتسرّب من منافذ الحواس الظاهرة إلى الحواس الباطنة ، فعرف النفوس وطبائعها ، والعقول ومذاهبها ، والمدارك ومراكزها ، حتى كاد يسمع حديث النفس ودبيب المنى ، واخترق بذكائه كل حجاب ، وفتح كل باب ، ولكنه سقط أمام باب الغد عاجزاً مقهوراً لا يجرؤ على فتحه ، بل لا يجسر على قرعه ، لانه باب الله ، والله لا يطلع على غيبه أحداً

أيها الشبح الملثم بلثام الغيب ، هل لك أن ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلا لنرى صفحة[1] واحدة من صفحات وجهك المقنع ، أوْ لا ، فاقتربْ منا قليلا علنا نستطيع أن نستشف صورتك من وراء هذا اللثام المسبَل دوننا ، فقد طارت قلوبنا شوقاً إليك ، وذابت أكبادنا وجداً عليك

---

(١) صفحة الشيء جانبه

أيها الغد ، إن لنا آمالا كباراً وصغاراً ، وأمانيَ حساناً وغير حسان ، فحدثنا عن آمالنا أين مكانها منك ، وخبرنا عن أمانينا ماذا صنعت بها ، أأذلتها واحتقرتها ، أم كنت لها من المكرمين

لا لا . صن سرك فى صدرك ، وأبق لثامك على وجهك ، ولا تحدثنا حديثاً واحداً عن آمالنا وأمانينا ، حتى لا تفجعنا فيها فتفجعنا فى أرواحنا ونفوسنا ، فانما نحن أحياء بالآمال وان كانت باطلة ، وسعداء بالامانى وان كانت كاذبة :

وليست حياة المرء إلا أمانيا

إذا هى ضاعت فالحياة على الاثر

الكاس الاولى

كان لى صديق أحبه وأحب منه سلامة قلبه وصفاء سريرته وصدقه ووفاءه فى حالىْ بعده وقربه ، وغضبه وحلمه، وسخطه ورضاه ، ففرق الدهر بينى وبينه فراق حياة لا فراق ممات ، فأنا اليوم أبكيه حياً أكثر مما كنت أبكيه لو كان ميتاً ، بل أنا لا أبكى الا حياته ، ولا أتمنى الا مماته ، فهل سمعت بأعجب من هذه الخلة الغريبة فى طبائع النفوس

علقتْ حبالى بحباله حقبة من الزمان عرفته فيها وعرفنى ، ثم سلك سبيلا غير سبيله فأنكرته وأنكرنى، حتى ما أمر بباله ، لان الكأس التى علق بها لم تدع فى قلبه فراغا يسع غيرها وغير العالقين بها ، وربما كان يدفعني عن مخيلته دفعاً اذا تراءيتُ فيها ، لأنه اذا ذكرني ذكر معي

تلك الكلمات المرة التي كنت ألقاه بها في فاتحة حياته الجديدة ، وما كان له وهو يهيم في فضاء سعادته التي يتخيلها أن يكدر على نفسه بمثل هذه الذكرى صفاء هذا الخيال

ثم لم أعد أعلم من أمره بعد ذلك شيأ ، لان حياة المدمنين حياة متشابهة متماثلة ، لا فرق بين صبحها ومسائها ، وأمسها وغدها ، ذَهابٌ الى الحانات فشراب ، فخُمار [1] فنوم فذهاب ، كالحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفاها ، والمنظر المتكرر لا يَلفت النظر ولا يَشغَل الذهن ، حتى أن بعض من ينام على دورة الرحى يستيقظ عند سكونها ، وكان أحرى أن يوقظه دورانها

لذلك لم يَشغل هذا المسكين محلا من قلبي الا بعد أن سكنت دورته ، وهدأت حركته ، فلم أعد أراه معربداً في الحانات ، ولا مطرّحا في مدارج الطرق ، ولا معتقلا في أيدي الشُّرَط [2] هنالك سألت عنه فقيل لي انه مريض ،

(١) الخمار صداع الشراب (٢) الشرط أعوان الامير ومفرده شرطي بضم الشين وسكون الراء

فلم أعجب لشئ كنت أعُد له الايام والاعوام ، كما يَعد الفلكئُ الساعات والدقائق لكسوف الشمس واصطدام الكواكب

دخلت عليه أعوده فلم أجد عنده طبيباً ولا عائداً ، لأنه فقير ، والأطباء يظهرون الرحمة بالفقراء ، ويبطنون حب الصفراء والبيضاء ، والأصدقاء يخافون عدوى المرض وعدوى الفقر ، فلا يعودون المريض ولا يزورون الفقير

دخلت منزله فلم أجد المنزل ولا صاحبه ، لأنى لم أجد فيه ذلك الروح العالى الذى كان يرفرف بأجنحته فى غرفه وقاعاته ، ولم أر دُخَان المطبخ ، ولم أسمع ضوضاء الخدم، ولا بكاء الأطفال ، ولا رنين الأجراس ، فكأنى دخلت القبر أزور الميت ، لا المنزل أعود الحىّ

ثم تقدمت نحو سرير المريض فكشفت كِلّته البالية عن خيال لم يبق منه الا إهاب [1] لاصق بعظم ناحل ،

(١) الاهاب الجلد .

فقلت أيهـا الخيال الشاخص ببصره الى السماء قد كان لى فى إهابك هذا صديق محبوب فهل لك أن تدلنى عليـه ، فبعدَ لأيٍ مّا [1] حرك شفتيه وقال : هـل أسمع صوتَ فلان ، قلت نعم ممّ تشـكو ، فزفر زفرة كادت تتساقط لهـا أضلاعه وأجاب : أشـكو الـكاس الاولى ، قلت أى كأس تريد ؟ قال أريد الـكاس التى أودعتُها مالى وعقـلى وصحتى وشرفى ، وها أنا ذا اليوم أُودعها حياتى ، قلت قد كنت نصحتك ووعظتك ، وأنذرتك بهذا المصير الذى صرتَ اليـه فمـا أجديتُ عليـك شيئًا ، قال ما كنتَ تعلم حين نصحتنى من غوائل هذا العيش النـكد أكثر مما أعلم ، ولـكننى كنت شربت الـكأس الأولى فخرج الامر من يدى

كل كأس شربتها جنتْها علىّ الـكاس الاولى ، أما هى

(١) يقال فعله بعد لاى أى بعد ابطاء وما زائدة

فلم يَجنها عليّ غير ضعفى وقصور عقلى عن ادراك خداع الاصدقاء والخلطاء

لم تكن شهوة الشراب مركبة فى الانسان كبقية الشهوات فيُعذَر فى الانقياد اليها كما يعذر فى الانقياد الى غيرها من الشهوات الغريزية ، فلا سلطان لها عليه الا بعد أن يتناول الكاس الاولى ، فلمَ يتناولها ؟ يتناولها لان الخونة الكاذبين من خُلانه وعشرائه خدعوه عن نفسه فى أمرها ليستكملوا بانضمامه اليهم لذّتهم التى لا تتم الا بقراع الكؤوس وضوضاء الاجتماع ، ولو علمت كيف خدعوه وزينوا له الخروج عن طبعه ومألوفه ، وأيّ ذريعة تذرّعوا بها الى ذلك لتحققت انه أبله الى النهاية من البلاهة ، وضعيف الى الغاية التى ليس وراءها غاية

أنا ذلك الأبله وذلك الضعيف ، فاسمع كيف خدعنى الأصدقاء ، وزينوا لى ما يزينه الشيطان للانسان

قالوا إن حياتك حياة هموم وأكدار ، ولا دواء لهذه

الأدواء الا الشراب، وقالوا إن الشراب يزيد فى رونق الجسم ويبعث نشاطه، وأنه يفتق اللسان، ويعلم الانسان البيان، وانه يشجع الجبان، ويبعث فى القلب الجرأة والاقدام، هذا ما سمعته فصدقته وخدعت به

صدقت أن فى الشراب أربع مزايا، السعادة والصحة والفصاحة والاقدام، فوجدت فيه أربع رزايا، الفقر والمرض والسقوط والجنون

غرهم من الصحة ذلك اللون الأحمر الذى يتركه الشراب وراءه فى الأعضاء، وهو يتغلغل فى الاحشاء، ومن الفصاحة الهذر والهذيان، وهجر[1] القول وبذاءة اللسان، ومن الاقدام العربدة التى لا تسكن إلا فى غرفة السجن، ومن السعادة اللحظات القليلة التى يغشى فيها على عقل الشارب فيعمى عن رؤية ما يحيط به من الأشياء كما هى فتنعكس فى نظره الحقائق حتى يتخيل الشتم طرفة[2]

---

(١) الهجر الفحش (٢) الطرفة الملحة المستحسنة

والصفع تحية ، فيضحكه من ذلك ما يضحك الاطفالَ والممرورين (١)

أى سرور لمن يعيش فى منزل لا يزور الابتسام ثغراً من ثغور ساكنيه ، أى سرور لمن يودعه أهله كل يوم فى صباحه بالحسرات ، ويستقبلونه فى مسائه بالزفرات ، أى سعادة لمن يمشى دائما فى طريقه متلويا متخلّجاً (٢) يتسرب فى المنعطفات والازقة ، ويعوذ بألواذ (٣) الجدُر والاسوار ، فراراً من نظارات الجزار ، وتهكمات العطار ، وصرخات الخمار

ولقد كنت أرى هؤلاء الاشقياء فى فاتحة حياتى التعسة فكان يمر بخاطرى ما يمر بخاطر أمثالى من أنهم قتلى الادمان لا قتلى الشراب ، وكنت أقدّر لنفسى القصد فيه إن قُدّر لى فى أمره شئ حتى لا أبلغ مبلغهم ، ولا أنزل منزلتهم ، فلما شربت أخطأ العدّ وضاع الحساب ، وفسد

(١) المرور الذي هاجت مرته ويطلق على المجنون (٢) متثنيا (٣) لوذ الجبل جانبه والجمع ألواذ

التدبير ، واختلاف التقدير ، وغُلبت على أمرى كما يغلب على أمره كل مخدوع بمثل ما خدعت به ، ولولا الـكاس الأولى ما هلـكت ، ولا شـكوت الذى شـكوت ، ولولاها ما عافنى الاصدقاء ، ولا زهد فىّ الاقرباء ، فـكن أنت وحدك صديق السراء والضراء

فعاهدته على ذلك ثم تركته فى حالةٍ

تُصمّ السميعَ وتُعمى البصير ويُسأل من مثلها العافية

الدفين الصغير

الآن نفضت يدى من تراب قبرك يا بُنى وعدت إلى منزلى كما يعود القائد المنكسر من ساحة الحرب لا أملك إلا دمعة لا أستطيع إرسالها ، وزفرة لا أستطيع تصعيدها

ذلك لأن الله الذى كتب لى فى لوح مقاديره هذا الشقاء فى أمرك فرزقنى بك قبل أن أسأله إياك ، ثم استلبنيك قبل أن أستعفيه منك ، قد أراد أن يتمم قضاءه فىّ ، وأن يجرعنى الكأس حتى ثمالتها ، فحرمنى حتى دمعةً أرسلها ، أو زفرة أصعّدها ، حتى لا أجد فى هذه ولا تلك ما أتفرّج به مما أنا فيه ، فله الحمد راضياً وغاضباً ، وله الثناء منعما وسالباً ، وله منى ما يشاء من الرضا بقضائه ، والصبر على بلائه

رأيتك يا بني فى فراشك عليلا فجزعت ، ثم خفت عليك الموت ففزعت ، وكأنما كان يخيل الىّ أن الموت والحياة شأن من شؤون الناس وعمل من الأعمال التى تملكها أيديهم ، فاستشرت الطبيب فى أمرك فكتب لى الدواء ، ووعدني بالشفاء ، فجلست بجانبك أصبّ فى فمك ذلك السائل الاصفر قطرة قطرة ، والقدر ينتزع من بين جنبيك الحياةَ قطعة قطعة ، حتى نظرتُ فاذَا أنت بين يدىَّ جثة باردة لا حراك بها ، واذا قارورةُ الدواء لاتزال فى يدى ، فعلمت أنى قد ثكلتك وأن الأمر أمر القضاء ، لا أمر الدواء

سأنام يا بنى بعد قليل على فراش مثل فراشك ، وسيعالج منى المقدار ما عالج منك ، وأحسبُ أن آخر ما سيبقى فى ذاكرتى فى تلك الساعة من شؤون الحياة وأطوارها ، وخطوبها وأحداثها ، هو الندم العظيم الذى لا أزال أكابد ألمه على تلك الُجرَع المريرة التى كنت

أجرعك إياها بيدى وأنت تجود بنفسك فيربدّ وجهك ، وتختلج أعضاؤك ، وتدمع عيناك ، ومالك يد فتستطيع أن تمدها الى لتدفعنى عنك ، ولا لسان فتستطيع أن تشكوَ الىّ مرارةَ ما تذوق

لقد كان خيراً لى ولك يابنى أن أكل الى الله أمرك فى شفائك ومرضك ، وحياتك وموتك ، وألا يكون آخر عهدك بى يوم وداعك لهذه الدنيا تلك الآلامَ التى كنت أُجشمك اياها ، فلقد أصبحتُ أعتقد أنى كنت عوناً للقضاء عليك ، وأن كاس المنية التى كان يحملها لك القدر فى يده لم تكن أمرّ مذاقاً فى فمك من قارورة الدواء التى كنت أحملها لك فى يدى

ما أسمج وجه الحياة من بعدك يابنى ، وما أقبح صورة هذه الكائنات فى نظرى ، وما أشد ظلمة البيت الذي أسكنه بعد فراقك اياه ، فلقد كنتَ تطلع فى أرجائه شمسا مشرقة تضىء لى كل شئ فيه ، أما اليوم فلا ترى

عيني مما حولي أكثر مما ترى عينك الآن في ظلمات قبرك

بكى الباكون والباكيات عليك ما شاءوا ، وتفجعوا ما تفجعوا ، حتى اذا استنفدوا ماء شؤونهم ، وضعفت قواهم عن احتمال أكثر مما احتملوا ، لجأوا الى مضاجعهم فسكنوا إليها ، ولم يبق ساهراً في ظلمة هذا الليل وسكونه غير عينين قريحتين ، عين أبيك الثاكل المسكين ، وعين أخرى أنت تعلمها

لقد طال عليّ الليل حتى مللته ، ولكنني لا أسأل الله أن ينفرج لي سواده عن بياض النهار ، لأن الفجيعة التي فجعتها بفقدك لم تبق بين جنبيّ بقية أقوى بها على رؤية أثر من آثار حياتك ، فليت الليل باقٍ حتى لا أرى وجه النهار ، بل ليت النهار يأتي ، فقد مللت هذا الظلام

دفنتك اليوم يا بني ودفنت أخاك من قبلك ، ودفنت

من قبلكما أخويكما ، فأنا فى كل يوم أستقبل زائراً جديداً ، وأودع ضيفاً راحلا ، فيالله لقلب قد لاقى فوق ما تلاقى القلوب ، واحتمل فوق ما تحتمل من فوادح الخطوب

لقد افتلذ كل منكم يا بنى من كبدى فلذة فأصبحت هذه الكبد الحرقاء مزقا مبعثرة فى زوايا القبور ، ولم يبق لى منها الا دماء قليل لا أحسبه باقيا على الدهر ، ولا أحسب الدهر تاركه دون أن يذهب به كما ذهب باخوانه من قبل

لماذا ذهبتم يا بنى بعد ما جئتم ؟ ولماذا جئتم ان كنتم تعلمون أنكم لا تقيمون ؟

لولا مجيئكم ما أسفت على خلو يدى منكم ، لأننى ما تعودت أن تمتد عينى الى ما ليس فى يدى ، ولو أنكم بقيتم بعد ما جئتم ما تجرعت هذه الكأس المريرة فى سبيلكم

لقد كنت أرضى من الدهر فى أمركم أن يتزحزح لى

عن طريقى التى أسير فيها ، وأن يزوى وجهه عنى فلا أراه ولا يرانى ، ولا يحسن الى ولا يسىء ، ولا يتقدم الى بخير ولا شر ، ولا يتراءى لى مبتسما ولا مقطباً ، ولا ضاحكا ولا باكياً ، لو أنه رضى منى بذلك ، ولكنه كان أذكى قلباً ، وأنفذ بصراً ، من أن يفوته العلم بأنى ما كنت أبكى على النعمة لو لم تكن فى يدى ، وما كنت أجد مرارة فقدانها ، لو لم أذق حلاوة وجدانها ، وكان لابد له أن يجرى فىّ سنة الشقاء التى أخذ على نفسه أن يجريها فى الناس جميعا ، فلما عجز عن أن يدخل الىّ من باب الطمع ، دخل الى من باب الامل ، فهو يمنحنى المنحة فأغتبط بها حقبة من الدهر حتى إذا علم أن بذرة الأمل التى غرسها فى نفسى قد نمت وأزهرت ، وأنى قد استعذبت طعمها واستطبت مذاقها ، كرّ على فانتزعها من يدى أنعم ما أكون بها ، كما تنتزع الكأس البارذة من يد الظامئ الهيمان ، ليعظم وقع السهم فى كبدى ، ويفدح سلب النعمة من يدى .

ولولا ذلك ما نال مني منالا ، ولا وجد الى سبيلا

يا بني إن قدر الله لكم أن تتلاقوا في روضة من رياض الجنة ، أو على شاطئ غدير من غدرانها ، أو تحت ظلال قصر من قصورها ، فاذكروني مثل ما أذكركم ، وقفوا بين يدي ربكم صفاً واحداً كما يقف بين يديه المصلون ، ومدوا اليه أكفكم الصغيرة كما يمدها السائلون ، وقولوا له : اللهم انك تعلم أن هذا الرجل المسكين كان يحبنا وكنا نحبه ، وقد فرقت الأيام بيننا وبينه ، فهو لا يزال يلاقي بعدنا من شقاء الحياة وبأسائها ما لا طاقة له باحتماله ، ولا نزال نجد بين جوانحنا من الوجد به ، والحنين اليه ، ما ينغص علينا هناء هذه النعمة التي ننعم بها في جوارك بين سمعك وبصرك ، وأنت أرحم بنا وبه من أن تعذبنا عذاباً كثيراً ، فإما أن تأخذنا اليه أو تأتي به الينا ، لا بل لا تطلبوا منه الا أن يأتي بي اليكم ، فان الحياة التي كرهتها لنفسي لا أرضاها لكم ، فعسى أن يستجيب الله من دعائكم ما لم يستجب من دعائي فيرفع هذا الستار المسبل بيني وبينكم فنلتقي كما كنا

مناجاة القمر

أيها الكوكب المطل من علياء سمائه ، أأنتَ عروس حسناء تُشرف من نافذة قصرها ، وهذه النجوم المبعثرة حواليك قلائدُ من جمان ، أم ملك عظيم جالس فوق عرشه ، وهذه النيرات حور وولدان ، أم فص من ماس يتلألأ ، وهذا الافق المحيط بك خاتم من الانوار ، أم مرآة صافية ، وهذه الهالة الدائرة بك إطار ، أم عين ثرّة ثجاجة ، وهذه الاشعة جداولُ تتدفق ، أو تنور مسجور ، وهذه الكواكب شرر يتألق

أيها القمر المنير :

انك أنرت الارض وهادها ونجادها ، وسهلها ووعرها ، وعامرها وغامرها ، فهل لك أن تشرق فى نفسي

فتنير ظلمتها ، وتبددَ ما أظلها من سحب الهموم والاحزان

أيها القمر المنير :

ان بيني وبينك شبهاً واتصالا ، أنت وحيد فى سمائك، وأنا وحيد فى أرضى ، كلانا يقطعَ شوطه صامتاً هادئاً منكسراً حزيناً ، لا يلوى على أحد ، ولا يلوى عليه أحد ، وكلانا يبرز للآخر فى ظلمة الليل فيسايره ويناجيه ، يرانى الرائى فيحسبنى سعيداً لانه يغتر بابتسامة فى ثغرى ، وطلاقة فى وجهى ، ولو كُشف له عن نفسى ورأى ماتنطوى عليه من الهموم والأحزان ، لبكى لى بكاء الحزين إثْر الحزين ، ويراك الرائى فيحسبك مغتبطاً مسروراً ، لانه يغتر بجمال وجهك ، ولمعان جبينك ، وصفاء أَديمك ، ولو كُشف له عن عالمك لرآه عالماً خرابا ، وكونا يبابا ، لاتهب فيه ريح ، وَلا يتحرك شجر ، ولا ينطق انسان ، ولا يبغَم حيوان

أيها القمر المنير :

كان لى حبيب يملأ نفسى نورا ، وقلبى لذة وسرورا ، وطالما كنت أناجيه ويناجيني بين سمعك وبصرك ، وقد

فرق الدهر بينى وبينه ، فهل لك أن تحدثنى عنه وتكشف لى عن مكان وجوده ، فربما كان ينظر اليك نظرى ، ويناجيك مناجاتى ، ويرجوك رجائى

وهاأنذا يخيل الى أنى أرى صورته فى مرآتك ، وكأنى أراه يبكى من أجلى كما أبكى من أجله ، فأزداد شوقا اليه ، وحزناً عليه ، فابق فى مكانك طويلا تطل وقفتنا ، ويدم اجتماعنا

أيها القمر المنير :

مالى أراك تنحدر قليلا قليلا الى مغربك كأنك تريد أن تفارقنى ، ومالى أرى نورك الساطع قد أخذ فى الانقباض شيئاً فشيئاً ، وما هذا السيف المسلول الذى يلمع من جانب الأفق على رأسك

قف قليلا لا تغب عنى ، لا تفارقنى ، لا تتركنى وحيداً ، فانى لا أعرف غيرك ، ولا آنس بمخلوق سواك

آه لقد طلع الفجر ففارقنى مؤنسى ، وارتحل عنى صديقى ، فتى تنقضى وحشة النهار ، ويقبل الىّ أنس الظلام ،

أين الفضيلة

قرأت في بعض الروايات أن فتى قضى حقبة من دهره مولعاً بحب فتاة خيالية لم يرها مرة واحدة في حياته، وانما تخيل في ذهنه صورة ألفها من شتى المحاسن ومتفرقاتها في صور البشر ، فلما استقرت في مخيلته تجسمت في عينيه فرآها فأحبها حباً ملاك عليه قلبه وحال بينه وبين نفسه وذهب به كل مذهب ، فأنشأ يفتش عنها بين سمع الارض وبصرها أعواماً طوالا حتى وجدها

لاأستطيع أن أكذب هـذه القصة لأني أنا ذلك الفتى بعينه، لافرق بيني وبينه الا أنه يسمي ضالته الفتاة وأسميها الفضيلة ،وأنه فتش عنها فوجدها، وفتشت عنها حتى عييت بأمرها فما وجدت اليها سبيلا

فتشت عن الفضيلة في حوانيت التجار فرأيت التاجر

لصاً فى أثواب بائع ، وجدته يبيعنى بدينارين ما ثمنه دينار واحد، فعلمت أنه سارق للدينار الثانى ، ولو وُكلَ إلىَّ أَمر القضاء ما هان على أن أعاقب لصوص الدراهم ، وأُغفل لصوص الدنانير ، ما دام كل منهما يسلبنى مالى ويتغفلنى عنه

أنا لا أنكر على التاجر ربحه ، ولكنى أنكر عليه أن يتناول منه أكثر من الجزاء الذى يستحقه على ما بذل من جهده فى جلب السلعة وما أنفق من راحته فى سبيل صونها وإحرازها ،وكل ما أعرف من الفرق بين حلال المال وحرامه أن الأول بدلُ الجد والعمل ، والثانىَ بدلُ الغش والكذب

فتشت عن الفضيلة فى مجالس القضاء فرأيت أن أعدل القضاة من يحرص الحرصَ كله على أن لا يهفوَ فى تطبيق القانون الذى بين يديه هفوة يحاسبه عليها من منحه هذا الكرسى الذى يجلس عليه مخافة أن يسلبه إياه، أما انصاف المظلوم والضرب على يد الظالم وإراحة [1]

(١) أراح الحق على أهله أعاده إليهم

الحقوق على أهلها وانزال العقوبات منازلها من الذنوب فهي عنده ذيول وأذناب لا يأبه [١] لها، ولا يحتفل بشأنها، الا إذا أشرق عليها الكوكب بسعده فمشت مع القانون في طريق واحد مصادفة واتفاقا، فاذا اختلف طريقاهما بين يديه حكم بغير ما يعتقد، ونطق بغير ما يعلم، وادان البريء وبرأ المجرم، فاذا عتب عليه في ذلك عاتب كانت معذرته اليه حكم القانون عليه، كأنما يريد أن يجعل العقل أسير القانون، وما القانون إلا حسنة من حسنات العقل وصنيعة من صنائعه.

فتشت عن الفضيلة في قصور الأغنياء فرأيت الغني إما شحيحاً أو متلافاً، أما الأول فلو كان جاراً لبيت فاطمة رضي الله عنها وسمع في جوف الليل أنينها وأنين ولديها من الجوع ما مد أصبعيه الى أذنيه ثقة منه ان قلبه المتحجر لا تنفذه أشعة الرحمة، ولا تمر بين طياته نسمات الاحسان،

(١) أبه للشيء تفطن له واحتفل

وأما الثانى فماله بين الثغرين ، ثغر الحسناء ، وثغر الصهباء ، فعلى يد أى رجل من الرجلين تدخل الفضيلة قصور الأغنياء .

فتشت عنها فى مجالس السياسة فرأيت ان المعاهدة والاتفاق والقاعدة والشرط ألفاظ مترادفة معناها الكذب ، ورأيت أن الملك فى كرسى مملكته ، كالحوذىّ فى كرسىّ عربته ، لا فرق بينهما إلا أن هذا ينقض « تعريفته » ، وذاك ينقض معاهدته ، ورأيت ان أعدى عدوّ للانسان الانسان ، وان كل امة قد أعدت فى مخازنها ومستودعاتها وفى بطون قلاعها وعلى ظهور سفنها وفوق متون طياراتها ما شاء الله ان تعده لأختها من عدد الموت وأفانين العذاب ، حتى إذا وقع الخلف بينهما على حد من الحدود او جدار من الجدران لبس الانسان فروة السبع واتخذ له من تلك العدد الوحشية اظفاراً كأظفاره ، وانياباً كأنيابه ، فشحذ الأولى ، وكشر عن الأخرى ، ثم هجم على ولد ابيه

وامه هجمة لا يعود منها إلا بنفسه التي بين جنبيه ، وإنك لو سألت الجنديين المتقاتلين ما خطبكما وما شأنكما ، وعلام تقتتلان ، وما هذه الموجدة التي تحملانها بين جنبيكما ، ومتى ابتدأت الخصومة بينكما ، وعهدي بكما انكما ما تعارفتما إلا في الساعة التي اقتتلتما فيها ، لعرفت انهما مخدوعان عن نفسيهما ، وانهما ما خرجا من ديارهما الا ليضعا درّة في تاج الملك ، او نيشاناً على صدر القائد

فنشت عنها بين رجال الدين فرأيتهم الا من رحم الله يتجرون بالعقول في اسواق الجهل ، ورايت كلا منهم قد ثَغر له في كل راس من رءوس البشر ثُغرة ينحدر منها الى الأخلاق فيفسدها ، والمشاعر فيقتلها ، ليتوسل بذلك الى الذخائر فيسرقها ، والخزائن فيسلبها

فنشت عنها في كل مكان اعلم انه تربتها وموطنها فلم اعثر بها ، فليت شعري هل أجدها في الحانات والمواخير ، او في مغارات اللصوص ، او بين جدران السجون

سيقول كثير من الناس قد غلا الكاتب فى حكمه، وجاوز الحد فى تقديره ، فالفضيلة لا تزال تجد فى صدور الكثير من الناس صدراً رحباً ، وموردا عذبا ، وإنى قائل لهم قبل ان يقولوا كلمتهم انى لا انكر وجود الفضيلة ، ولكنى اجهل مكانها ، فقدعقد رياءُ الناس امام عينىّ سحابة سوداء أظلم لها بصرى حتى ما اجد فى صفحة السماء نجماً لامعاً ، ولا كوكباً طالعاً

كل الناس يدعى الفضيلة وينتحلها،وكلهم يلبس لباسها ويرتدى رداءها ويعدها عُدتها من منظر يستهوى الأذكياء والأغبياء ، ومظهر يخدع أسوأ الناس بالناس ظناً ، فمن لى بالوصول اليها فى هذا الظلام الحالك ، والليل الأليل

إن كان صحيحا ما يتحدث به الناس من سعادة الحياة وطيبها، وغبطتها ونعيمها ، فسعادتى فيها أن أعثر فى طريقى فى يوم من أيام حياتى بصديق يَصدُقنى الود وأَصدُقه ، فيقنعه منى ودى وإخلاصى دون أن يتجاوز ذلك الى ماوراءه

من مآرب وأغراض، وان يكون شريف النفس فلا يطمع في غير مطمع، شريفَ القلب فلا يحمل حقداً ولا يحفظ وِتراً، ولا يحدث نفسه في خلوته بغير ما يحدث به الناس في محضره، شريفَ اللسان فلا يكذب ولا ينُم ولا يلُم بعرض ولا ينطق بهُجر[1] شريفَ الحب فلا يحب غير الفضيلة، ولا يبغض غير الرذيلة

هذه هي السعادة التي أتمناها ولكني لا أراها

إني لأرى الرياض الغناء تهفو أشجارها، وترنُّ أطيارها، وأرى جداول الماء تنساب بين أنوارها وأزهارها، انسياب الأفاعي الرقطاء، في الرمال البيضاء، وأرى أنامل النسائم تَعبَثُ بمنشورات الأوراق، عبثَ الهوى بألباب العشاق، وأسمع ما بين صفير البلابل، وخرير الجداول، نغمات شجية تبلغ من نفس الانسان، مالا تبلغ أوتار العيدان، فلا يسرني منها منظر، ولا يطربني مسمع،

(١) الهجر الفحش.

لأنى لا أرى بين هذه المشاهد التى أراها ضالتي التى أنشدها

لقد سمُج وجه الرذيلة فى عينى، وثقل حديثها فى مسمعى، حتى أصبحت أتمنى أن أعيش بلا قلب، فلا أشعر بخير الحياة وشرها، وسرورها وحزنها

ولولا بنيّات صغار يفقدن بفقدى طيب العيش ونعيمه لفررت من هذا العالم الناطق إلى ذلك العالم الصامت، فأجد من الانس به والسكون إليه ما وجده الذى يقول:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوّت انسان فكدت أطير

الغنى والفقير

مررت ليلة أمس برجل بائس فرأيته واضعاً يده على بطنه كأنما يشكو ألماً، فرثيت لحاله وسألته ما باله، فشكا إلىّ الجوع، ففثأته [1] عنه ببعض ما قدرت عليه، ثم تركته وذهبت الى زيارة صديق لى من أرباب الثراء والنعمة فأدهشنى أنى رأيته واضعاً يده على بطنه وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائس الفقير، فسألته عما به فشكا إلى البطنة، فقلت يا للعجب، لو أعطى ذلك الغنىُّ ذلك الفقيرَ ما فضَل عن حاجته من الطعام ما شكا واحد منهما سُقماً ولا ألماً

لقد كان جديراً به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوْعته، ويطفئ غُلته، ولكنه كان محبا لنفسه، مغاليا بها،

(١) يقال فثأت فلانا عن فلان إذا سكنت غيظه عليه

فضم إلى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير فعاقبه الله على قسوته بالبِطنة حتى لا يَهنِئَ للظالم ظامُه، ولا يطيب له عيشه، وهكذا يصدق المثل القائل : بِطنة الغنى انتقامٌ لجوع الفقير :

ماضنت السماء بمائها، ولا شحّت الأرض بنباتها، ولكن حسد القوىُّ الضعيفَ عليهما فزواهما [1] عنه، واحتجنهما [2] دونه، فأصبح فقيراً معدِماً، شاكياً متظلماً، غرماؤه المياسيرُ الأغنياء، لا الأرض والسماء

ليتنى أملك ذلك العقل الذى يملكه هؤلاء الناس فأستطيع أن أتصوّر كما يتصوّرون حجةَ الأقوياء فى أنهم أحق باحراز المال وأولى بامتلاكه من الضعفاء، إن كانت القوةُ حجتَهم عليه فلم لا يملكون بهذه الحجة سلب أرواحهم كما ملكوا سلب أموالهم، وما الحياة فى نظر

(١) زوى عنه حقه منعه إياه (٢) احتجن الشيء إذا جذبه بالمحجن الى نفسه والمحجن الصولجان والمراد أنه استأثر به

الحيّ بأثمن قيمة من اللقمة في يد الجائع ، وان كانت حجتهم أنهم ورثوا ذلك المال عن آبائهم قلنا لهم إن كانت الابوّة علة الميراث فلم ورثتم آباءكم في أموالهم ولم ترثوهم في مظالمهم ، فلقد كان آباؤكم أقوياء فاغتصبوا ذلك المال من الضعفاء، وكان حقاً عليهم أن يردوا اليهم ما اغتصبوا منهم ، فان كنتم لا بد ورثاءهم فاخلفوهم في رد المال إلى أربابه ، لا في الاستمرار على اغتصابه

ما أظلم الاقوياء من بني الانسان وما أقسى قلوبهم ، ينام أحدهم ملء جفنيه على فراشه الوثير ، ولا يقلقه في مضجعه أنه يسمع أنين جاره وهو يُرْعَد برداً وقُراً ، ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام قديده وشِوائه، حلوه وحامضه، ولا ينغص عليه شهوته علمه أن بين أقربائه وذوي رحمه من تتواثب أحشاؤه شوقاً الى فُتات تلك المائدة ويسيل لعابه تلهفاً على فضلاتها ، بل ان بينهم من لا تخالط الرحمة قلبه ولا يعقد الحياء لسانه فيظل يسرُد على مسمع

الفقير أحاديث نعمته ، وربما استعان به على عد ما تشتمل عليه خزائنه من الذهب وصناديقه من الجوهر وغرفه من الاثاث والرياش ليكسر قلبه وينغص عليه عيشه ويبغض اليه حياته ، وكأنه يقول له فى كل كلمة من كلماته، وحركة من حركاته ، أنا سعيد لاني غنيّ ،وأنت شقيّ لانك فقير

أحسبُ لولا أن الاقوياء فى حاجة الى الضعفاء يستخدمونهم فى مرافقهم وحاجاتهم كما يستخدمون أدوات منازلهم، ويسخرونهم فى مطالبهم كما يسخرون مراكبهم ، ولولا أنهم يؤثرون الا بقاء عليهم ليمتعوا أنفسهم بمشاهدة عبوديتهم لهم، وسجودهم بين أيديهم ، لامتصوا دماءهم، كما اختلسوا أرزاقهم ، ولحرموهم الحياة كما حرموهم لذة العيش فيها .

لا أستطيع أن أتصور أن الانسان انسان حتى أراه محسناً ، لانى لا أعتمد فصلا صحيحاً بين الانسان والحيوان الا الاحسان ، وانى أرى الناس ثلاثة ، رجل

يحسن الى غيره ليتخذ إحسانه اليه سبيلا الى الاحسان الى نفسه ، وهو المستبد الجبار الذى لايفهم من الاحسان الا أنه يستعبد الانسان ، ورجل يحسن الى نفسه ولا يحسن الى غيره ، وهو الشره المتكالب الذى لوعلم أن الدم السائل يستحيل الى ذهب جامد لذبح فى سبيله الناس جميعاً ، ورجل لايحسن الى نفسه ولا الى غيره ، وهو البخيل الاحمق الذى يجيع بطنه ليشبع صندوقه ، أما الرابع وهو الذى يحسن الى غيره ويحسن الى نفسه ، فلا أعلم له مكانا ، ولاأجد اليه سبيلا ، وأحسَبُ أنه هو الذى كان يفتش عنه الفيلسوف اليونانى ديوچين الكلبى حينما سئل ما يصنع بمصباحه وكان يدور به فى بياض النهار فقال « أُفتش عن انسان »

مدينة السعادة

رأيت فيما يرى النائم أنى أمشى فى قفرة جرداء قد انبسطت رمالها على سطحها متجمدة تجمدَ الامواج المتكسرة على سطح القاموس[1] المحيط، وكانت الشمس قد طفلت[2] للاياب فلم أر فى بطحائها ظلا غير ظلى المستطيل الذى رسمته يد الشمس فأخطأت في تصويره كأنما حسبتنى آدم أبا البشر[3] فأوسعتنى طولا، ورسمتنى ميلا

أنشأت أمشى لا أعرف لى مذهبا ولا مضطرَبا، وأنى يكون ذلك فى صحراء قد تشابهت مسالكها، وتشاكلت مذاهبها، وانفرج ما بين قاصيها ودانيها، حتى

---

(١) القاموس وسط البحر ومعظمه (٢) طفلت الشمس احمرت للغروب
(٣) ربما لم يكن آدم أطول من بنيه قامة ولكن التشبيه بحسب الخيال الذهنى على حد قوله تعالى (كأنه رؤوس الشياطين)

انحدرت الشمس الى مستقرها ، وطار طائر الليل من مكمنه ، وما نشر الظلام أجنحته السوداء فى الافق حتى وجدتُنى أحير من دمعةوجد ، فى مقلة عاشق ، يدفعها الحب ويمنعها الحياء ، لا أعلم هل أنا سرٌ كامن فى باطن الظلماء ، أو حوت مضطرب فى أعماق الماء ، وأحياناً كان يخيل الي أنى فى منجم من مناجم الفحم فأمد يدي أتلمّس جدرانه مخافة أن أصطدم بواحد منها ، ولم أزل كذلك حتى شعرت بأن الظلام قد بدأ ينفض صبغته ، وأن ذراته تتطاير ههنا وهبنا ، فاذا أنا بين يدى جبل عال كأنما هو جدار قائم يمسك السماء أن تقع على الارض ، أو ملك جبار قد لبس من قرص الشمس التاج الاحمر ، ومن شعاعها الرداء الاصفر

ولا تسل هنالك عما ألم بقلبى من الهم وعقلى من الخبال حينما رأيت أن صعود السماء أقرب الى الامل ، من صعود هذا الجبل ، وحرت بين الإقدام والإحجام ، فلم أربداً من الاستسلام ، لمقدور الحمام ، ثم رميت بطرفى

فرأيت بين الصخور المبعثرة فى سفح الجبل صخرة بيضاء ناعمة الملمس فاضطجعت عليها وأنا أتمثل بقول أبى العلاء

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ جسم فيها والعيش مثل السهاد

وما هى الا غمضة الطرف أن شعرت بأنها تتحرك قليلا قليلا ثم استقلت ثم طارت ، فكدت أحسب أنه الموت قد نزل وأنها الروح تصعد الى الملأ الاعلى لولا أن فتحت عينىّ فرأيت ما كنت أحسبه صخرةً طائراً أشبه شىء بالنّسر فى خَلقه والقبة فى ضخامتها واستدارتها ، واستمرّ ذاهباً بى فى أفق السماء ثم رنق لحظة فى الهواء ثم هبط الى قمة الجبل فأسرعت بالانحدار عنه وهنالك أحسست بسلسبيل بارد من الامل يتسرّب الى قلبى فينَقع غلته ، ويطفئ لوعته ، لأنى رأيت السفح الثانى ورأيت بهجة الحياة وزهرة العمران

رأيت على البعد خطوط الخضرة حول سطور الماء ، ورأيت الاكواخ الصغيرة والقصور العظيمة كأنهما العصافير

السوداء ، والحمائم البيضاء ، وكأن ماألم بنفسى من السرور أنسانى ما ألم بجسمى من النصب فانحدرت اليها فما بلغتها حتى رأيتُنى فى مزرعة فى وسطها بِنْيةٌ قد وقف على بابها شيخ هو أشبه الاشياء بما يتخيله فريق الخياليين من علماء الهيئة فى صور سكان المريخ فذُعر منى كما يُذعر الانسان ، لرؤية الجان ، وما كان الذى قام فى نفسه منى بأكثر مما قام فى نفسى منه لولا أنى ألفت الغرائب ، وعجمت عود العجائب ، فتقدمت نحوه وكأنما أُلهمت لغته تحيته بها فحيانى وهو يقول : ما كنت أحسب أن الشمس تطلع على مدينة غير هذه المدينة ، أو أن فى العالم انسانا غير هذا الانسان ، فما زلت أحدثه وأستدنيه حتى أنس بى ودعانى الى منزله وخلطنى بنفسه وأهله وقدم لى طعاماً شهيا ومهد لى مرقداً وثيراً [١] وكان الليل قد أقبل للمرة الثانية من هجرتى هذه فنمت نوماً هادئاً مطمئنا لا تروعنى

(١) الوثير الوطيء

فيه خواطر الموت ولا وساوس الهلاك

استيقظت أنا والشمس من مرقدينا على صوت تلك الاسرة الطاهرة الكريمة تصلى الى الله تعالى صلاة الخاشعين المتبتلين وتدعو وهى مصطفة صفا واحداً أن ييسر لها الله عسرها ، ويسهل أمرها ، ويصلح شأنها ، ويمنحها معونته ونصره ، فأخذ منظرها هذا من نفسى مأخذاً عظيما فلم أر بدأ من الانتظام فى صفها ، والدعاء بدعائها ، والبكاء لبكائها ، وعجبت أن يكون مثل هذا الايمان الخالص راسخاً فى نفوس أهل هذه المدينة ولم يُرسل اليها رسول ، ولم ينزل عليها كتاب ، فلما فرغنا من الصلاة التفتُّ الى صاحب البيت وقلت له أراكم تتعبدون فمن تعبدون ، وتصلون فمن الذى تدعون ، قال نعبد الله خالق هذه الكائنات ومدبرها ، قلت هل رأيتموه حتى عرفتموه ؟ قال نعم رأيناه فى آثاره ومصنوعاته ، رأيناه فى السماء والماء،

والفلك الدائر ، والنجم السائر ، وفى أجنة الحيوان ،وبذور النبات ، ورأيناه فى أنفسنا وعقولنا وأرواحنا قبل ذلك ، قلت ولم تعبدونه ، قال شكراً له على نعمة الخلق والرزق ، وإن أحدنا ليعنيه أن يشكر لصاحبه نعمته اذا أحسن اليه بجرعة أو أنعم عليه بمضغة فأحر به أن يشكر مانح المانحين، والمحسن الى المحسنين ، فقلت فى نفسى لقد بلغ الرجل مرتبة الموحدين الصادقين ، الذين يعبدون الله مخلصين له الدين ، لا يرجون ثواباً ، ولا يخافون عقاباً ، ثم سألته أين تذهبون بعد الموت ، قال الى النعيم المقيم ، أو العذاب الأليم ، قلت لعلك تريد الجنة والنار ، قال لا أفهم ما تقول، وإنما أعلم أن الإله الحكيم لا يترك المحسن دون أن يجازيه خيراً على احسانه ،كما يأبي عدله أن يسوى بين المحسن والمسيء ، قلت متى يكون المحسن محسناً والمسيء مسيئاً ، قال الإحسان عمل الخير والاساءة عمل الشر ، لذلك لا ترى بيننا من يحدث نفسه بالاضرار بأخيه أو من يقصر في دفع

الاذى عنه ، فقلت فى نفسى ليت الفقهاء الذين ينفقون أعمارهم فى الحيض والاستحاضة والمذى والودى[١] والحدث الاكبر ، والحدث الاصغر ، وليت الكلاميين الذين يسهرون الليالى ويقرحون المآقى فى عينية الصفات وغيريتها والجوهر والعرض والحدوث والقدم والدور والتسلسل ، وليت المتصوفة الذين يحاولون أن ينازعوا الله فى مشيئته ويجاذبوه قدرته ويغالبوه على أمره ونهيه ويزاحموه فى لوحه وقلمه يعرفون من سر الدين وحكمته والغرض الذى قام له مايعرف هؤلاء البله الاغرار الذين لايفهمون معنى الجنة والنار ، ولايميزون بين الدين والتين

فرغنا من الحديث وعرضت على الشيخ أن يُزيرني المدينة فانحدر بى اليها فرأيت شوارعها فسيحة منتظمة ومنازلها متفرقة غير متلاصقة ؛ وقد أحاطت بكل منزل منها حديقة زاهرة ، ورأيت سكانها مكبين على أعمالهم ، مجدين

(١) المذي والودي نوعان من الماء الذى يخرج من القضيب

فى شؤونهم ، صغاراً وكباراً ، رجالا ونساء ، مافيهم فقير يتسول ، ولا متبطّل يتثاءب ويتململ ، وأغرب ما استهوى نظرى انى لم أر فى تلك المدينة ذلك التفاوت الذى أعرفه فى مدائننا بين الناس فى منازلهم ومراكبهم ، ومطاعمهم ومشاربهم ،وهيآتهم وأزيائهم ، كأن جميع سكانها سواسية فى حالة المعيشة ودرجة الثروة، فسألت الشيخ ألا يوجد فيكم غنى وفقير،وسيد ومسود ، قال لا ياسيدى ، حسبُ الرجل منا بيت يؤويه ومزرعة تُقيتـه ودابة تحمل أثقاله ثم لاشأن له بعد هذا فيما سوى ذلك ، لذلك لا يوجد فينا سيد ومسود، لانه لا يوجد فينا غنى وفقير ، قلت لا بد أن يكون بينكم العاجز عن العمل والعاطل الكسول ، قال أما الكسول فلا وجود له بيننا لانه يعلم أنا لا نرحمه ولا نغفر له زلته فى احتقار نعمة العقل والقوة بتعطيلهما عن العمل ، وأما العاجز فنحدب عليه ونحسن اليه ، ولا نرى لأنفسنا فى ذلك فضلا ، لأننا إنما نمنحه جزءاً

من القوة التى منحنا اللهُ إياها لنعبده بها، ولا نرى في وجوه العبادة أفضل من مواساة العاجزين، ورحمة البائسين.

وإنه ليحدثنى بهذا الحديث إذ لاحت لنا بنية فخمة تمتاز عن غيرها من البنى بحسن نظامها، وجمال هندامها، فقلت للشيخ هل أرى قصر الملك، قال لا، ولكنه قصر رجل شرير طماع قد خالف إرادة الله وحكمته فاحتجن [1] دون عباده أرضهم وما لهم ليعلو عليهم، ويستأثر بالنعمة من دونهم، فغضب الله عليه، وقلب نعمته نقمة، ورخاءه شدة، فانه ما أراح [2] رائحة العيش الرغد حتى أسلم نفسه إلى شهواتها، وحملها فوق ما تحمل طبيعتها، فهاهو ذا اليوم يقاسى من آلام الامراض وأنواع الاسقام ما بغض اليه العيش، وحبب اليه الموت، لم يحمه قصره، ولم يغن عنه ماله، فهو عبرة المعتبرين، وموعظة السابلين [3] فكبر الرجل

(١) احتجن المال ضمه واحتواه (٢) أراح فلان الشيء وجد ريحه (٣) السابلة المختلفون على الطرقات في حوائجهم

فى ذَرعى [1] وعظم فى عيني وأكبرت فيه وفى أمته هذه الخلالَ الشريفة ، والاخلاق العالية ، وقلت فى نفسى إن مدارسنا على ما تشتمل عليه دروسها من قواعد الحكمة وأصول التربية وفنون الآداب لتعجز عن أن تخرج للناس رجالا يستطيعون أن يساجلوا هؤلاء القوم في صفاتهم وفضائلهم ، وأردت على ذكر المدارس أن أعرف مناهج التعليم عندهم فقلت للشيخ هل لك أن تُزيرني مدرسة من مدارسكم ، فعجب لسؤالى وقال ما المدرسة ، فكان عجبى لجوابه أكثر من عجبه لسؤالى وقلت المدرسة مكان محدود يجتمع فيه صغار يتعلمون ، وكبار يعلّمون ، قال ما الذى يتعلمه الصغار من الكبار ، قلت ما يصلح شأنهم وينفعهم فى معاشهم ومعادهم ، قال وأى حاجة بنا إلى مثل هذا المجمع الحاشد فى مثل هذا المكان المحدود ، إننا ياسيدى أرحم بأبنائنا من أن نكل أمرهم الى غيرنا ، فنحن الذين نتولى هذا

(١) كبر فى ذرعى عظم وقعه عندي

الشأنَ منهم، فلا مدارس عندنا غير المصانع والمزارع نعلمهم فيها كيف يرمون البذور وكيف يستنبتونها، وكيف يصنعون الآلات وكيف يستعملونها ، وفيها نعلمهم كيف يبنون منازلهم، وينسجون ملابسهم، ويُعدون عددهم ، وإنا لا نعرف علماً غير العمل، ولا نعرف من العمل غير ما نحفظ به قِوام حياتنا ، ونستعين به على عبادة ربنا ، قلت ألكم حاكم يتولى أموركم ، قال لنا حكم لا حاكم، وهو رجل قد وثقنا به وبفهمه واستقامته. فاخترناه لفصل الخصومات إن عرض لنا من ذلك عارض ، قلت أليس له جند وأعوان يؤيدونه ويتولون تنفيذ أحكامه ، قال نعم كلنا جنده وكلنا أعوانه على كل من يختلف عليه أو يتمرد على حكمه فقد وثقنا به وبعدله وحسبنا ذلك وكفى ، قلت أليس له سجن يسجن فيه المجرمين، قال لا ، حسب المجرم عندنا عقوبة أن يتفق أهل المدينة على احتقاره والزراية به ، وإن أحدنا ليؤثر أن يتخطفه الطير أو يسقط عليه كِسف[1] من السماء على أن يرى نفسه بغيضاً إلى

(١) الكسف القطعة

قومه ، صغيراً فى نفوسهم ، ذليلا فى أعينهم ، لا يرفعون اليه طرفاً ، ولا يقيمون له وزناً

وما وصلنا من حديثنا إلى هذا الحد حتى كنا قد فرغنا من الطواف بالمدينة ، ووصلنا إلى المنزل الذى خرجنا منه ، فاستقبلَنا أهلُه بالبشر والترحاب ، واستقبلوا شيخهم بالتقبيل والعناق ، فلم أر فيما رأيت من البيوت فى مدن العالم وقراه بيتاً أسعد حظاً ولا أنعم عيشاً ولا أروحَ بالا من هذا البيت

تلك هى مدينة السعادة التي يعيش أهلها سعداء لا يشكون هما ، لأنهم قانعون ، ولا يمسكون فى أنفسهم حقداً ، لأنهم متساوون ، ولا يستشعرون خوفا لأنهم آمنون

تلك مدينة السعادة التى رأيتها فأحببتها وأحببت العيش فيها لولا أن لله فى خلقه سنةً لا تتبدل ، وشأناً لا يتحول ، فقد جاء الليل وأخذت مكانى من مرقدى فى منزل الشيخ فلم أستيقظ حتى رأيتُنى فى فراشى فى منزلى ،

فلا السهل ولا الجبل ، ولا الشيخ ولا المزرعة ، ولا المدينة ولا السعادة

ولما نزلنا منزلا طلّه [١] الندى
أنيقاً وبستاناً من النوْر حاليا

أجدّ لنا طيبُ المكان وحسنه
منى فتمنينا فكنتِ الأمانيا

---

(١) طله أمطره الطل وهو المطر القليل

أيها المحزون

إن كنت تعلم أنك قد أخذت على الدهر عهداً أن يكون لك كما تريد فى جميع شؤونك وأطوارك، وألا يعطيك ولا يمنعك إلا كما تحب وتشتهى ، فجدير بك أن تطلق لنفسك فى سبيل الحزن عِنانها كلما فاتك مأرب ، أو استعصى عليك مطاب ، وإن كنت تعلم أخلاق الايام فى أخذها وردها ، وعطائها ومنعها ، وأنها لاتنام عن منحة تمنحها، حتى تكُر عليها راجعة فتستردها، وأن هذه سنّتها وتلك خلتها فى جميع أبناء آدم، سواء فى ذلك ساكنُ القصر وساكن الكوخ، ومن يطأ بنعله هام الجوزاء ، ومن ينام على بساط الغبراء ، فخفّضْ من حزنك ، وكفكف من دمعك ، فما أنت بأول غرض أصابه سهم الزمان ، وما

مصابك باول بدعة الطريفة فى جريدة المصائب والأحزان

أنت حزين لان نجماً زاهراً من الأمل كان يتراءى لك فى سماء حياتك فيملأ عينيك نوراً ، وقلبك سروراً ، وما هى إلا كرة الطرف أن افتقدته ، فما وجدته ، ولو أنك أجملت فى أملك ، لما غلوت فى حزنك، ولو أنك أنعمت نظرك فيما تراءى لك ، لرأيت برقاً خاطفاً ، ماتظنه نجماً زاهراً ، وهنالك لا يبهرك طلوعه ، فلا يفجعك أفوله

أسعد الناس فى هذه الحياة من إذا وافته النعمة تنكر لها، ونظر إليها نظرة المستريب بها، وترقب فى كل ساعة زوالها وفناءها ، فان بقيت فى يده فذاك ، وإلا فقد أعد لفراقها عدته من قبل

لولا السرور فى ساعة الميلاد ما كان البكاء فى ساعة الموت، ولولا الوثوق بدوام الغنى ما كان الجزع من الفقر ، ولولا فرحة التلاق ، ما كانت ترحة الفراق

الى الدير

مسكينٌ ذلك الفتى الذى رأيته صباح أمس منزوياً في ركن من الأركان في أحد الاندية وقد ظللت جبينه الوضاح سحابةٌ سوداء من الحزن وانحنى على نفسه كأنما هو يشعر أن قلبه يتنزّى في صدره وأنه يحاول الفرار منه فهو يعطف عليه ليمسكه بين جوانحه، ولو أنه أراد بنفسه خيراً لتركه وشأنه يمضى في سبيله حيث شاء، فبعداً لقلب لا يسكن عن الخفقان، ولا يفيق من الهموم والأحزان

سألته مابالك أيها الصديق، قال لا شيء، قلت أأنت تكتمُني مافى نفسك ولو عرفتني ما كتمتني، قال ماجهلتك مذ عرفتك، ولكنني أعطيت الله تعالى عهداً مذ خُلقت ألا أشكوَ إلا إلى من أرجو عنده البرء، وما أنا براج

عندك ولا عند أحد من الناس بُرءًا من دائى ، قلت هبنى طبيباً ، والطبيب وان كان لا يشفى إلا نادراً فانه يسكّن غالباً ويعزى دائماً ،فأنا إن عجزت عن معالجتك ، فلا أعجز عن تعزيتك ، على أن الماء اذا اشتد غليانه احتاج الى التنفيس عنه ، وإلا طار بالقدر ، طيران الهم بالصدر

فأصغى إلى كلماتى واستخذى لها وأنشأ يحدثنى حديثاً تمازجه العبرات ، وتقطعه الزفرات ، ويقول : زوجنى أبى منذ سنين من زوجة جاهلة غبية لا تفهم من معنى الزواج إلا أن فيه قضاء لبانتها وترفيه عيشها ، وإرضاء نفسها ، وهو يحسب أنه قد أحسن إلى بسليلة المجد ، وربيبة النعمة ، ومالكة الدور ، وساكنة القصور ، أجل إنها ذات مال وفير ، وخير كثير ، ولكن ذهب عليه غفر الله له أننى ما كنت أريد أن أكون تاجراً أكسب مالا ، بل زوجاً أجد بجانبي نفساً يؤنسنى محضرها ، ويوحشنى مغيبها ، ومرآة صافية نقية أتراءى فيها فترينى نفسى كما هى ، لا تكذبنى فى خير

ولا شر ، وإنى أريد أن أجد فى الزوجة التى أتزوجها صديقاً فى المرتبة العليا من مراتب الصداقة ،ومن لى به فى امرأة تجهل حتى إرضاع طفلها ، ولبس ثوبها ، على أن ثروتها ما كانت تقوم بحاجتها،فقد كانت لها خادم لملابسها وأخرى لشعرها وأخرى لسريرها وطابخة وغاسلة ومرضع وقهرمانة وخياطة خاصة بها، وطبيب لا يُغب[1] زيارتها، ومؤنسات لا يفارقن مجلسها ، ولم تكن ممن أنعم الله عليهن بنعمة الجمال فكانت تنفق ما يزيد على نصف دخلها فى الحسن المجلوب ، والجمال المكذوب ، وليتها كانت تُغفل أمرى وتتركنى وشأنى فأستطيع أن أتناساها وأعد نفسى من العزّاب تخيلا وتقديراً ، بل كانت تقيم علىّ من نفسها ومن هذا الجحفل اللجب[2] المحيط بها حراساً كحراس الليل وجواسيس كجواسيس الانكليز يرقبن مواقع نظرى، ومواطئ قدمى،

---

(١) أغب فلان القوم إذا جاءهم حيناً بعد حين (٢) الجحفل الجيش واللجب ذو الجلبة والصياح

لتعلم أين مذهب قلبي، ووجهة نفسي، فتغار على من الكواكب إذا رأتني أنظر اليه، وتكاد تمزق الثوب الذى تعلم أنى أحبه وأوثره، وتحسبها آهة الوجد أو دمعة الحب إذا رأتنى أتأوه من آلام عشرتها، أو أبكي لعظم مصيبتي فيها، وما هى بغيرة الحب ولكنها الأَثَرة [1] قبحها الله وقبح كل ما تأتى به، وأكثر ما كان يغيظنى منها أنهاما كانت تفتح علىّ باب الحساب على اللفتات والخطوات الا فى الساعة التى أريد أن أخلو فيها بنفسى أو بكتابى، فما أكاد أنتفع بواحد منهما، فان سكت أغضبها سكوتى، وان نطقت أغضبها حديثى، وان قرأت في كتابى ظنت أن المؤلفين ما ألفوا الكتب الا نكاية بها لاستطيع أن أتخذها معتصما أعتصم به من محادثتها ومسامرتها، فكان الكتابُ فى نظرها أعدى أعدائها، وأبغض الاشياء اليها، وجملة القول إنها ما كانت تستطيع أن تتصور الا أن الله خلقها لتكون طفلة

(٢) الاثره اختيار الشيء والاستئثار به

لاهية لاعبة فى جميع أطوار حياتها ، وأنه ماخلقنى إلا لاكون زينة مجلسها ، ودُمية [1] قصرها ، وأداة لهوها ولعبها ، فلاأقرأ ولا أكتب ولا أعطى نفسى حقاً من حقوقها،ولاأبكر لمزاولة أعمالى،ولاأسأم أحاديثها الطويلة المملة التى لاتشتمل الا على نقد الازياء ، واغتياب النساء ، فان وافيتُ رغبتها فذاك ، والا استحالت فى لحظة واحدة من إنسان ناطق الى وحش مفترس ، فلا تعرف كلمة مؤلمة لاتُسمِعُنيها ،ولا تترك وسيلةمن وسائل التنغيص لاتهجم بها علىّ ، فكنت بين ألم رضاها وعذاب غضبها فى شقاء حَبب الى الموت وبغض الى وجه الحياة ، وبعد فقدرأيت أن العيش معها مستحيل فلم أر بداً من فراقها ففارقتها وما على وجه الارض شىء أبغض الى من المجد ، ولا أسمج فى نظرى من المال ، قلت ولكننى لا أزال أراك حزيناً حتى الساعة ، قال نعم لاننى نفضت يدى من الزوجة الجاهلة ،

(١) الدمية الصورة المنحوتة من المرمر

ورحت أفتش عن الزوجة المتعلمة ، وقلت ليكونن لى من الشأن في الزواج الثانى مالم يكن لى فى الزواج الأول ، بعد ماصار الى الخيار ، وبعد تلك التجربة وذاك الاختبار ، فهيأ لى الحظ جاراً ملاصقاً مازلت أسمع مذ حل فى جواري أن فى بيته فتاة جميلة مازال يُعنى بأمرها حتى خَرّجها[1] وأدبها ، فأصبحت نابغة مدرستها ، وسيدة أترابها ، علماً وفضلا وتهذيباً وأدباً ، فما قنعت بالخبر حتى خالطت أباها ثم خالطتها فاذا المرأةُ الجديدة من جميع وجوهها ، فوقعت من نفسى أحسن موقع ، وحلت مكاناً لم يكن حُلَّ من قبل

خطبت الفتاة إلى أبيها فمالبث أن أخطبنى[2] فامتلأ قلبى فرحاً وسروراً وخيل إلى أننى أرى فى سماء الآمال نجماً لامعاً ينير ظلمة حياتى ، وسجلت أن الدهر أنشأ يكفر بحسناته ، ما أسلف من سيئاته ، فانى لكذلك وقد

(١) خرج الاستاذ تلميذه هذبه وعلمه (٢) يقال خطب فلان الى فلان فأخطبه أي أجابه

أعددت للبناء بها عدته ولم يبق بيني وبينه إلا يوم واحد إذا بالبريد قد هجم على بهذا الكتاب ، فها كه فاقرأه فان فيه بقية قصتي ، وسر نكبتي ، ثم ألقى إلى بكتاب معنون باسمه ففضضته فوجدت فيه بطاقة تشتمل على رسم فتى حسن الصورة والهندام يخاصر فتاة جميلة وقد ألقت برأسها على كتفه ووجدت مع البطاقة كتاباً فقرأت فيه ما يأتي ،

« علمت أنك خطبت فلانة الى أبيها وأنك عما قليل ستكون زوجها ولعمري لقد كذبك نظرك ، وخدعك من قال لك إنك ستكون سعيداً بها ، فانها لن تكون لك بعد أن صارت لغيرك ، ولا يخلص حبك إلى قلبها بعد أن امتلأ بحب عاشقها ، فاعدل عن رأيك فيها ، وانفض يدك منها ، وان أردت أن تعرف من هو ذلك العاشق وتتحقق صدق خبري واخلاصي اليك في نصيحتي فانظر الى الصورة المرسلة مع هذا الكتاب » التوقيع

فما نظرت الصورة وقرأت الكتاب حتى عرفت

كل شيء فأحسست برعدة تتمشى فى أعضائى ، وشعرت بسحابة سوداء قد غشت على نظرى لهول ما سمعت ، وسوء مارأيت ، الا انى تماسكت قليلا فأعدت اليه كتابه وقلت له وهو كل ما استطعت أن أقول : ماذا يعنيك من أمر فتاة عاهر بعد ما انكشف لك سرها ، وظهرت لك حقيقتها ، ولو كنت مكانك لعدلت عن الحزن على فوتها ، الى الاستغفار من حبها ، وحمد الله على ما ألهم من صواب الرأى فيها ، أما إن سألتنى عن رأيى في زواجك بعد الآن فانى لا أرى لك الا أن تترهب وتتعزب[1] وأن تقول ماقاله « هملت » وقد زهد فى الزواج بعد ماعرف حقيقة المرأة وأدرك خبيثة نفسها « الى الدير ، الى الدير »

---

(١) تعزب أي عاش عزباً لايتزوج

الرحمة

سأكون في هذه المرة شاعراً بلا قافية ولا بحر، لأني أريد أن أخاطب القلب وجهاً لوجه، ولا سبيل الى ذلك الا سبيل الشعر

إن البذور تُلقى في الارض فلا تنبت الا إذا حرث الحارث تربتها، وجعل عاليها سافلها، كذلك القلب لا تبلغ منه العظة الا اذا داخلته، وتخللت أجزاءه، وبلغت سويداءه، ولا محراث للقلب غير الشعر

أيها الرجل السعيد كن رحيما، أَشعرْ قلبك الرحمة، ليكن قلبك الرحمة بعينها

ستقول إني غير سعيد لأن بين جنبيّ قلباً يُلم به من الهم ما يلم بغيره من القلوب، أجل فليكن ذلك كذلك، ولكن أَطعِم الجائع واكسُ العاريَ وعزِّ المحزونَ وفرج

كربة المكروب يكن لك من هذا المجموع البائس خير عزاء يعزيك عن همومك وأحزانك ، ولا تعجب أن يأتيك النور من سواد الحلك، فالبدر لا يطلع الا إذا شق رداء الليل ، والفجر لا يَدرُج الا من مهد الظلام

لقد بليَت اللذات كلها ورثت حبالها، وأصبحت أثقل على النفس من الحديث المعاد ، ولم يبق ما يعزى الانسان عنها الالذة واحدة هى لذة الاحسان

إن منظر الشاكر منظر جميل جذاب ، ونغمة ثنائه وحمده أوقع فى السمع من العود فى هَزَجه ورَمَله [1] وأعذب من نغمات مَعبد فى الثقيل الاول [2]

أحسن الى الفقراء والبائسين ، وأعدك وعداً صادقاً أنك ستمر فى بعض لياليك على بعض الاحياء الخاملة فتسمع من يحدث جاره عنك من حيث لا يعلم بمكانك ، أنك أكرم مخلوق ، وأشرف انسان، ثم يعقب الثناء عليك بالدعاء

(١) الهزج والرمل نوعان من الموسيقى (٢) معبد أحد كبار المغنين فى العصر الاموي والثقيل الاول ضرب من ضروب الغناء

لك أن يجزيك الله خيراً بما فعلت، فيدعو صاحبُه بدعائه ، ويرجو برجائه ، وهنالك تجد من سرور النفس وحبورها بهذا الذكر الجميل فى هذه البيئة الخاملة ما يجده الصالحون إذا ذُكروا فى الملأ الاعلى .

ليتك تبكى كلما وقع نظرك على محزون أومفؤود[1] فنبتسم سروراً ببكائك ، واغتباطا بدموعك ، لأن الدموع التى تتحدر على خديك فى مثل هذا الموقف إنما هى سطور من نور تسجل لك فى تلك الصحيفة البيضاء أنك إنسان

إن السماء تبكى بدموع الغمام ، ويخفق قلبها بلمعان البرق، وتصرخ بهدير الرعد ، وان الارض تئن بحفيف الريح وتضج بأمواج البحر ، وما بكاء السماءولا أنين الارض إلا رحمة بالانسان ، ونحن أبناء الطبيعة فلنجارها فى بكائها وأنينها

إن اليد التى تصون الدموع أفضل من اليد التى تريق الدماء ، والتى تشرح الصدور أشرف من التى تبقر البطون ،

---

(١) المفؤود المصاب فى فؤاده بألم أو غيره

فالمحسن أفضل من القائد ، وأشرف من المجاهد ، وكم بين من يحيي الميت ومن يميت الحي

إن الرحمة كلمة صغيرة ولكنّ بين لفظها ومعناها من الفرق مثل ما بين الشمس في منظرها ، والشمس في حقيقتها

إذا وَجد الحكيم بين جوانح الانسان ضالتَه من القلب الرحيم وجد المجتمع ضالته من السعادة والهناء

لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع ولا عار ولا مغبون ولا مهضوم ، ولأقفرت الجفون من المدامع ، ولاطمأنت الجنوب في المضاجع ، ولمحت الرحمة الشقاءَ من المجتمع كما يمحو لسان الصبح مدادَ الظلام

لم يخلق الله الانسان ليقتر عليه رزقه ، ولم يقذف به في هذا المجتمع ليموت فيه جوعا ، بل أرادت حكمته أن يخلقه ويخلق له فوق بساط الارض وتحت ظلال السماء ما يكفيه مؤونته ، ويسد حاجته ، ولكنْ سلبه الرحمةَ فبغى بعضه على بعض وغدر القوى بالضعيف واحتجن

دونه رزقه فتغير نظام القسمة العادلة، وتشوه وجهها الجميل، ولو كان للرحمة سبيل الى القلوب لما كان للشقاء اليها سبيل

الفرد هو المجتمع وإنما يتعدد بتعدد الصور، أتدرى متى يكون الانسان إنساناً، متى عرف هذه الحقيقة حق المعرفة وأشعرها نفسه نخفق قلبه لخفقان القلوب وسكن لسكونها، فاذا انقطع ذلك السلك الكهربائى بينه وبينها انفرد عنها واستوحش من نفسه، واذا كان الأنس مأخذ [(١)] الانسان المجتمع، فالوحشة مأخذ الوحش المنقطع

وجماع القول انه لا يمكن أن تجتمع رحمة الرحماء وشقوة الاشقياء فى مكان واحد الا اذا أمكن أن يجتمع فى بقعة واحدة الملك الرحيم، والشيطان الرجيم

ان من الناس من تكون عنده المعونة الصالحة للبر والاحسان فلا يفعل، فاذا مشى مشى متدفعاً مندلثاً [(٢)] لا يلوى على شىء مما حوله من المناظر المؤثرة المحزنة، واذا

(١) مأخذ الكلمة أصل اشتقاقها (٢) اندلث كاندفع

وقع نظره على بائس لايكون نصيبه منه إلا الاغراب في الضحك سخرية به وببذاذة ثوبه ودمامة خلقه ، وإن من الناس من إذا عاشر الناس عاشرهم ليعرف كيف يحتلب دِرَّتهم [1] ويمتص دماءهم ، ولا يعاملهم إلا كما يعامل شويهاته وبقراته ، لا يُطعمها ولا يَسقيها إلا لما يترقب من الربح في الاتجار بألبانها وأصوافها ، ولو استطاع أن يهدم بيتاً ليربح حجراً لفعل ، وإن من الناس من لا حديث له إلا الدينار وأين مستقره وكيف الطريق اليه وما السبيل إلى حبسه والوقوف في وجهه والحيطة لفراره ، يبيت ليله حزيناً كئيباً لأن خزانته ينقصها درهم كان يتخيل في يقظته أو يحلم في منامه أنه سيأتيه فلم يُقيَّض له ، وإن من الناس من يؤذى الناس لايجلب لنفسه بذلك منفعة أو يدفع عنها مضرة بل لأنه شرير يدفعه طبعه إلى مالا

(١) الدرة اللبن اذا كثر وسال

يَعرف وجهَه أو ليُضرِّىَ [١] نفسَه بالأذى مخافة أن ينساه عند الحاجة اليه ، حتى لو لم يبق فى العالم شخص غيرَه لكانت نفسُهُ مدبَّ عقاربه وغرض سهامه، وإن من الناس من إذا كَشفَ لك عن أنيابه رأيت الدم الاحمر يترقرق فيها، أوعن أظافره رأيت تحتها مخالب حادة لاتسترها إلا الصورة البشرية، أو عن قلبه رأيت حجراً صلداً من أحجار الغرانيت لايَبِضّ [٢] بقطرة من الرحمة ، ولا تَخلُص اليه نسمة من العظة

فيا أيها الإنسان احذر الحذر كله أن تكون واحداً من هؤلاء فإنهم سباع مفترسة وذئاب ضارية، بل أعظك ألا تدنوَ من واحد منهم أو تعترض طريقه فربما بدا له أن يأكلك فأكلك غير حافل بك ،ولا آسف عليك

أيها الإنسان : إرحم الأرملة التى مات عنها زوجها ولم يترك لها غير صبية صغار ، ودموع غزار ، إرحمها قبل

(١) يقال أضرى فلان كلبه بالصيد وضراه اذا أغراه به وعوده متابعته
(٢) بض الدم سال

أن ينال اليأس منها ويعبث الهم بقلبها فتؤثر الموت على الحياة

إرحم المرأة الساقطة لاتزين لها خلالها ولا تشتر منها عرضها علها تعجز عن أن تجد مساوماً يساومها فيه فتعود بهسالماً إلى كسر بيتها

إرحم الزوجة أمّ ولدك وقعيدة بيتك ومرآة نفسك وخادمة فراشك لأنها ضعيفة ولأن الله قد وكل أمرها إليك وما كان لك أن تُكذّب ثقته بك

إرحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه فإنك إلاّ تفعلْ قتلته أوأشقيته فكنت أظلم الظالمين

إرحم الجاهل لاتتحين فرصة عجزه عن الانتصاف لنفسه فتجمع عليه بين الجهل والظلم، ولا تتخذ عقله متجراً تربح فيه ليكون من الخاسرين

إرحم الحيوان لأنه يحس كما تحس ويتألم كما تتألم ويبكى بغير دموع، ويتوجع ولا يكاديُبين، إرحمه وكذب من

يقول إن الانسان طبع على ضرائب لؤم أقلها أنه يقبّل يد ضاربه ويضرب من لا يمد اليه يداً

إرحم الطير لاتحبسها فى أقفاصها ودعها تهيم فى فضائها حيث تشاء، وتقع حيث يطيب لها التغريد والتنقير ، إن الله وهبها فضاء لانهاية له فلا تغتصبها حقها فتضعها فى محبس لايسع مد جناحها ، أطلق سبيلها وأطلق سمعك وبصرك وراءها لتسمع تغريدها فوق الأشجار وفى الغابات وعلى شواطئ الأنهار وترى منظرها وهى طائرة فى جو السماء فيخيل اليك أنها أجمل من منظر الفلك الدائر والكوكب السيار .

أيها السعداء ، أحسنوا الى البائسين والفقراء ، وامسحوا دموع الأشقياء ، وارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء .

رسالة الغفران (١)

غفوت إغفاءة طويلة لا علم لى بمداها ولا بما وقع لى فيها ثم صحوت فرأيت نفسى فى صحراء مد البصر مكتظة (٢) بأنواع من الخلق لا أحصيهم عدداً، فعلمت أنى بعثت وأنه يوم القيامة فساورنى (٣) من الهم ما ساورنى حين ذكرت أن مقداره ألف سنة من سنى القيامة وقلت من لى بالصبر على موقف يهلك فيه صاحبه ظمأ وجوعاً، ويحترق تحت أشعة شمس ليس بينه وبينها إلا قيد ظفر، فتماسكت بضعة أشهر ثم لم أجد بعد ذلك إلى الصبر سبيلا فزينت لى نفسى الكاذبة أن أذهب إلى رضوان، خازن الجنان، وكنت أحمل شهادة التوبة فى يدى لأسترحمه وألتمس منه الإذن

(١) للمعرى رسالة طويلة بهذا العنوان هذه خلاصتها (٢) مكتظة مملوءة
(٣) ساورته الهموم واثبته وملكت ناصيته

بالدخول قبل انفضاض المحشر ، فما زلت أَرقيه بقصائد المدح المسوَّمة[١] باسمه كما كنت أرقى بأمثالها أمثاله من عظماء العاجلة وساداتها فما أبَه[٢] لى ولا فهم كلمة مما أقول، فانصرفت عنه إلى خازن آخر اسمه زُفَرُ فكان شأنى معه شأنى مع صاحبه الا أنه كان أرق منه وألين جانباً فأشار على بالذهاب الى النبى الذى أَتبعه وأفهمنى أن الأمر موكول اليه ، فعدت وبين جنبيّ من الحسرة والألم ما اللهُ عالم به ، فبينا أنا أتخلل الصفوف ، وأزاحم الوفوف ، اذوقع بصرى على حلقة من الناس تحيط بشيخ هرم أنعمت النظر فيه فاذا هو الشيخ أبو على الفارسى النحوى واذا بالمحتفين به جماعة من شعراء العرب كلهم يخاصمه وكلهم ينقمُ عليه ، هذا يقول له رويتَ بيتى على غير وجهه، وذاك يقول أعربته على غير ما أردتُ وذهبتُ ، فدفعنى الفضول كما دفعهم الى النزول فى ميدانهم فما فرغنا من الرفع والنصب والزيادة

---

(١) المسومة المعلمة (٢) أبه احتفل

والحذف حتى أدركتُ شؤم مافعلت ، وعلمت أن شهادة
التوبة قد سقطت منى فى ذلك المعتركَ ، فقلت قبّح الله
الشعر والإعراب ، واللغة والآداب ، انهما شؤم الآخرة
والأولى

وقفت أحيرَ من ضب فى حمارّة[1] قيظ لا أدرى
ما آخذ وما أدع حتى رميت بطرفى فإذا بأمير المؤمنين
على بن أبى طالب فى لفيف من العِترة الطاهرة النبوية
فدَلَفتُ[2] اليه وأبثثته[3] أمرى وأمر الشهادة المفقودة
فقال : لا عليكَ ، ألك شاهدٌ بالتوبة ، قلتُ نعم ، فنودى
بشهودى فشهدوا بتوبتى ، فقال تريث[4] قليلا حتى تمر
فاطمة بنت محمد فنسألها فى أمرك فهى تَمُتُّ الى
أبيها بما لا نمتّ به[5] وكانت ممن قسم لهم دُخولُ الجنة
قبل فصل القضاء الا أنها كانت تخرج كل حين للتسليم
على أبيها ثم تعود الى مستقرها ، فانا لـكذلك واذا بمنادٍ

(١) الحمارة بالتشديد شدة الحر (٢) دلف مشي مشياً متثاقلا (٣) أبثه السر كاشفه به (٤) تريث أبطأ (٥) متّ بالشيء توسل به

ينادي أن غضوا أبصاركم يا أهل الموقف حتى تَعبُرَ فاطمةُ
بنت محمد صلى الله عليه وسلم فهرعتُ اليها فرأيتها راكبة
مع اخوتها وجواريها على أفراس من نور وتقدم من وعدني
بسؤالها في أمرى فأنجز وعده ، فقالت لاخيها ابراهيمَ
دونك الرجل ، فقال تعلق بركابي فتعلقت فطارت الافراس
في الهواء تقطع الاجيال وتتخطى رءوس القرون حتى
وافينا محمدا صلى الله عليه وسلم واقفاً لشهادة القضاء فقصت
عليه فاطمة ما علمت من أمرى ، فراجع الديوانَ الاعظم
فوجد اسمي في التائبين فشفع لى فعدتُ في ركب فاطمة
فرحاً مستبشراً وما كنت اقدر أن بين يديَّ عقبة
الصراط ، فلما وافيته وجدتُني لاأستمسك عليه لرقته،
فأمرتْ فاطمة جارية من جواريها أن تعبر معى فأمسكتْ
بيدى فمشيت أترنح ذات اليمين وذات الشمال وخفت
السقوط فقلت لها احمليني زقفونه ، فقالت وما زقفونه ،
فقلت أما سمعت قول الجحجلول من أهل كفر طاب

صلّحت حالتي الى الخلف حتى

صرت أمشي الى الورى زَقَفُونه

فقالت ما سمعت بزقفونة ولا الجحجلول ولا كفر طاب ، فقلت أُلقي يديّ فوق كتفيك وأجعل بطني الى ظهرك ، فحملتني وجازت بي الصراط كالبرق الخاطف حتى صرت الى باب الجنة ، فرمت الدخول فوقف رضوان في وجهي وقال أين جَوازك [1] فبَعِلت [2] بالامر ثم رأيت في دهليز الجنة شجرة صفصاف فعالجته على أن يعطيني منها ورقة أعود بها الى الموقف لاستكتب عليها الجواز فأبى ، فقلت وقد ملك الهمُّ عليّ رشدي وصوابي أما والله لو أنك حارس على أبواب الكرماء ، أو خازن لخزائن الملوك والأمراء ، لما وصل شاعر الى درهم ولا سائل الى سُحتوت [3] ولهلك الفقراء بؤساً وجوعاً ، فسمع ابراهيم

(١) الجواز صك المسافر (٢) بعل بأمره برم به فلم يدر ما يصنع فيه (٣) السحتوت في الاصل السويق القليل الدسم ثم أطلق على كل شيء قليل

عليه السلام حَوارِى [1] فجذبنى جذبة حصّلنى بها فى الجنة وصاحبى ينظر الى شزراً ، فدخلت فرأيت مالاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر

رأيت أنهاراً من الماء العذب أصفى من أديم السماء ، وأصقل من مرآة الحسناء ، تنصب فيها جداول من الكوثر إذا جرع الشارب منها جرعة جرع ماء الحياة وأمن أن يذوق كأس المنون مرة أخرى ، ورأيت جداول تفيض بالراح فيضا قد زُينت حوافيها بأباريق من العسجد ، وكؤوس من الزبرجد ، فما نهلتُ منها نهلة حتى قلتُ لو كشف لاهل العاجلة عما فى هذه الخمرة من اللذة التى لا يشوبها كدر ، والنشوة التى لا يعقبها خُمار [2] ما باعوا قطرة منها بكل ما تشتمل عليه بابل وقُطرُبُّل [3] من البواطى [4] والدنان ، ولو نظر الا قيشر الأسدى بعين الغيب الى عسجد هذه الاباريق وزبرجد

(١) الحوار مراجعة الكلام (٢) الخمار صداع الخمر (٣) بلدان معروفان بجودة خمرهما (٤) جمع باطية وهى إناء للشراب يوضع بين الشرب للاغتراف منه

تلك الكؤوس لخجل من نفسه أن يقول

أفنى تلادى وما جمّعتُ من نشب
قرعُ القوازيز[1] أفواهَ الاباريق

وفى تلك الانهار آنية ترفرف فوق سطحها على صور الطيور كالكراكى والطواويس والبط والعندليب ينحدر من مناقيرها شراب، أرق من السراب، وتسبح فيها أسماك من الذهب والياقوت

يعُمن فيها بأوساط مجنّحة[2]
كالطير تنشر فى جو خوافيها

ورأيت أنهاراً من لبن وأنهاراً من عسل لايدرك الوهم كنهه الا إذا أدرك ما يمتص نحل الجنة من أزهارها وأنوارها

رأيت جميع تلك الانهار مكبرة ثم تمثلت فى نظرى مصغرة، فاذا هى سطور، من النور، وأحرف بيضاء،

---

(١) القوازيز جمع قازوزة وهي قدح للشراب (٢) مجنحة ذات أجنحة

فى صحيفة خضراء ، قرأتها فرأيتها « مثل الجنة التي وُعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفي ، ولهم فيها من كل الثمرات)

ظللت أمشي فما أكاد أخطو خطوة حتى أرى منظراً عجباً ينسى السابق ، ويشوق الى اللاحق ، فوددت لو طُويتْ لى الارض طياً فأتعجل النظر الى ما غاب عني من الجنة وبدائعها ، فما أخذ هذا الخاطر مكانَه من نفسى حتى رأيت بين يديّ فرساً من الجوهر المتخيَّر مسرجاً ملجماً فعلمت أنى قد سعدت وأنها الامنية التى كنت أتمناها فعلوت ظهره وغمزته غمزة خرج بها خروج الودْق[1] من السحاب ، والسيف من القراب[2] ، وعلى ما جَهَدْتُه لم يشك إليّ ماشكاه جواد عنترة العبسيّ اليه في قوله

فازورّ من وقع القنا بلَبانه وشكا إلى بعَبرة وتحمحم

(١) الودق المطر (٢) قراب السيف غمده

أو ما شكاه جواد عمر بن أبي ربيعة اليه فى قوله

تشكّى الكُمَيت الجرى لما جَهدتُه

وبيّن لو يسطيع أن يتكلما

ذكرت أنى وأنا فى الدار الفانية كنت أسمع بذكر الذاهبين الاولين من الأدباء والشعراء والرواة فآسف على أن لم أكن فى زمنهم أراهم وأحضر مجالسهم فقلت ليت شعرى مافعل الله بهم فى هذه الدار، وهل سَعِدوا أوشقوا، وهل يقيّض لى من رؤيتهم فى دار البقاء، مالم يقيّض فى دار الفناء

ثم رميت بطرفى فاذا فارس يُحضر فرسَه[1] فى الهواء إحضاراً حتى تقاربنا فتماسّت الركب واختلفت الاعناق فقال انتسب، فقلت فلان، ومن أنت يرحمك الله وقد فعل، فقال عدى بن زيد العبادى، فدهشتُ وقلت عدى

(١) أحضر الفرس ارتفع في عدوه

ابن زيد فى الجنة بعد الزيغ والضلال ، فقال أنا عيسوى وأنت محمدى وليس لصاحبك على أحد حجة الا بعد ظهوره وبلوغ دعوته ، فقلت لا نكران ولكن كيف لم يقعد بك فسقك وشرابك ، وأين استهتارك فى قولك

بكر العاذلون فى وضح الصبح

يقولون لى أما تستفيق

ودعوا بالصبوح فجراً فجاءت

قينة فى يمينها أبريق

قال غفر الله لنا ما غفر لكم ، قلت هل لك علم بجماعة الشعراء والرواة فقد تمنيت على الله أن أراهم فكنت عنوان الكتاب وفاتحة الاجابة ، فقال اصحبنى ، فطارت بنا الخيل ، فقلت له هل آمن ألا يقذف بى هذا السابح على صخرة من الزمرد أو هضبة من الياقوت فيكسر لى عضداً أو ساقاً ، فتبسم وقال أين يُذهب بك نحن فى دار الخلود والبقاء

مررنا بروضة من رياض الجنة يخترقها غدير خمرى على شاطئه جمع كثير على سرر متقابلين ، أو على الارائك متكئين ، فهوى صاحبي بفرسه فهويت هُوِيَّهُ وقلنا سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ، فرحبوا بنا وهشوا للقائنا وانتسبنا فتعارفنا ثم أخذوا فيما كانوا فيه فاذا الاصمعى ينشد مروياته وأبو عبيدة يسرد وقائع الحروب ومقاتل الفرسان واذا سيبويه والكسائي متصافيان بعد أن وقع بينهما فى مجلس البرامكة ماوقع وأحمد بن يحيى لا يضمر لمحمد بن زيد من الموجدة ما كان يضمر ، وأخذت تهب من ناحية النهر نفحة عطرية ذكرتني بقول الاعشى ميمون « مثل ريح المسك ذاكٍ ريحها » وعلى ذكر الاعشى ذكرت مصرعه وشقاءه ، وقلت فى نفسى لولا أن قريشا صدته عن الاسلام لكان اليوم بيننا فى مجلسنا هذا ، فسمعت هاتفاً من ورائى يقول أنا بينكم وفى مجلسكم ، فالتفت فاذا الاعشى ميمون، فلم أدر من أى مَدخليه [1] أعجبُ ، أمن

(١) المدخل مصدر دخل كالدخول

مدخله الى الجنة ،أم من مدخله الى نفسي، وعلمه بما هجس
فى صدرى، فعلمت أن أهل الجنة ملهَمون ، ثم سألته كيف
غفر لك فقال سحبتنى الزبانية الى سقر فرأيت فى عَرصات
القيامة رجلا يتلألأ وجهه تلألوَ القمر والناس يهتفون
به من كل جانب: الشفاعةَ يامحمد، فأخذت إخذهم ، وهتفت
هتافهم، فأمر أن أدنو منه فدنوت فسألنى ماحرمتك فقلت
أنا القائل

ألا أيُّهذا السائلى أين يممت
فإن لها فى أهل يثرب موعدا
فآليتُ لا أرثى لها من كلالة
ولا من وجىً حتى تلاقى محمدا
متى ماتناخي عند باب ابن هاشم
تُراحى وتلقىْ من فواضله ندا
نبى يرى مالا ترون وذكرى
أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا

فقال ماسمعتُها منك قبل اليوم ، قلت خدَعني عنك الناس بعد ماشددتُ راحلتي اليك وكنتُ رجلاً أُحب الشرابَ وخفتك عليه أن تفرق بيني وبينه ، فشفع لي فدخلت الجنة على ألا أذوقَ فيها الخمر فقنعت بالرُّضاب ، عن الشراب ، وبماء الثغر المنضود ، عن ماء العنقود ، ورأيت بجانبه شاباً رِيّقَ الشباب فسألت عنه فقيل لي زهيرُ بن أبي سُلمى فما كدتُ أصدق أنه القائل

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولاً لا أبالكَ يسأمِ

فقلت له بم غفر الله لك ، فقال كنت في جاهليتي أترقبُ مبعث محمد وأتمنى البقاء حتى أراه فحال بيني وبينه الموت فأوصيت به ابنيّ كعباً وبُجيراً وكنت أُومن بالحساب فما نفعني شيء ما نفعني قولي

فلا تكتُمُنَّ اللهَ مافي نفوسكم ليخفى ومهما يُكتمِ اللهُ يَعلم

يؤخرْ فيوضعْ في كتاب ويُدخر
ليوم الحساب أو يقدَّم فيُنقَمَ

وإلى جانب زهير عَبيد الأبرص فسألته عن مصير أمره فقال كُتبت لي النار فما زال الناس يهتفون بقولي

من يسألِ الناسَ يَحْرِموهُ وسائلُ الله لايَخيب

والعذاب يخفف عني شيئاً فشيئاً حتى خرجتُ ببركة هذا البيت من الجحيم ، إلى النعيم

ذهبنا في الحديث كلّ مذهب وذهب بعضنا الى ارتشاف الخمر ، من النهر ، في آنية الدر ، فانتشينا جميعاً فما أفقْنا إلا على حفيفِ رَفٍّ[1] من إوَزٍّ الجنة نزل بناثم انتفض عن كواعب أترابٍ يغنين بالمزاهر والآلات الثقيل والخفيف والهزج فما أتيْن على الالحان الثمانيةِ حتى دارت بنا الارض الفضاء وحتى مَلكنا من الطرب مايستخفّ الحلوم ، ويطير بالهموم ، وقلنا لو عَلم جَبلة

(١) الرف القطيع من الطير

ابن الايهم بما نحن فيه لقرع السنّ على أن باع دينه بسرور محدود، وأنس معدود، ودُف وعود

ذكرت جبلةَ فذكرت لذكره النار وقوله تعالى « فاطّلع فرآه فى سواء الجحيم » فتمنيت أن أَطّلع فأرى المعذّبين كما رأيت المنعمين، فألهمت الاذن فأشرت لصاحبي فقام وقمت وركبنا فرسينا فطارتا بنا حتى انتهينا الى سور الجنة فرأينا عنده من الداخل كوخاً يسكنه شيخ زرىّ الهيئة فأشرفنا عليه فقال لا تعجبوا الشأنى أنا الُحطيئة ووالله لولا أني صدقت مرة واحدة فى حياتى فى قولى

أرى لى وجهاً شوه الله خلقه

فقبح من وجه وقبح حامله

لما دخلت الجنة، ولما أدركت كوخاً ولا جُحْرا، فتركناه واطّلعنا فما رآنا أهل النار حتى ضجوا بصوت واحد« أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله» فرأينا ملوكا وأكاسرة يتضاغون [1] فى السلاسل والاغلال

(١) يقال بات الصبيان يتضاغون من الجوع أى يتضورون منه

ويقولون « ربنا أرجعنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل »
فيهتف بهم هاتف « أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر
وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير »

ورأيت بجانبي امرأة تبينتها فاذا هى الخنساء تطّلع
مثلنا فترى رجلاً كالجبل الاشم على رأسه شعلة من النار
فتمتعض وتقول ياصخر هذا تأويل قولى فيك من قبل

وأن صخراً لتأتم الهداة به كانه علم فى رأسه نار

ورأيت هناك كثيراً من أمثال امرئ القيس وعنترة
وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد ورأيت بشاراً بن برد
تفتح عيناه بكلاليب من نار وكلما اشتد به الالم رفس إبليس
برجله وقال له ما كنت لادخل النار لولا قولى فيك

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبينوا يامعشر الاشرار
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

وجزعنا من المنظر فهممنا بالرجوع واذا ابليس يهتف
بنا يا أهل الجنة بلغوا عنى أباكم آدم أنى لم أدخل النار بسببه

حتى أخذت معي أكثر ولده وأفلاذ كبده ، فلايهنأ كثيراً
بمصيري ، فقلنا قبحه الله مايزال يَنفس على آدم نعمته حتى
اليوم ، فما كان لنا همٌّ بعد رجوعنا إلا لقاء أبينا عليه السلام
فلقيناه فبلغناه الرسالة فقال وارحمتاه له ، ما كان بينه وبين
الايمان الا القليل ، فأرداه الحسد فكان من المهلكين ،
فقبلنا يده وانصرفنا الى ما أعد الله لنا من ملك كبير وجنة
وحرير ، وحور وولدان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، فحمدنا
الله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله

عبرة الدهر

بنى فلان فى روضة من رياض بساتينه الزاهرة قصراً فخماً يتلألأ فى تلك البقعة الخضراء ، تلؤلؤ الكوكب المنير فى البقعة الزرقاء ، ويطاول بشُرُفاته الشمّاء ، أفلاك السماء ، كأنه نَسر محلق فى الفضاء ، أو قُرط معلق فى أذن الجوزاء ، وكأن شُرُفاته آذان تُفضِي اليها النجوم بالأسرار ، وطاقاته أبراج تتنقل فيها الشموس والأقمار

شاده مرمراً وجلله كِلساً[1] فللطير فى ذُراه وُكور

ولم يدع ريشة لمصور ولا لِيقة[2] لرسام الا أجراها فى سقوفه وجدرانه ، وطاقاته وأركانه ، حتى ليخيّل الى السالك بين أبهائه[3] وحُجراته ، ومحاريبه وعرَصاته[4] ،

(١) الكلس الصاروج يبنى به (٢) ليقة الدواة صوفتها ويتخذها الرسام أيضا لجمع أخلاطه فيها (٣) الابهاء جمع بهو وهو البيت المقدم أمام البيوت (٤) المحراب هنا صدر البيت والعرصات جمع عرصة وهي ساحة الدار

أنه يتنقل من روضة تَزهَر بالورود الحمراء ، والانوار البيضاء ، الى بادية تسنَح فيها الذئاب الغبراء ، والنمور الرقطاء ، ومن ملعب تصيد فيه الظباءُ الأسودَ ، الى غاب تصيد فيــه الاسودُ الظباء ، وأنشأ فى كبرى ساحاته ، وأوسع باحاته ، صهريجاً من المرمر مستديراً يضم بين حاشيتيه فوّارة ينفر منها الماء صُعُدا كانه سيف مجرد ، أو سهم مسدد ، فيخيّل الى الرائى أن الارض تثأر لنفسها من السماء ، وتتقاضاها ماأراقت منها من الدماء ، تلك تقاتلها بالرجوم والشهب ، وهذه تحاربها بالسهام والقضب ، وغرس حول دائرة الصهريج دوائر من شجرات ، مؤتلفات ومختلفات ، وأغصان ، صنوان ، وغير صنوان ، اذا رنّحتها نسائم الاسحار ، رقصت فوق بساط الازهار ، وتحت ظلال الاثمار ، فغنت على رقصها الاطيار ، غناء الاغاريد لا غناء الاوتار ، وادّخر فيه لنعيمه وبُلَهنيته [1] ما شاء الله

---

(١) بلهنية العيش رخاؤه

أن يدخر من نضائد[١] ومقاعد ، ووسائد ومساند ، وفَرش وعَرش ، وكلل[٢] وحَجَل[٣] ، وتماثيل وتهاويل[٤] ، وصحاف من ذهب ، كاللهب ، وأكواب من بلّور ، كالنور ، وأقفاص للحمائم والنسور ، ومقاصيرَ للسباع والنمور ، وعربات وسيارات ، وجياد صافنات ، ووصائف وولائد ، تحيط بالمجالس والموائد ، إحاطة القلائد ، بأعناق الخرائد ، وخدم حسان ، تتنقل فى الغرف والقيعان ، تنقل الولدان ، فى غرف الجنان

فى ليلة من ليالى الشتاء حالكة الجلباب ، غدافيةِ[٥] الاهاب ، أفاق صاحب القصر من غشيته فتحرك فى سريره وفتح عينيه فلم يرَ أمامه غير خادمه « بلال » وهو خِصىّ أسود من ذوى الاسنان رباه صغيراً وكفله كبيراً وكان يجمع بين فضيلتى الذكاء والوفاء فأشار اليه إشارة الواله

(١) النضائدجمع نضيدةوهي الوسادة (٢) جمع كلة بالكسر وهى الستر الرقيق (٣) جمع حجلة بفتحات وهى ستر العروس فى جوف البيت (٤) التهاويل النقوش والصور لانها تهول من ينظر اليها (٥) الغداف الغراب الاسود وليلة غدافية شبيهة به

المتلهف أن يأتيه بجرعة ماء فجاءه بها فتساند على نفسه حتى شرب وكأن الماء قد حل عقدة لسانه فسأله في أي ساعة من ساعات الليل نحن يا بلال ، فأجابه نحن فى الهزيع الاخير يا سيدى ، فقال ألم تعـد سيدتك الى الآن ، قال لا ، فامتعض امتعاضاً شديداً وزفر زفرة كادت تخترق حجاب قلبه ثم أنشأ يتكلم كأنما يحدث نفسه ويقول : إنها تعلم أني مريض وأنى فى حاجة الى من يسهر بجانبى ويتعهد أمرى ويرفه[1] عنى بعض ما أعالجه ، وليس بين سكان القصر من هو أولى بى وأقومُ علىّ منها ، أين وفاؤها الذى كانت تزعمه وتقسم لى بكل محرِّجة من الايمان عليه ، أين حبها الذى كانت تهتف به في صباحها ومسائها وبكورها وأصائلها ، أين النعيم الذى كنت أقلبها فى أعطافه والعيش الرغد الذى كنت أرشفها كؤوسه ، أأن علمتْ أنى أصبحت بين حياة لا أرجوها وموت لا أجد السبيل اليه برِمتْ[2] بى

(١) رفه عنه نفس عنه وخفف (٢) برم به سئمه وضجر منه

واستثقلت ظلي واستبطأت أجلي واستطالت ضجعتي فهي تفر من وجهي كل ليلة الى حيث تجد لذات العيش ومواطن السرور ، آهِ من العيش ما أطوله ، وآهِ من الموت ما أبعده

وما زال يحدث نفسه بمثل هذه الأحاديث حتى هاج ساكنه واضطربت أعصابه فعاودته الحمى وغلى رأسه بنارها غليانَ القِدر بمائها فسقط على فراشه ساعةً تجرع فيها من كأس الموتِ جُرعاً مريرة بيد أنه لشقائه لم يأت على الجرعة الأخيرة منها

أفاق من غشيته مرة ثانية فلم يرَ بجانبه تلك التي تسيل نفسه حسرات عليها فسأل الخادم ألا تعلم أين ذهبت سيدتك يا بلال ، قال : خير لك ألا تنتظرها يا مولاي وألا تلومها في بعدها عنك فان لها عند بعض الناس ديْناً فهي تخرج كل ليلة لتتقاضاه ، قال ما عرفتُ قبل اليوم أن بينها وبين أحد من الناس شيئاً من ذلك ، ومتى كان الدائن يتقاضى دينه في مثل هذه الساعة من الليل ، وهل أعياها

أن تجد من يقوم لها بذلك فهي تتولاه بنفسها ، وهلا فرغت من أمر دينها بعد اختلافها إليه سنة كاملة ، قال إن بينها وبين غريمها صَكا مكتوباً أن يؤدىَ ما عليه من الدين أقساطاً، في كل ليلة قسط،على أن تتناوله بيدها ،وأن تكون مواعيدُ الوفاء أُخريات الليال ، قال ما سمعت في حياتي بأغرب من هذا الدين ولا بأعجب من هذا الصك ، ومن هو غريمها ، قال أنت ياسيدي ، فنظر اليه نظرة الحائر المشدوه[1] وقال إني أكاد أُجن لغرابة ما أسمع ،وأحسب أنك هاذٍ فيما تقول أو هازئ ، فدنا منه الخادم وقال والله ياسيدي ما هزِأت في حياتي ولا هذيت ، ألا تذكر تلك الليالي الطوال التي كنت تقضيها خارج المنزل بين شهوة تطلبها ، وكأس تشربها ، وملاعبَ تجرر فيها أذيالك ، ومراقص تهتك فيها أموالك ، تاركا زوجتك في هذه الغرفة على هذا السرير تشكو الوحشة ، وتبكي الوَحْدة ،

(١) المشدوه المدهوش

وتتقلب على أجر من الجمر شوقاً اليك ، ووجداً عليك ، فلا تعود إليها الا اذا شاب غراب الليل ، وطار نَسر الصباح ، إنك سلبتها تلك الليالىَ السالفة فأصبحتَ غريمها فيها فهى تستردها منك اليوم ليلة ليلة حتى تأتىَ عليها ، ذلك هو دينها وهذا هو غريمها ، ألا تذكر أنك كنت فى لياليك هذه ربما تحبس الزوجة عن زوجها وتملكها عليه وهو واقف موقفَك هذا فى حسرتك هذه يبكى ماتبكى ويندب ماتندب ، ذلك الزوج هو الذى يتقاضاك اليوم حقه ويأبى الا أن يأخذه عيناً بعين وَنقداً بنقد ، فهو يفجعك فى زوجتك كما كنت تفجعه فى زوجته ويُقِضُّ[1] مضجعك كما كنت تُقض مضجعَه ، وأنا أعيذك بعدلك وإنصافك أن تكون من لُواة الدين أو تكون من الظالمين

قال حسبك يابلال فقد بلغت منى ، وإن لى فى حاضرى مايَشغلنى عن ماضىّ فادعُ لى ولدي ، قال لم يعد ياسيدى

(١) أقض مضجعه جعله خشناً

من الوجه التي بعثته فيه حتى الآن ، قال لا أذكر اني بعثته في وجه مّا وأين ذهب ، قال ذهب الى الحانة التي يختلف اليها ، ولن يرجع منها حتى يرتوي ولن يرتوي حتى يعجز عن الرجوع ، إني طالما وقفت بين يديك يامولاي ضارعاً اليك أن تحول بينه وبين خلطاء السوء وعشراء الشر حتى لا يفسدوه عليك فكنت تُعرض عني إعراض من يرى أن تدليل الولد وترفيهه [1] وارخاء العنان له عنوان من عناوين العظمة ومظهر من مظاهر الأبهة والجلال ، كنت أسألك أن تعلمه العلم وأن تهديه الى طريق المدرسة ليضل عن طريق الحانة فكنت ترى أن الذي يحتاج الى العلم انما هو الذي يرتزق منه وأن ولدك عن ذلك من الاغنياء ، فلا تشك من عمل يديك ، ولا تبك من جناية نفسك عليك ، فأنت الذي أرسلته الى الحانة وأنت الذي أبقيته فيها الى مثل هذه

---

(١) رفهه جعله مرفها أي لين العيش

الساعة من الليل، وأنت الذي أبعدته عن فراشك أحوجَ ما كنت اليه

وما وصل الخادم من حديثه الي هذا الحد حتى نَصل الليلُ من خضابه واشتعل المبيضُّ في مسوده واذا صوت الناعورة يرنّ في بستان القصر رنين الثكلى فقدت واحدَها، فقال السيد هات يدك يا بلال واحملني الى جوار النافذة لأروّح عن نفسي بعض ماألمّ بها أو أودع الى جانبها نسمات الحياة ، ثم اعتمد على يَده حتى وصل الى النافذة فجلس على متكأ طويل وألقى على البستان نظرة طويلة فرأى البستانيّ وزوجه جالسين الى الناعورة وقد برقت بوارق السعادة من خلال أثوابهما البالية بريقَ الكواكب المنيرة من خلال السحب المتقطعة ، رآهما متحابين متعاطفين لا يتعاتبان ولا يتشاحّان (1) ولا يشكوان هما ولا يندبان حظاً ، رآهما قويين نشيطين يجرى دمهما في عروقهما صافياً

(1) من المشاحة وهى المخاصمة والمجادلة

متسلسلا وكأنهما يحاولان أن يخرجا من إهابهما [1] مرَحاً ونشاطاً ، رآهما راضيين بما قَسم الله لهما من خشونة الملبَس وجشوبة [2] المطعم فلا يتشهّيان ولا يتمنيان ولا ينظران الى ذلك القصر الشامخ المطل عليهما نظرات الهم والحسرة ، سمعهما يتحدثان فأصغى اليهما فاذا البستانى يقول لزوجه : والله لو وُهب لى هذا القصر برياضه وبساتينه ، وآنيته وخُرثيّه [3] ، على أن تكون لى تلك الزوجة الخائنة الغادرة لفضلت العيش فوق صخرة فى منقطَع العمران ، على البقاء فى مثل هذا المكان ، أقاسى تلك الهموم والأحزان ، فقالت لا أحسب أن سيدنا ينجو من خطر هذا المرض فقد مر به على حاله تلك عام كامل ، وهو يزداد كل يوم ضعفاً ونحولا ، قال قد علمت أن الطبيب قد نفض يده من الرجاء فيه وأضمر اليأس منه ولا عجب فى ذلك فانه مازال يسرف على نفسه ويذهب بها المذاهب كلها حتى قتلها ، قالت

(١) الاهاب الجلد (٢) جشوبة المطعم خشونته (٣) الخرثي أثاث البيت

ما أشقاه، أكانت نفسهُ عدوة اليه فجنى عليها هذا الشقاء، وذلك البلاء، قال ما كان عدواً لنفسه، ولا كانت نفسه عدوة اليه، ولكنه كان رجلا جاهلا مغروراً، غره شبابه وماله، وعزه وجاهه، فظن أنه قد أخذ على الدهر عهداً بالسلامة والبقاء، فانطلق فى سبيله لايلوى على شىء مما وراءه حتى سقط فى الحفرة التى احتفرها لنفسه، قالت اتعلم ماذا يكون حال هذا القصر من بعده، قال لا أعلم الا أنه سيكون لولده، قالت ولكنى أعلم أنه سيكون لفلان، قال إن فلاناً ليس وريث السيد بل صديقه، قالت انه ليس بصديق السيد بل صديق السيدة، فهو خاطب زوجته قبل وفاته، وزوجها بعد مماته

فما سمع السيد هذه الكلمات حتى اضطرب اضطراباً شديداً وسقط عن كرسيه وهو يقول : أشهد انى من الاشقياء : وما زال فى غشيته تلك حتى صحا صحوة الموت وفتح عينيه فرأى بين يديه هذا المنظر المحزن المؤلم

رأى ولده لاهياً بمحادثة فتاة من فتيات القصر ، ورأى زوجته تضاحك تِرْباً من أترابها وتغمزها بطرفها أن قد حان حينْه ودنا أجله ، ورأى صديقه أو ولى عهده يأمر فى القصر وينهى ويتصرف تصرف السيد المطاع ، ورأى نفسه يعالج سكرات الموت ويُعد عدته للانتقال من القصر إلى القبر ، وهنا سمع كأن هاتفاً يهتف به من السماء ويقول أيها الرجل ، لو وفيت لزوجك لوفت لك ، ولو أدبت ولدك لعناه أمرك ، ولو أحسنت اختيار صديقك ماخانك ، ولو رحمت نفسك ما خسرت حياتك ، فأغمض عينيه وهو يقول « فلتكن مشيئة الله »

وهكذا فارق هذا المسكين حياته مفجوعاً بزوجه وولده ، وصديقه ونفسه ، وبستانه وقصره

رب ركب قد أناخوا حولنا ... يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا ... وكذاك الدهر حالا بعد حال

أفسدك قومك

أيها المجرمُ الفاتكُ الذى يسلب الخزائنَ نفائسها ، والأجسام أرواحها ، لست أَحمل عليك من العتْب فوق ما يحتمله ذنبك، ولا أنظر اليك بالعين التى نظر بها اليك القاضى الذى قسا فى حكمه عليك ، لأنى أعتقد أن لك شركاء فى جريمتك، فلا بد لى من أن أنصفك، وإن كنت لاأستطيع أن أنفعك

شريكك فى الجريمة أبوك لانه لم يتعهّدك بالتربية فى صغرك، ولم يحلْ بينك وبين مخالطة المجرمين ، بل كثيراً ما كان يُبخبخُ[1] لك إذا رآك هجمت على تربك وضربته، ويصفّق لك إذا رأى أنك قد تمكنت من اختلاس درهم من جيب أخيك ،أو اختطاف لقمة من يده ، فهو الذى غرس

(١) بخبخ له قال له بخ بخ

الجريمة في نفسك وتعهدها بالسقيا حتى أينعت ونمت وأثمرت لك هذا الحبلَ الذي أنت معلق به اليوم، وهاهو ذا الآن يَذرفُ عليك العبرات، ويصعِّد الزفرات، ولو عرف أنها جريمته وأنها غرس يمينه لضحك مسروراً بغفلة الشرائع عنه وسجد لله شكراً على أن لم يكن حبلُك في عنقه وجامعتك[1] في يده

شريكك في الجريمة هذا المجتمع الانسانيُّ الفاسدُ الذي أغراك بها، ومهد لك السبيل اليها، فقد كان يسميك شجاعاً إذا قتلت، وذكياً فطناً إذا سرقت، وعالماً إذا احتلت، وعاقلا إذا خدعت، وكان يهابك هيبته للفاتحين، ويُجلك اجلاله للفاضلين، وكثيراً ما كنتَ تحب أن ترى وجهك في مرآته فتراه وجهاً أبيض ناصعاً فتتمنى أن لو دام لك هذا الجمال، ولو أنه كان يؤثر نصحك ويصدقك الحديثَ عن نفسك لمثّل لك جريمتك بصورتها الشوهاء،

(١) الجامعة الغل

وهنالك ربما وددت بجدع الانف لو طواك بطن الارض عنها ، وحالت المنية بينك وبينها .

شريكك فى الجريمة حكومتك لانها كانت تعلم أن الجريمة هى الحلقة الاخيرة من سلسلة كثيرة الحلقات وكانت تراك تمسك بها حلقة حلقة وتعلم ماسينتهى اليه أمرك فلا تضرب على يدك ، ولا تعترض سبيلك ، ولو أنها فعلت لما اجترمت ، ولا وصلت الى ما اليه وصلت

كانت حكومتك تستطيع أن تعلمك وتهذب نفسك، وأن تغلق بين يديك أبواب الحانات والمواخير،وأن تحول بينك وبين مخالطة الاشرار بابعادهم عنك وتشريدهم فى مجاهل الارض ومخارمها، وأن تعديك[1] على قتيلك قبل أن يبلغ حقدك عليه مبلغه من نفسك،وأن تحسن تأديبك فى الصغيرة ، قبل أن تصل الى الكبيرة ، ولكنها أغفلت أمرك فنامت عنك نوما طويلا حتى اذا فعلت فعلتك استيقظت على

(١) أعدى الامير فلانا على فلان إذا نصره عليه وأعانه

صوت صراخ المقتول، وشمّرت عن ساعدها لتمثّل منظراً من مناظر الشجاعة الكاذبة، فاستصرخت جندها، واستنصرت قوتها، وأعدت جذعها وجلاّدها، وكان كلُّ مافعلت أنها أعدمتك حياتك

هؤلاء شركاؤك في الجريمة، وأقسم لو كنت قاضياً لاعطيتك من العقوبة على قدر سهمك في الجريمة، ولجعلت تلك الجذوع قسمة بينك وبين شركائك، ولكنني لا أستطيع أن أنفعك، فيا أيها القتيل المظلوم رحمة الله عليك

الصدق والكذب

جاءني هذا الكتاب من أحد الفضلاء

يا صاحب النظرات :

سمعتُ بالصدق وما وعد الله به الصادقين من حسن المثُوبة وجزيل الاجر ، وسمعتُ بالكذب وما أعد الله للكاذبين من سوء العذاب ، وأليم العقاب ، وقرأت ما كتبه حكماء الامم من عهد آدم إلى اليوم وإجماعهم أن الصدق فضيلة الفضائل، والأصل الذى تتفرع عنه جميع الاخلاق الشريفة والصفات الكريمة، وأنه ما تمسك به متمسك إلا كان النجاح فى أعماله ألصقَ به من ظله ، وأعلق به من نفسه ، سمعتُ هذا وقرأت ذاك فلم يبق فى نفسى ريب فى أنّ ما أنا مرزوءٌ به فى حظي من الشقاء ، وعيشي من

الضنك، وحياتي من الهموم والأكدار، إنما جرّه عليّ شؤم الكذب، وأن ما كنت أتخيله قبل اليوم من أن هنالك مواقف يكون فيها الكذب أنفع من الصدق وأسلم عاقبة انما هو ضرب من ضروب الوهم الباطل، ونزعة من نزعات الشيطان، فعاهدت الله ونفسي ألا أكذب ما حييت، وأعددت لذلك القسم العظيم عدته من شجاعة نفس وقوة عزيمة بعد ما وجهت وجهي الى الله تعالى وسألته أن يُمدني بمعونته ونصره

وهائنذا ذاكرٌ لك مواقف الصدق التي وقفتها بعد ذلك العهد وما رأيته من آثارها ونتائجها

الموقف الأول: جلست في حانوتي فما وقف بي مساوم الا صدَقته القولَ في الثمن الذي اشتريت به السلعة والربح الذي أريده لنفسي منها والذي لا أستطيع أن أعد نفسي رابحاً إذا تجاوزتُ عن بعضه، فيأبى الا الحطيطة [1]

(١) الحطيطة ما يحط من الثمن

فأباها عليه ، فينصرف عني استثقالا للثمن واستعظاماً لقدره ، وما هو الا الربح الذي اعتدت أن آخذه منه في مثل تلك الصفقة ، الا أنني كنت أكذب عليه في أصل الثمن فيصغر في نظره الربح فلما صدقته عنه أعظمه وانصرف عني الى سواي ، ولم أزل على هذه الحال حتى أظلني الليل ولم يفتح الله على بقوت يومي ، وما هي الا أيام قلائل حتى عُرفتُ في السوق بالطمع والمغالاة فأصبحت لا يطرق باب حانوتي طارق

الموقف الثاني : جلست في مجلس يتصدره شيخ من تجار العقول الضعيفة المعروفين بمشايخ الطرق وقد حف به جماعة من عبدته وسدنة [1] هيكله فسمعته يشرح لهم معنى التوكل شرحاً غريباً يذهب فيه الى أنه القعود عن العمل ، وإلقاء حبل هذا الوجود على غاربه ، والاعراض عن كل سعي يؤدي الى أية غاية ، ويعتمد في هذيانه هذا على آيات يؤولها

(١) السادن خادم الهيكل أو خادم الكعبة والمراد به الحاجب والجمع سدنة

كما يشاء ، وأحاديث لا يستند فى صحتها على مستند سوى أنه سمعها من شيخه ، أو قرأها فى كتابه ، وأكثر ما كان يدور على لسانه حديث « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً »(١) فقلت له وقد أخذ الغيظ من نفسى مأخذه ياشيخ أردت أن تحتج لنفسك فاحتججت عليها ، أتعمد الى حديث يستدل به رواته على وجوب السعى والعمل ، فتستدل به على البطالة والكسل ، ألم تر أن الله سبحانه وتعالى ما ضمن للطير الرواح بطاناً الا بعد أن أمرها بالغدو ، وهى التى ترويها القطرة ، وتشبعها الحبة ، فكيف لا يأمر الانسان بالسعى وهو من لا تفنى مطالبه ، ولا تنتهى رغباته

أيها القوم ، إنكم تقولون بألسنتكم ماليس فى قلوبكم ، إنكم عجزتم عن العمل ، وأخلدتم الى الكسل ، وأردتم أن تقيموا لأنفسكم عذراً يدفع عنكم هاتين الوصمتين فسميتم

(١) الخماص جمع خميص وهو ضامر البطن والبطان جمع بطين وهو ممتلىء البطن

ما أنتم فيه توكلا، وما هو إلا العجز الفاضح، والإسفاف الدنىء، وهنا زفر الشيخ زفرة الغيظ ونادى فى قومه أن أخرجوا هذا الزنديق الملحد من مجلسى، فتألبوا علىَّ تألبهم على قصاع الثريد، وأوسعونى لطما وصفعاً، ثم رموا بى خارج الباب، فما بلغت منزلى حتى هلكت أو كدت، فما مررت بعد ذلك بطائفة من العامة إلا رمونى بالنظر الشزر، وعاذوا بالله من رؤيتى كما يعوذون به من الشيطان الرجيم

الموقف الثالث : لا أكتمك ياسيدى أنى كنت أبغض زَوجتى بغضاً يتصدع له القلب غير أنى كنت أصانعها وأتودد اليها وأمنحها من لسانى ما ليس له أثر فى قلبى مداورة لها وإبقاء على ما تحتويه يدى من صُبابة مال كانت لها، فرأيت أن ذلك أكذب الكذب وأقبحه، فآليت على نفسى ألا أسدل بعد اليوم من دونها حجاباً يحول بينها وبين سريرتى، فانقطع عن مسمعها ذلك السلسبيل العذب، من كلمات الحب، فاستوحشت منى، وأظلم ما بينى وبينها، فما

هي الا عشية أو ضحاها حتى وهنت تلك العقدة وانحل ذلك الوثاق ، وختمت سورة الفراق ، بآية الطلاق

الموقف الرابع : حضرت مجتمعاً يضم بين حاشيتيه جماعة من الفضوليين الذين تضيق بهم مذاهب القول فيلجأون إلى الحديث عن الناس وتتبع عثراتهم ، ويحاولون أن ينبشوا دفائن صدورهم ، ويتغلغلوا فى أطواء [1] سرائرهم ، ويغالون فى ذلك مغالاة الكيمائى فى تحليله وتركيبه ، فرأيتهم يتناولون بألسنتهم رجلا عظيما من أصحاب الآراء السياسية لا أعتقد أن بين السالكين مسلكه والآخذين إخذه من أخلص لأمته إخلاصه ، أو وقف المواقف المشهودة وقوفه ، أو لاقى فى ذلك السبيل من صدمات الدهر وضربات الايام مالاقاه ، سمعتهم يسمونه خائناً فوالله لأن تقع السماء على الأرض أحب إلىّ من أن يُتهم البرىء ، أو يجازى المحسن سوءًا على احسانه ، سمعتُ مالم أملك نفسى معه فقلت

(١) أطواء الثوب طرائقه ومكاسر طيه

ياقوم: أتطالعون من كتاب الحرية مائة صفحة ونيفاً [١] ثم لاتزالون عبيد الاوهام أسرى الخيالات سراعا الى كل داع، سعاة مع كل ساع، تنظرون بغير روية، وتحكمون بغير علم، انكم بعملكم هذا تزهدون المحسن فى إحسانه، وتلقون الرعب فى قلب كل عامل يعمل لاجلكم ،وتثبطون همة كل من يحدث نفسه بخدمتكم وخدمة قضيتكم ، أليس مما يلقى فى النفس اليأس من نجاحكم، وصلاح حالكم ،أن نراكم طعمة كل آكل ، ولعبة كل لاعب ، يستهويكم الكاذب بالكلمات التى تستهوى بها المرضعات أطفالهن ثم يدعوكم الى مناوأة الصادق فتمنحون الأول ودكم وإخلاصكم ، والثانى بغضكم وموجدتكم ، خاطبتهم بهذه الكلمات أريد بها خيراً لهم، فأرادوا شراً بى ، فما خلصت من بينهم الا وأنا ألمس رأسى بيدى لأعلم أين مكانها من عنقى

الموقف الخامس : قابلنى فى الطريق شاعر يحمل

---

(١) يريد أن تاريخ الحرية فى مصر قرن ونيف

في يده طوماراً [1] كبيراً وكنت ذاهباً الى موعد لا بد لى من الوفاء به فعرض علىّ أن يسمعنى قصيدة من طريف شعره ، وأنا أعلم الناس بطريفه وتليده ، فاستعفيته بعد أن كاشفته بعذرى فأبى ، فانتحيت به ناحية من الطريق فأنشأ يترنم بالقصيدة بيتاً بيتاً، وأنا أشعر كأنما يجرعنى السم قطرة قطرة ، حتى تمنيت أن لو ضربنى بها جملة واحدة يكون فيها انقضاء أجلى ليريحنى من هذا العذاب المتقطع، والتمثيل الفظيع ، وكلما أتى على بيت منها أقبل علىّ بوجهه ، وأطال النظر فى وجهي، وحدق فى عينى، ليعلم كيف كان وقع شعره من نفسى، فاذا رأى تقطيب وجهى ظنه تقطيب الشارب لارتشاف الكأس فيستمر فى شأنه حتى أنشد نحو خمسين بيتاً ، ثم وقف وقال هـذا هو القسم الاول من أقسام القصيدة ، فقلت وكم عدد أقسامها يرحمك الله ، قال عشرة ليس فيها أصغر من أولها ، قلت أتأذن لى أن أقول لك

(١) الطومار الصحيفة

ياسيدى إن شعرك قبيح، وأقبح منه طوله، وأقبح من هذا وذاك صوتك الخشن الأجش، وأقبح الثلاثة اعتقادك أنى من سخافة الرأى وفساد الذوق بحيث يعجبنى مثل هذا الشعر البارد عجباً يسهل علىّ فواتَ الغرض الذى ما خرجت من منزلى الا لاجله، فتلقانى بضربةٍ بجُمْع يده [1] فى صدرى، فتلقيته بمثلها، وما زالت أكفُّنا تأخذ مأخذها من خدودنا وأقفائنا حتى كانت، فرفعت عصاى وضربته بها على رأسه ضربة ما أردت بها يعلم الله الا أن أصيب مركز الشعر من مخه فأُفسده عليه، فسقط مغشياً عليه، وسقطت القصيدة من يده، فأسرعت اليها ومزقتها، وأرحت نفسى منها، وأرحت الناس من مثل مصيبتى فيها، وكان الشرطى قد وصل الينا فاحتملنا جميعاً الى المخفر ثم الى السجن حيث أكتب اليك كتابى هذا

فياصاحب النظرات أفتنى فى أمرى، وأنر ظلمة نفسى،

---

(١) جمع اليد هيئتها حين تقبضها

فقد أشكل على الامر، وأصبحت أسوأ الناس بالصدق ظناً، بعد ما رأيتُ أنى ماوقفت موقفه فى حياتى إلا خمس مرات فكانت نتيجة ذلك إفلاسي وخراب بيتي واتهامى بالخيانة مرة والزندقة أخرى ، ذلك الى ما أقاسيه اليوم فى هذا السجن من أنواع الآلام ، وصنوف الاسقام

***

أيها السجين :

كتبتَ الى مَسح الله مابك، وألهمك صواب الرأى فى حاليك تشكو من جناية الصدق عليك ماوقف بك موقف الشك فى أمره، وكاد يزلق بك الى الاعتقاد أنه رذيلة الرذائل لافضيلة الفضائل ، وما كان لك أن تجعل لليأس هذا السبيل الى نفسك، وأن يبلغ بك الجزع من نكبات العيش وضربات الايام مبلغاً يذهب برشدك ، ويطير بلبك ، فما أنت باول صادق فى الارض ولا بأول من لقى فى سبيل الصدق شراً ، وكابد ضراً

إنك لو فهمت معنى الفضيلة حق الفهم وصبرت على مرارتها حق الصبر لذقت من حلاوتها ما تقطّع دونه أعناق الرجال

ليست الفضيلة وسيلة من وسائل العيش أو كسب المال ، وانما هى حالة من حالات النفس تسمو بها الى أرقى درجات الانسانية وتبلغ بها غاية الكمال

إن الذى يطلب الفضيلة ليستكثر بها ماله ، أويرفه بها عيشه ، يحتقرها ويزدريها ، لانه لايفرق بينها وبين سلعة التاجر وآلة الصانع

ليس من صواب الرأى أن يجعل الانسان حالة عيشه ميزانا يزن به أخلاقه،فان اتسع عيشه اطمأن اليها،وان ضاق أساء الظن بها ، فكم رأينا بين الفاضلين أشقياء ، وبين الارذلين كثيراً من ذوى النعمة والثراء

لايستطيع الرجل الفاضل أن يبلغ غايته من عيشه الا اذا استطاع أن ينزل من نفوس الناس منازل الحب

والاكرام ، ولن يستطيع ذلك الا إذا عاش بين قوم يعرفون الفضيلة ويعظمون شأنها ، ولن يكونوا كذلك الا اذا كانوا فضلاء أو أشباه فضلاء ، والسواد الاعظم الذى يمسك بيده أسباب العيش ويملك ينابيعه سواد أبله ساذج يبغض الصادق لانه يصادره فى ميوله وأهوائه وينقم منه جهله وغباوته ، ويحب الكاذب لانه لايزال يزين له امره حتى يحبب اليه نفسه ، فلا بد للصادق من صدر يسع هموم العيش وقلب يحتمل بغض القلوب ليبلغ غايته من إصلاح النفوس وتهذيبها كما يبذل المجاهد حياته ودمه ليبلغ غايته من الفوز والانتصار

الصدق جنة حُفت بالمكاره ، فان كان للصادق فى جنة الصدق أرب فليحمل فى سبيلها ماحمله الانبياء والمرسلون والحكماء والقائمون باصلاح المجتمع الانسانى ودعاة المطالب الدينية والسياسية

كما ان الجود يفقر والاقدام قتال، وكما ان لكل فضيلة من الفضائل آفة من الآفات تُوعِّر طريقها وتُبعد منالها إلا على أيدى الصابرين المخلصين ، كذلك للصدق آفة من مصادمة الكاذبين وهم الاكثرون ، للصادقين وهم الاقلون

أتريد أيها الرجل أن تسمى صادقاً وأن تنال أشرف لقب يستطيع أن يناله بشر وأن يوافيك المجد طائعاً مذعناً دون أن تبذل فى سبيله شيئًا من مالك أو راحتك

إنك إن أردت ذلك أو قدرته فى نفسك تظلم الفضيلة ظلماً بيناً وتُرخصْ قيمتها وتلق بها فى مدارج الطرق وتحت مواطئ النعال

أيحزنك انصراف الأغبياء عن حانوتك أو اتهامك بالزندقة والالحاد أو المروق والخيانة وترى أن ذلك كثير فى سبيل بلوغك منزلة الصدق وإحرازك فضيلته ، وأنت تعلم أن الفاضلين قد بذلوا من قبلك أكثر مما بذلت ، فى سبيل إحراز ما أحرزت ، فما ندموا ولا حزنوا

أيها السجين الشريف

هنيئاً لك السجن الذى تكابده ، وهنيئاً لك البغض الذى تحتمله ، وهنيئاً لك العيش الذى تعالج همومه ، فوالله لأنت أرفع فى نظرى من كثير من أولئك الذين يعدهم الناس سعداء ، ويسمونهم عظماء

لا تظلم الصدق ولا تكن سيئ الظن به، وكن أحرص الناس على ولائه ومودته ، وإياك أن يخدعك عنه خادع ، واصبر قليلاً يُثمرْ لك غرسه ، ويمتد عليك ظله ، وهنالك تجد فى نفسك من اللذة والغبطة مالو بذل فيه ذوو التيجان تيجانهم ، وأرباب الكنوز كنوزهم ، لما استطاعوا اليه سبيلا

النظامون

ما لهؤلاء النظامين لا يهدءون ساعة واحدة عن تصديع رءوسنا وتمزيق أفئدتنا بهذه الصواعق التى يمطرونها علينا كل يوم من سماء الصحف حتى صرنا كلما فتحنا صحيفة ورأينا فى وسطها جدولا أبيض مستطيلا تخيلناه حية رقطاء ففزعنا وألقينا الصحيفة كما ألقاها الشاعر المتلمّس لينجو بنفسه ويسلم بحياته

من لى بذلك القلم العريض الذى يكتب به كتاب الصحف السياسية عناوين مقالاتهم فى معرض التهويل والتفخيم فأكتب به إلى هؤلاء المساكين هذه الكلمة الآتية :

أيها القوم ، إن علماء الضاد الذين عرفوا الشعر بانه الكلام الموزون المقفى لم يكونوا شعراء ولا أدباء ولا

يعرفون من الشعر أكثر من إعرابه وبنائه واشتقاقه وتصريفه، وانما جروا فى ذلك التعريف مجرى علماء العروض الذين لا مناص لهم من أن يقفوا فى تعريف الشعر عند هذا القدر مادام لايتعلق لهم غرض منه بغير أوزانه وقوافيه ، وعلله وزحافاته

لاتظنوا أن الشعر كما تظنون ، وإلا لاستطاع كل قارئ بل كل ناطق أن يكون شاعراً ، لأنه لايوجد فى الناس من يعجزه تصور النغمة الموسيقية والتوقيع عليها من أخصر طريق

أيها القوم ، ما الشعر إلا روح يودعها الله فطرة الانسان من مبدأ نشأته ولا تزال كامنة فيه كمون النار فى الزَند حتى إذا شدا [١] فاضت على أسَلات أقلامه [٢] كما تفيض الكهرباء على أسلاكها ، فمن أحسّ منكم بهذه

(١) شدا أخذ طرفاً من الادب والعلم (٢) الاسلات جمع أسلة وهي نبات رقيق الغصن

الروح فى نفسه فليعلم أنه شاعر، أولاً فليكف نفسه مؤونة التخطيط والتسطير وليصرفها الى معاناة ما يلائم طبعه ويناسب فطرته من أعمال الحياة، فوالله لَلمحراث فى يد الفلاّح والقَدُوم فى يد النجار والمِسبر فى يد الحداد أشرف وأنفع من القلم فى يد النظام .

فان غُمّ عليكم الامر وأعجزكم أن تعلموا مكان تلك الروح الشعرية من نفوسكم فاعرضوا أنفسكم على من يرشدكم إليكم، ويدلكم عليكم، حتى تكونوا على بينة من أمركم

الحرية

استيقظت فجر يوم من الايام على صوت هرة تموء [1] بجانب فراشى وتتمسح بى وتلح فى ذلك إلحاحاً غريباً فرابنى أمرها وأهمنى همها وقلت لعلها جائعة فنهضت وأحضرت لها طعاماً فعافته وانصرفت عنه فقلت لعلها ظمآنة فأرشدتها الى الماء فلم تحفل به وأنشأت تنظر إلىّ نظرات تنطق بما تشتمل عليه نفسها من الآلام والأحزان فأثر فى نفسى منظرها تأثيراً شديداً حتى تمنيت أن لو كنت سليمان، أفهم لغة الحيوان، لأعرف حاجتها، وأفرج كربتها، وكان باب الغرفة مرتجا فرأيت أنها تطيل النظر اليه وتتلصق بى كلما رأتنى أتجه نحوه فأدركت غرضها وعرفت أنها تريد أن أفتح لها الباب، فأسرعت بفتحه، فما وقع نظرها على الفضاء،

---

(١) المواء صوت الهرة

ورأت وجه السماء ، حتى استحالت حالتها من حزن وهمّ الى غبطة وسرور، وانطلقت تعدو فى سبيلها ، فعدت الى فراشى وأسلمت رأسى الى يدىّ وأنشأت أفكر فى أمر هذه الهرة وأعجب لشأنها وأقول ، ليت شعرى هل تفهم الهرة معنى الحرية فهى تحزن لفقدانها وتفرح بلقياها ، أجَلْ ، إنها تفهم معنى الحرية حق الفهم ، وما كان حزنها وبكاؤها وإمساكها عن الطعام والشراب إلا من أجلها ، وما كان تضرعها ورجاؤها وتمسّحها والحاحها إلا سعياً وراء بلوغها

وهنا ذكرت أن كثيراً من أسرى الاستبداد من بنى الإنسان لا يشعرون بما تشعر به الهرةُ المحبوسة فى الغرفة والوحشُ المعتقَل فى القفص والطير المقصوص الجناح من ألم الأسر وشقائه ، بل ربما كان بينهم من لا يفكر فى وجه الخلاص أو يتلمّس السبيل الى النجاة مما هو فيه ، بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء فى هذا السجن ويأنس به ويتلذذ بآلامه وأسقامه

من أصعب المسائل التي يحار العقل البشري في حلها أن يكون الحيوان الاعجم أوسع ميداناً في الحرية من الحيوان الناطق ، فهل كان نطقهُ شؤماً عليه وعلى سعادته ، وهل يجمُل به أن يتمنى الخرس والبله ليكون سعيداً بحريته كما كان سعيداً بها قبل أن يصبح ناطقاً مدركا

يحلق الطير في الجو ويَسبح السمك في البحر ويَهيم الوحش في الأودية والجبال ويعيش الانسان رهين المحبَسين مَحبَسِ نفسه ومَحبَسِ حكومته من المهد الى اللحد

صنع الانسان القوى للانسان الضعيف سلاسل وأغلالا وسماها تارة ناموساً وأخرى قانوناً ليظلمه باسم العدل ويسلب منه جوهرة حريته باسم الناموس والنظام

صنع له هذه الآلة المخيفة وتركه قلقاً حذرا مروَّع القلب مرتعد الفرائص يقيم من نفسه على نفسه حراساً تراقب حركات يديه وخطوات رجليه وحركات لسانه وخطرات

وهمه وخياله لينجو من عقاب المستبد ويتخلص من تعذيبه ، فويلٌ له ما أكثر جهله ، وويحٌ له ماأشد حُمقه ، وهل يوجد فى الدنيا عذاب أكبر من العذاب الذى يعالجه، أو سجن أضيق من السجن الذى هو فيه

ليست جناية المستبد على أسيره أنه سلبه حريته، بل جنايته الكبرى عليه أنه أفسد عليه وجدانه ،فأصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية، ولا يَذرف دمعة واحدة عليها

لو عرف الانسان قيمة حريته المسلوبة منه وأدرك حقيقة ما يحيط بجسمه وعقله من القيود لانتحر كما ينتحر البلبل اذا حبسه الصياد فى القفص ، وكان ذلك خيراً له من حياة لايرى فيها شعاعاً من أشعة الحرية ، ولا تخلص اليه نسمة من نسماتها

كان فى مبدأ خلقه يمشى عريانا أو يلبس لباساً واسعاً يشبه أن يكون ظلة تقيه لفحة الرمضاء ، أوهبة النكباء ، فوضعوه في القماط كما يضعون الطفل وكفنوه كما يكفنون الموتي وقالوا له هكذا نظام الأزياء

كان يأكل ويشرب كل ماتشتهيه نفسه وما يلتئم معَ
طبيعته فحالوا بينه وبين ذلك وملأُوا قلبه خوفاً من المرض
أو الموت وأبوا أن يأكل أو يشرب إلا كما يريد الطبيب
وأن يتكلم أو يكتب الا كما يريد الرئيس الديني أو الحاكم
السياسي وأن يقوم أو يقعد أو يمشي أو يقف أو يتحرك
أو يسكن إلا كما تقضي به قوانين العادات والمصطلحات

لاسبيل الى السعادة في الحياة الا اذا عاش الانسان
فيها حراً مطلقاً لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه
وفكره مسيطرٌ الا أدبَ النفس

الحرية شمس يجب أن تشرق في كل نفس ، فمن
عاش محروماً منها عاش في ظلمة حالكة يتصل أولها بظلمة
الرحم ، وآخرها بظلمة القبر

الحرية هي الحياة، ولولاها لكانت حياة الانسان أشبه
شيء بحياة اللُّعب المتحركة في أيدي الاطفال بحركة صناعية

ليست الحرية في تاريخ الانسان حادثاً جديداً ،

أو طارئاً غريباً ، وانمــا هى فطرته التى فطر عليها مذ كان وحشاً يتسلق الصخور ، ويتعلق بأغصان الاشجار

إن الإنسان الذى يمديده لطلب الحرية ليس بمتسول ولا مستجد ، وإنما هو يطالب حقاً من حقوقه التى سلبته إياها المطامع البشرية ، فان ظفر بها فلا منة لمخلوق عليه، ولا يد لأحد عنده



عبرة الهجرة

إن فى أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وسجاياه التى لاتشتمل على مثلها نفس بشرية ما يغنيه عن كل خارقة تأتيه من الارض أو السماء، أوالماء أو الهواء

ان ما كان يَبهرُ العرب من معجزات علمه وحلمه، وصبره واحتماله، وتواضعه وإيثاره، وصدقه وإخلاصه، أكثر مما كان يَبهرهم من معجزات تسبيح الحصى وانشقاق القمر، ومشي الشجر، ولين الحجر، ذلك لأنه ما كان يريبهم فى الأُولى ما كان يَريبهم فى الأُخرى من الشبه بينها وبين عرافة العرافين، وكهانة الكهنة، وسحر السحرة، فلولا صفاته النفسية وغرائزه وكمالاته مانهضت له الخوارق بكل ما يريد، ولا تركت له المعجزات فى نفوس العرب ذلك الأثرَ الذى تركته، ذلك هو معنى قوله تعالى

« ولو كُنْتَ فظًّا غَلِيظَ القلْبِ لانفضُّوا من حَوْلِكَ »

كان صلى الله عليه وسلم شجاع القلب ، فلم يَهَبْ أن يدعو الى التوحيد قوماً مشركين يعلم أنهم غلاظ جفاة شرسون متنمِّرون ، يغضبون لدينهم غضبهم لأعراضهم، ويحبون آلهتهم حبهم يحبون لابنائهم

كان على ثقة من نجاح دعوته فكان يقول لقريش أشدَّ ما كانوا هزءًا به وسخرية « يامعشر قريش والله لايأتى عليكم غير قليل حتى تعرفوا ما تنكرون ، وتحبوا ما أنتم له كارهون »

كان حليما سمح الأخلاق فلم يزعجه أن كان قومه يؤذونه ويزدرونه ويشعِّثون [1] منه ويضعون التراب على رأسه ويلقون على ظهره أمعاء الشاة وَسَلى [2] الجزور وهو فى صلاته بل كان يقول « اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون »

كان واسع الامل كبير الهمة صُلب النفس ، لبث

---

(١) يقال شعث فلان من فلان تنقصه (٢) السلى للدواب بمنزلة المشيمة للانسان

فى قومه ثلاث عشرة سنة يدعو الى الله فلا يلبى دعوته إلا الرجل بعد الرجل فلم يبلغ الملل من نفسه ، ولم يخلص اليأس الى قلبه ، فكان يقول : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الامر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته

وما زال هذا شأنه حتى علم أن مكة لن تكون مبعث الدعوة ولا مطلع تلك الشمس المشرقة فهاجر الى المدينة فانتقل الاسلام بانتقاله من السكون إلى الحركة ومن طور الخفاء الى طور الظهور

لذلك كانت الهجرة مبدأ تاريخ الإسلام لأنها أكبر مظهر من مظاهره وكانت عيداً يحتفل به المسلمون فى كل عام لأنها أجمل ذكرى للثبات على الحق والجهاد فى سبيل الله

لقد لقى صلى الله عليه وسلم فى هجرته عناءً كبيراً ومشقة عظمى فان قومه كانوا يكرهون مهاجرته لا ضنًّا به بل مخافة أن يجد فى دار هجرته من الأعوان والأنصار مالم

يجد بينهم، كأنما كانوا يشعرون بأنه طالب حق وأن طالب الحق لابد أن يجد بين المحقين أعوانا وأنصاراً ، فوضعوا عليه العيون والجواسيس فخرج من بينهم ليلة الهجرة متنكراً بعد ما ترك فى فراشه ابن عمه على بن أبى طالب رضى الله عنه عبثاً بهم وتضليلا لهم عن اللحاق به ومشى هو وصاحبه أبو بكر رضى الله عنه يتسلقان الصخور وينسربان فى الأغوار والكهوف ويلوذان بأكناف الشعاب والهضاب حتى انقطع عنهما الطلب وتم لهما ما أرادا بفضل الصبر والثبات على الحق

إن حياة النبى صلى الله عليه وسلم أعظم مثال يجب أن يحتذيه المسلمون للوصول الى التخلق بأشرف الاخلاق والتحلى بأكرم الخصال وأحسن مدرسة يجب أن يتعلموا فيها كيف يكون الصدق فى القول والاخلاص فى العمل والثبات على الرأى وسيلة الى النجاح ، وكيف يكون الجهاد في سبيل الحق سبباً فى علوه على الباطل ،

لاحاجة لنا بتاريخ حياة فلاسفة اليونان ، وحكماء الرومان ، وعلماء الإفرنج ، فلدينا فى تاريخنا حياة شريفة مملوءة بالجد والعمل ، والصبر والثبات ، والحب والرحمة ، والحكمة والسياسة ، والشرف الحقيقى ، والانسانية الكاملة ، وهى حياة نبينا صلى الله عليه وسلم و حسبنا بها وكفى

الانصاف

إذا كان لك صديق تحبه وتواليه ثم هجمتَ منه على مالم يحلُ فى نظرك ، ولم يتفق مع ماعلمت من حاله ، وما اطّرَد عندك من أعماله ، أوكان لك عدو تذم طباعه ، وتَنقم منه شؤونَه ، ثم برقت لك من جانب أخلاقه بارقة خير ، فتحدثت بما قام في نفسك من مؤاخذة صديقك على الخصلة التي ذممتها ، وحَمْدِ عدوك على الخلة التى حمدتها ، عدّك الناس متلوناً أو مخادعاً أو ذا وجهين ، تمدح اليوم من تذم بالأمس ، وتذم فى ساعة من تمدح فى أخرى ، وقالوا إنك تظهر مالا تضمر ، وتخفى غير الذى تبدى ، ولو أنصفوك لأُعجِبوا بك وبصدقك ، ولأكبروا سلامة قلبك من هوى النفس وضلالها ، ولسمّوا مابدا لهم منك اعتدالا لانفاقاً ، وإنصافاً لاخداعاً ، لأنك لم تَغْلُ فى حب صديقك غلوّ من يعميه الهوى عن رؤية عيوبه ، ولم تتمسك

من صداقته بالسبب الضعيف ،فُمنيت بتعهد أخلاقه ، وتفقد خلاله ، لإصلاح ما فسد من الأولى ، واعوجّ من الأُخرى

ان صديقك الذى يَبسم لك فى حالي رضاك وغضبك، وحلمك وجهلك ، وصوابك وسقطك، ليس ممن يغتبط بمودته ، أو يوثق بصداقته ، لانه لايصلح أن يكون مرآتك التى تتراءى فيها فتكشف لك عن نفسك، وتَصدُقك عن زينك وشينك ، وحلوك ومرك ، وهو إما جاهل متهور فى ميوله وأهوائه ، فلا يرى غير ماتريد أن ترى نفسهُ ، لا مالا يجب أن تراه ، وإما منافق مخادع قد علم أن هواك فى الصمت عن عيوبك ، وتجرير الذيول عليها، فجاراك فيما تريد ، ليبلغ منك مايريد

فها أنت ذا ترى أن الناس يعكسون القضايا ، ويقلبون الحقائق ،فيسمون الصادق كاذباً، والكاذب صادقاً ، ولكن الناس لا يعلمون

المدنية الغربية

سأودّع فى هـذه النظرة الخيال والشعر وداع من يعلم ان الامر أعظم شأناً وأجل خطراً من أن يعبث فيه العابث بأمثال هذه الطرائف التى هى بالهزل أشبه منها بالجد، والتى إنما يلهو بها الـكاتب فى مواطن فراغه ولعبه، لافى مواطن جده وعمله

إن فى أيدينا معشر الـكتاب من نفوس هذه الأُمة وديعة يجب علينا تعهدها والاحتفاظ بها والحدب عليها حتى نؤديها الى أخلافنا من بعدنا كما أداها الينا أسلافنا سالمة غير مأروضة [1] ولا متأكلة، فان فعلنا فذاك، أولا، فرحمة الله على الصدق والوفاء، وسلام على الـكتاب الأُمناء

---

(١) الخشب المأروض الذى أكلته الارضة

الأمة المصرية أمة مسلمة شرقية فيجب أن يبقى لها دينها وشرقيتها ما جرى نيلها فى أرضها ، وذهبت أهرامها فى سمائها ، حتى تبدّل الارض غير الارض والسموات

إن خطوة واحدة يخطوها المصرى الى الغرب تدنى اليه أجله وتدنيه من مهوى سحيق يقبر فيه قبراً لا حياة له من بعده الى يوم يبعثون .

لا يستطيع المصرى وهو ذلك الضعيف المستسلم أن يكون من المدنية الغربية ان داناها الا كالغربال من دقيق الخبز، يمسك خُشارَه ، ويفلت لُبابَه ، أو الراووق [1] من الخمر، يحتفظ بعقاوه ، ويستهين برحيقه، فخير له أن يتجنبها جهده، وأن يفر منها فِرار السليم من الأجرب

يريد المصرى أن يقلد الغربى فى نشاطه وخفته ، فلا يَنشَط الا فى غدواته وروحاته ، وقعدته وقومته ، فاذا جد الجد وأراد نفسَه على أن يعمل عملا من الأعمال المحتاجة

---

(١) الراووق المصفاة

الى قليل من الصبر والجلد دب الملل الى نفسه دبيب الصهباء في الأعضاء ، والكرى بين أهداب الجفون

يريد أن يقلده فى رفاهيته ونعمته فلا يفهم منهما الا أن الأولى التأنث فى الحركات ، والثانية الاختلاف الى مواطن الفسق ومخابئ الفجور

يريد أن يقلده فى الوطنية فلا يأخذ منها الا نعيقها ونعيبها، وضجيجها وصفيرها ، فاذا قيل له هذه المقدمات فأين النتائج، أسلم رجليه الى الرياح الأربع واستن فى فراره استنان المهر الأرن [1] فاذا سمع صفير الصافر مات رجلا ، واذا رأى غير شئ ظنه رجلا

يريد أن يقلده فى السياحة ، فلا يزال يترقب فصل الصيف ترقبَ الأرض الميتة فصل الربيع ، حتى اذا حان حينه طار الى مُدن أوربا طيران حمام الزاجل لا يبصر شيئاً مما حوله ، ولا يلوى على شئ مما وراءه ، حتى يقع على مجامع

(١) الارن النشيط

اللهو ومكامن الفجور ، وملاعب القمار ، وهناك يبذل من عقله وماله ما يعود من بعده فقير الرأس والجيب ، لا يملك من الأول ما يقوده الى طريق السفينة التى تحمله فى أوبته ، ولا من الثانى أكثر من الجعالة التى يجتعلها منه صاحب الجريدة ليكتب له بين حوادث صحيفته ، حادثة عودته ، موشاة بجمل الإجلال والاحترام ، مطرزة بوشائع الاكرام والاعظام

يريد أن يقلده فى العلم فلا يعرف منه الا كلمات يرددها بين شدقيه ترديداً لا يلجأ فيه الى ركن من العلم وثيق ، ولا يعتصم به من جهل شائن

يريد أن يقلده فى الاحسان والبر فيترك جيرانه وجاراته يطوون حنايا الضلوع على أمعاء تلتهب فيها نار الجوع التهابا حتى اذا سمع دعوة الى اكتتاب فى فاجعة نزلت فى القطب الشمالى أو كارثة ألمت بسد يأجوج ومأجوج سجل اسمه فى فاتحة الكتاب ، ورصد هبته فى مستهل جريدة الحساب

يريد أن يقلده في تعليم المرأة وتربيتها فيقنعه من علمها مقالة تكتبها في جريدة ،أو خطبة تخطبها في محفل ، ومن تربيتها التفنن في الازياء ، والمقدرة على استهواء النفوس ، واستلاب الألباب

هذا شأنه في الفضائل الغربية يأخذها صورة مشوهة وقضية معكوسة ، لا يعرف لها مغزى ، ولا ينتحي بها مقصداً ، ولا يذهب فيها الى مذهب ، فيكون مثله كمثل جهلة المتدينين الذين يقلدون السلف الصالح في تطهير الثياب ، وقلوبهم ملأى بالأقذار والأكدار ، ويجارونهم في أداء صور العبادات ، وان كانوا لا ينتهون عن فحشاء ولا عن منكر ، أو كمثل الذين يتشبهون بعمرَ في ترقيع الثياب ، وان كانوا أحرص على الدنيا من صيارفة اليهود .

أما شأنه في رذائلها فانه أقدر الناس على أخذها كما هي فينتحر كما ينتحر الغربي ويلحد كما يلحد ويُستهتَر في الفسوق

استهتاره ، ويترسم فى الفجور آثاره

ان فى المصريين عيوبا جمة فى أخلاقهم وطباعهم ، ومذاهبهم وعاداتهم ، فان كان لابد لنا من الدعوة إلى إصلاحها ، فلندع الى ذلك باسم المدنية الشرقية ، لا باسم المدنية الغربية

إن دعوناهم الى الحضارة فلنضرب لهم مثلا بحضارة بغداد وقرطبة وثيبة وفينيقيا لا بباريس ورومة وسويسرة ونيويورك ، وإن دعوناهم إلى مكرُمة ، فلنتل عليهم آيات الكتب المنزلة وأقوال أنبياء الشرق وحكمائه لا آيات رُسُّو وباكون ونيوتن وسبنسر ، وان دعوناهم الى حرب ، ففى تاريخ خالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص وموسى بن نصير وصلاح الدين ، ما يغنينا عن تاريخ نابليون وولنجتون وواشنطون ونلسن وبلوخر ، وفى وقائع القادسية وعمُّورِيّه وأفريقية والحروب الصليبية ، ما يغنينا عن وقائع واترلو وترافلغار وأوسترليتز والسبعين

إن عاراً على التاريخ المصرى أن يعرف المسلم الشرقى فى مصر من تاريخ بنوبارت مالا يعرف من تاريخ عمرو بن العاص ، ويحفظ من تاريخ الجمهورية الفرنسية ، مالا يحفظ من تاريخ الرسالة المحمدية ، ومن مبادئ ديكارت وأبحاث درون مالا يحفظ من حكم الغزالى وأبحاث ابن رشد ، ويروى من الشعر لشكسبير وهوجو مالا يروى للمتنبى والمعرى

لامانع من أن يعرّب لنا المعرّبون المفيد النافع من مؤلفات علماء الغرب والجيد الممتع من أدب كتابهم وشعرائهم على أن ننظر فيه نظر الباحث المنتقد لا الضعيف المستسلم ، فلا نأخذ كل قضية علمية قضية مسلمة ، ولا نطرب لكل معنى أدبى طرباً متهورا ، ولا مانع من أن ينقل الينا الناقلون شيئاً من عادات الغربيين ومصطلحاتهم فى مدنيتهم على أن ننظر اليه نظر من يريد التبسط فى العلم والتوسع فى التجربة والاختبار ، لا على أن

نتقلدها و ننتحلها و نتخذها قاعدتنا فى استحسان مانستحسن من شؤوننا ، واستهجان ما نستهجن من عاداتنا

وبعد فليعلم كتاب هذه الأمة وقادتها أنه ليس فى عادات الغربيين وأخلاقهم الشخصية الخاصة بهم ما نحسدهم عليه كثيراً ، فلا يخدعوا أمتهم عن نفسها ، ولا يفسدوا عليها دينها وشرقيتها ، ولا يزينوا لها تلك المدنية تزييناً يرزؤها فى استقلالها النفسى ، بعدما رزأتها السياسة فى استقلالها الشخصى

يوم الحساب

ساهرتُ الكوكبَ ليلة أمس حتى ملنى ومللته وضاق كل منا بصاحبه ذرعاً ، وقد وقف الهم بينى وبين الكرى أجذبه فيدفعه ، وأُدنيه فيبعده ، حتى أسلس قياده ، وسكن جماحه

لم تخالط جفنىَّ سِنة الكرى حتى خيل إلىّ أنى قد انتقلت من العالم الأول إلى العالم الثانى ورأيت كأنى بعثت بعد الموت وكأن أبناء آدم مجتمعون فى صَعيد واحد يحاسَبون على أعمالهم فألهمت أنه موقف الحشر وأنه يوم الحساب

أنشأت أمشى مِشية الحائر الذاهل لا أعرف لى مذهباً ولا مضطرَباً، ولا أجد من يأخذ بيدي، ويدلني على

نفسى، فى هذا الموقف الذى يَنشد فيه كل ذى نفس نفسه فلا يجد إليها سبيلا ، فطفقت أتصفح وجوه الواقفين ، وأقلب النظر فى الغادين والرائحين ، علنى أجد صديقاً أستأنس به فى وحدتى ، وأستعين بمرافقته على وحشتى ، فلا أرى إلا خلقاً غريباً ، ومنظراً عجيباً ، ووجوهاً مارأيت لها فى حياتى شبيهاً ولا ضريباً ، ولولا أنى أعلم أن الحساب خاص بالإنسان ، لظننت أن الله يحاسب فى هذا الموقف جميع أنواع الحيوان

هنالك وقد بلغ اليأس والهم مبلغهما من نفسى رأيت على البعد وجها يبتسم لى ويدنو منى رويداً رويداً فأرقلت نحوه حتى بلغته فاذا صديقى « فلان » واذا وجهه يتلألأ تلألؤ الكوكب فى علياء السماء ، فسألته مافعل الله به ، فقال حاسبنى حساباً يسيراً ثم غفرلى ، وها أنذا ذاهب إلى ما أعد الله لعباده الصالحين فى جنته من النعيم المقيم ، فعجبت لشأنه وقلت فى نفسى لقد هان أمر الحساب على

كل عاص بعد ما هان على هذا الذى كنت أعرفه فى أُولاه لا يتقي مأثماً ، ولا يهاب منكراً ، ولا يخرج من حان إلا إلى حان ، ولا يودع مجمعاً من مجامع الفسق إلا على موعد من اللقاء ، فنظر إلىّ نظرة العاتب اللائم وابتسم ابتسامة علمت منها أن الرجل قد ألمّ بما أضمرته فى نفسى فذكرتُ أن قد كشف الغطاء فى هذه الدار ، وأن قد رفع الحجاب بين الناس فلا سرّ ولا جهر ، ولا بطن ولا ظهر ، ولا فرق بين حركات اللسان ، وخطرات الجنان ، نظر إلىّ تلك النظرة وقال لا تعجب لامر فى هذه الدار فكل مافيها عجيب ، واعلم أن الله حاسبنى على كل ما كنت أجترح من الآثام فى الدار الأولى ، إلا أنه وجد لى فى جريدة حسناتى حسنةً ذهبت بجميع السيئات ، ذلك أنه كان لى جار من ذوى النعمة والثراء والصلاح والخير والمروءة والبر نكبه دهره نكبة ذهبت بماله فأهمنى أمره وأزعجنى أن أراه فى مستقبل أيامه بائساً معدما، يريق ماء وجهه على أعتاب

الذين كان يسدى اليهم نعمته ، وعلمت أنى إن عرضت عليه شيئا من مالى أخجلته وصغرت نفسه فى عينيه فاحتلت على أن أدخل فى بيته خادما كانت فى بيتى وجعلت لها جعلا على أن تدس فى كيس دراهمه كل ليلة خمسة دنانير من حيث لا يشعر بمأتاها ، ولا يقف على سرها ، وما زال هذا شأنى وشأنه لا يعلم من أين يأتيه رزقه، ولا يشعر أحد من الناس باستحالة حاله ، وذهاب ماله ، حتى فرق الموت بينى وبينه، فما نفعنى عمل من أعمالى مانفعنى هذا العمل ، وما كان الإحسان وحده سبب سعادتى، بل كان سببها أنه أصاب الموضع، وخلص من شائبة الرياء ، فهنأته بنعمة الله عليه وشكوت اليه وحشتى من الوحدة وخوفى من المحاسبة ، فقال أما الوحشة فلن أفارقك حتى يأتى دورك ، وأما الخوف فلا حيلة لى ولا لأحد من الناس فى نقض ما أبرم الله فى شأنك ، فقلت أنت من السعداء فهل تستطيع أن تشفع لى أو تطلب لى شفاعة من ولى من الأولياء ، أو نبى

من الانبياء ، قال لا تطلب المحال ، ولا تصدق كل ما يقال ، فقد كنا مخدوعين فى الدار الاولى بتلك الآمال الكاذبة التى كان يبيعها لنا تجار الدين بثمن غال ولا يتقون الله فى غشنا وخداعنا ، وما الشفاعة إلا مظهر من مظاهر الاكرام والتبجيل يختص به الله بعض عباده المقربين ، فلا يشفع عنده أحد إلا باذنه ، ولا يأذن بالشفاعة لأحد الا اذا كان بين أعمال المشفوع له أو فى أعماق سريرته ما يقتضى إيثاره بالمغفرة على غيره من العصاة والمذنبين ، والله سبحانه وتعالى أجل من العبث وأرفع من المحاباه

وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى رأينا كوكبة من ملائكة العذاب تحيط برجل يساق الى النار ورأينا فى يد كل واحد منهم مقرعة من الحديد يقرع بها رأسه وهو يصرخ ويقول « أهلكتنى يا أبا حنيفة » فسألت صاحبى ما ذنب الرجل ، فقال إنه كان فى حياته يتخذ فى أعماله مايسمونه « الحيل الشرعية » فكان يهب ماله لأحد أولاده

على نية استرداده قبل أن يحول عليه الحول ليتخلص من فريضة الزكاة ، ويطلق زوجته ثلاثاً ثم يأتى بمحلل يحللها له فيعود الى معاشرتها ، وكان يرابى باسم الرهن فاذا جاءه من يريد أن يقترض منه مالا أبى أن يقرضه إلا اذا وضع فى يده رهناً فاذا وضع يده على ضَيعته ألزمه أن يستأجرها منه بمال كثير يراعى فيه النسبة التى يراعيها المرابون بين الربح وأصل المال ، وكان اذا حلف لا يدخل بيتاً دخله من نافذته ، أولا يأكل رغيفاً أكله إلا لقمة منه ، فذنبه أنه كان يعمد إلى الاحكام الشرعية فينتزع منها حكمها وأسرارها ثم يرفعها إلى الله قشوراً جوفاء ليخدعه بها ويغشه فيها كما يفعل مع الاطفال والبُله مستنداً على تقليد أبى حنيفة أو غيره من كبار الأئمة ، وأبو حنيفة أرفع قدراً وأهدى بصيرة من أن يتخذ الله هزواً وسخرية وأن يكون ممن يهدمون الدين باسم الدين

وما انقطع عنا صوت هذا الشقى حتى رأينا شقياً آخر ذا لحية طويلة كثة قد أحاط به ملَكان وشدا عنقه بسُبحة طويلة ذات حبات كبيرة وقد أخذ كل منهما بطرف منها وهو يهمهم بكلمات مبهمة فيَقَرعه أحدهما على رأسه ويقول له « أمكرٌ وأنت فى الحديد » فدنوت منه وأنعمت النظر فى وجهه فعرفته فتراجعت ذعراً وخوفاً وصحت أيكون هذا من أشقياء الآخرة وقد كان بالامس من أقطاب الأولى ، فقال لى صاحبى إن هذا الذى كنت تحسبه فى أولاه من الأقطاب كان أكبر تاجر من تجار الدين ، وما هذه اللحية والسُّبحة والهمهمة والدمدمة إلا حبائل كان ينصبها لاصطياد عقول الناس وأموالهم ولكن الناس لا يعلمون

وما زال المنصرفون من موقف القضاء يمرون بنا هذا إلى جنته وذاك الى ناره وأنا أسأل عن شأن كل منهم واحداً فواحداً فأرى سعيداً من كنت أحسبه شقياً ،

وشقياً من كنت أحسبه سعيداً ، فعلمت أن الله سبحانه وتعالى يحاسب الناس على قلوبهم ، لا على جوارحهم ، ويسألهم عن نياتهم ، لا عن أفعالهم ، وأن لا سعادة إلا الصدق ، ولا شقاء إلا الكذب ، وعلمت أن الله لا يغفر من السيئات إلا ما كان هفوة من الهفوات ، يُلم بها صاحبها إلماماً ثم يندم عليها ، ورأيت أن أكبر ما يعاقب الله عليه جنايةُ المرء على أخيه بسفك دمه أو هتك عرضه أو سلب ماله ، وأن أضعف الوسائل الى الله ذلك الركوع والسجود ، والقيام والقعود ، فلو أن امرأ قضى حياته بين ليل قائم ، ونهار صائم ، ثم ظلم طفلا صغيراً في لقمة يختطفها من يده ، لاستحالت حسناته الى سيئات ، وما أغنى عنه نُسكه من الله شيئاً

وبينما أنا أحدث نفسي بهذا الحديث وأقلب النظر في وجوه تلك المواعظ والعبر إذ قال لي صاحبي أتعرف هذين ، وأشار الى رجلين واقفين ناحيةً يتناجيان ، أحدهما

شيخ جليل أبيض اللحية ، وثانيهما كهل نحيف قد اختلط مبيضه بمسوده ، فما هي إلا النظرة الأولى حتى عرفت الرجلين العظيمين ، رجل الإسلام (محمد عبده) ورجل المرأة (قاسم أمين) فقلت لصاحبي هل لك في أن ندنو منهما ونسترق نجواهما من حيث لا يشعران ، ففعلنا فسمعنا الأول يقول للثاني ، ليتك ياقاسم أخذت برأيي وأحللت نصحي لك محلا من نفسك ، فقد كنت أنهاك أن تفاجئ المرأة المصرية برأيك في الحجاب قبل أن تأخذ له عدته من الادب والدين ، فجنى كتابك عليها ما جناه من هتك حرمتها وفسادها وتبذلها وإراقة تلك البقية الصالحة التي كانت في وجهها من ماء الحياء ، فقال له صاحبه إني أشرت عليها أن تتعلم قبل أن تسفر وأن لا ترفع برقعها قبل أن تنسج لها برقعاً من الادب والحياء ، قال له ولكن فاتك ما كنت تنبأت لك به من أنها جاهلة لا تفهم هذه التفاصيل ، وضعيفة لا تعبأ بهذا الاستثناء ، فكنت كمن أعطى الجاهل سيفاً

ليقتل به غيره فقتل نفسه ، فقال له أتأذن لى يامولاى أن أقول لك إنك قد وقعت فى مثل ماوقعت فيه من الخطأ ، وأنك نصحتنى بما لم تنتصح به ، أنا أردت أن أنصح المرأة فأفسدتها كما تقول ، وأنت أردت أن تحيي الاسلام فقتلته ، إنك فاجأت جهلة المسلمين بما لا يفهمون من الآراء الدينية الصحيحة والمقاصد العالية الشريفة فأرادوا غير ما أردت ، وفهموا غير مافهمت ، فأصبحوا ملحدين ، بعد أن كانوا مخرفين ، وأنت تعلم أن ديناً خرافياً خير من لا دين ، أوّلت لهم بعض آيات الكتاب فاتخذوا التأويل قاعدة حتى أولوا الملك والشيطان ، والجنة والنار ، وبينت لهم حكم العبادات وأسرارها ، وسفهت لهم رأيهم فى الأخذ بقشورها دون لبابها ، فتركوها جملة واحدة ، وقلت لهم إن الولى إله باطل ، والله إله حق ، فأنكروا الألوهية حقها وباطلها ، فتهلل وجه الشيخ وقال له مازلت ياقاسم فى أخراك ، مثلك فى دنياك ، لاتضطرب فى حجة ، ولاتنام عن ثأر ، ياقاسم لاتحمل هماً ، ولاتخش

شراً ، وثق أن الله سيحاسبنا على نياتنا وسرائرنا ، ويعفو عن هفواتنا وسقطاتنا ، إنّا ما أردنا الا الخير لأمتنا ، وما أوردنا لها إلا ماتحتمله عقولها ، فان كذبت فراستنا أو أخطأ تقديرنا فذلك لأن المستقبل بيد الله

وما وصلا من حديثهما الى هذا الحد حتى تركا مكانهما ، وذهبا لشأنهما ، فقلت لصاحبي هل لك أن تريني الميزان والصراط والجنة والنار فانى ما زلت فى شوق الى رؤية تلك الاشياء ورؤية مواقعها مذ رأيتها فى « خريطة الآخرة » التي رسمها الشعرانى فى بعض كتبه ، قال أما الميزان فتقدير الاعمال والموازنة بين الحسنات والسيئات ، وأما الصراط فهو سبيل الانسان الى سعادته أوشقائه ، وأما الجنة والنار فلا علم لى حتى الساعة بهما

وبينما أنا كذلك إذ سمعت صوتاً صارخاً ماقرع سمعي

في حياتي مثله يناديني باسمي ، فعلمت أن قد جاء دوري ، فأدركني من الهول والرعب ما أيقظني من نومي ، فاستيقظت فلم أرَ حساباً ولا عقاباً ، ولا موقفاً ولا محشراً ، فعلمت أنها خيالات وأوهام ، أو أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين



الشعرة البيضاء

مررت صباح اليوم أمام المرآة فلمحت فى رأسى شعرة بيضاء ، تلمع فى تلك اللمة السوداء ، لمعان شرارة البرق فى الليلة الظلماء

رأيت الشعرة البيضاء فى مَفرِق [1] فارتعت لمرآها كأنما خُيل الى أنها سيف جرده القضاء على رأسى ، أو علم أبيض يحمله رسول جاء من عالم الغيب ينذرنى باقتراب الاجل ، أو يأس قاتل عرض دون الأمل ، أو جذوة نار علقت بأهداب حياتي علوقها بالحطب الجزل ، ولا بدلها مهما ترفقت فى مشيتها واتأدت فى مسيرها من أن تبلغ مداها ، أو خيط من خيوط الكفن الذى تنسجه يد الدهر وتُعده

(١) المفرق موضع افتراق الشعر

لباساً لجثتى عند ما تجردها من لباسها يد الغاسل

أيتها الشعرة البيضاء ! ما رأيت بياضاً أشبه بالسواد من بياضك ، ولا نوراً أقرب إلى الظلمة من نورك ، لقد أبغضت من أجلك كل بياض حتى بياض القمر ، وكلّ نور حتى نور البصر ، وأحببتُ فيك كل سواد حتى سواد الغربان ، وكل ظلام حتى ظلام الوجدان

أيتها الشعرة البيضاء ! ليت شعرى من أى نافذةٍ خلصتِ إلى رأسى ، وفى أى مسلك من مسالك الدهر مشيت الى فَودى

كيف طاب لك المقام فى هذه الارض الموحشة التى لاتجدين فيها أنيساً يسامرك ، ولا جليساً يساهرك ، وكيف لم يُرعْ قلبُك لمنظر هذا الليل الفاحم ، ولم يَعْشَ بصرُكِ فى هذا الظلام القائم

أيتها الشعرة البيضاء ! لقد عييتُ بأمرك ، وبَعِلتُ[1]

---

(١) بعل بالشىء برم به واستثقله

بحملك ، وأصبحت لا أعرف وجه الحيلة في البعد عنك ، والفرار من وجهك

لا ينفعنى معك أن أنزعك من مكانك، لانك لا تلبثين أن تعودى اليه ، ولا ينقذنى منك أن أخضبك بالسواد، لانك لا تلبثين أن تنصلى[1] ولأنى لا أحب أن أجمع على نفسى بين مصيبتين ، مصيبة الشيب، ومصيبة الكذب

أيتها الشعرة البيضاء ! يخيل الى وأنا أنظر اليك انك من ذوات الحيلة والدهاء ، والكيد والخبث ، وأنك تهمسين فى آذان أخواتك السود اللواتى بجانبك تحاولين إغراءهن بالتشبه بك ، والتردى بردائك ، وكأنى بك وقد أشعلت فى هذه البيئة الهادئة المطمئنة حربا شعواء ، وفتنة عمياء ، يختلط فيها الرامح بالنابل[2] والدارع بالحاسر ، [3] ويهلك فيها القاعد والقائم ، والمظلوم والظالم

---

(١) نصل الشعر خرج من الخضاب (٢) الرامح حامل الرمح والنابل ذو النبل (٣) الدارع لابس الدرع والحاسر خلافه

ان كان هذا مصيرك فسيكون شأنك شأن ذلك السائح الأبيض الذى ينزل بأمة الزنج مستكشفاً ، فيصبح مستعمراً ، ويدخل أرضها سلماً ، ويفارقها حرباً ، فأسأل الله لرأسى العافية منك ، ولأمة الزنج السلامة من صاحبك، فكلا كما مشؤوم الطالعة فى مقامه وارتحاله ، وكوكب النحس فى وقوفه وتسياره

أيتها الشعرة البيضاء : ماأنت ، وماشأنك، وماوفودك الىّ ، وما مكانك منى ، وما مقامك عندى ، إن كنت ضيفاً، فأين استئذان الضيف وتلطفه ، وتجمله وتودده ، وان كنت نذيراً، فأنا أعلم من الموت وشأنه مالا أحتاج معه الى نذير ، فلم يبق إلا أن تكونى أوقح الخلائق وجهاً ، وأصلبها خداً، وأنك قد نزلت من السماجة والفضول منزلةً لا أرى لك فيها شبيهاً إلا تلك الحية التى تلج كل جحر من أجحار الهوام والحشرات تعده جحرها ، وتحسبه بيتها

أيبلغ بك الشأن وأنت التى يضربون الامثال بدقتها

وخفائها، ويبعثون الملاقط والمقاريض وراءها فلا يكادون يعرفون السبيل إلى مدارجها ومكامنها،أن تملئي من الرعب قلباً لايروعه السيف المجرد ، ولا السهم المسدد

أيتها الشعرة البيضاء ! هل لك أن تتجاوزى عما أسأت به إليك فى إطالة عتبك ، واستثقال ظلك ، فلقد رجعت الى نفسى فعلمت أنك أكرم الخلائق عندى ، وأعظمها شأنا فى عينى

هنيئاً لك رأسى مصيفاً ومرتبعاً ، وهنيئاً لك فودى مراداً ومسرحاً ، فأنت رسول الموت الذى مازلت أطلبه مذ عرفته ، فلا أجد له سبيلا ، ولا أعرف له رسولا

ما الذى يحمله لك فى صدره من الحقد والموجدة رجل لم ينعم بشبابه ، فيحزن على ذهابه ، ولم يذق حلاوة الحياة ، فيجزع لمرارة الممات ، ولم يستنشق نسمات السعادة غصناً رطباً ، فيأسى عليها عوداً يابساً

ما الذى ينقمه من شؤونك رجل يعلم أنك وحى

الأمـل الذى يبشره بقرب النجاة من حياة ليس فيها من السعادة والهناء إلا لحظات قليـلة يكدرها مايحيط بها من الهموم والأحزان، كما تكدر أنفاسُ الحزن الحارة صفحة المرآة

أليس كل ماأعُده عليك من الذنوب أنك طليعة الموت، والموتُ هو الذى يخلصنى من منظر هذا العالم المملوء بالشرور والآثام، الحافل بالآلام والاسـقام، الذى لا أُغمض عينى فيـه إلا لأفتحها على صديق يغدر بصديقه، وأخ يخون أخاه، وعشير يحدد أنيابه ليمضغ عشـيره، وغنى يضن على الفقير بفُتات مائدته، وفقير يقترح على الدهر حتى بلغـة الموت فلا يظفر بأمنيته، وملِك لا يفرق بين رعيته وماشيته، ومملوك لا يميز بين مُلك الملِك وربوبيتـه، وقلوب تضطرم حقداً على غير طائل، ونفوس تتفانى قتلا على لون حائل، وظل زائل، وغرض باطل، وعقول تتهالك وجداً على نار تحرقها، وأنياب تمزقها، وعيون حائرة، فى رؤوس طائرة، تنظر ولا ترى شيئاً مما حولها، وتلمع ولا تكاد تبصر ماأمامها،

إن كان هذا هو ذنبك عندى فاستكثرى من ذنوبك فانى لك من الغافرين

أيتها الشعرة البيضاء! مرحباً بك اليوم ، ومرحباً باخواتك غداً ، ومرحباً بهذا القضاء المختبئ وراءك، أو الكامن فى أطوائك ، ومرحباً بتلك الغرفة التى أخلو فيها بربى ، وآنس بنفسى ، من حيث لا أسمع حتى دوى المدافع، ولا أرى حتى غبار الوقائع

أهلا بوافدة للشيب واحدة

وإن تراءت بشكل غير مودود

الصياد

حدث أحد الاصدقاء قال : بينا أنا فى منزلى صبيحة يوم إذ دخل على رجل صياد يحمل فى شبكة فوق عاتقه سمكة كبيرة فعرضها علىّ فلم أساومه فيها بل نقدته الثمن الذى أراده، فأخذه شاكراً متهللا وقال : هذه هى المرة الاولى التى أخذت فيها الثمن الذي اقترحته ، أحسن الله اليك كما أحسنت الىّ ، وجعلك سعيداً فى نفسك ، كما جعلك سعيدا في مالك، فسررت بهذه الدعوة كثيرا وطمعت فى أن تتفتح لها أبواب السماء المغلقة دونى، وعجبت أن يهتدى شيخ عامى الى معرفة حقيقة لا يعرفها الا القليل من الخاصة ، وهى أن للسعادة النفسية شأناً غير شأن السعادة المالية ، فقلت له ياشيخ وهل توجد سعادة غير سعادة المال ، فابتسم ابتسامة هادئة مؤثرة وقال :

لو كانت السعادة سعادة المال لكنت أنا أشقى الناس، لأنني أفقر الناس ، قلت وهل تعد نفسك سعيداً ، قال نعم ، لأني قانع برزقي، مغتبط بعيشي ، لا أحزن على فائت من العيش، ولا تذهب نفسي حسرة وراء مطمع من المطامع، فمن أي باب يخلُص الشقاء الى قلبي ، قلت أيها الرجل أين يُذهب بك ، ما أرى الا أنك شيخ قد اختُلس عقله ، كيف تعد نفسك سعيداً وأنت حاف غير منتعل، وعارٍ الا قليلا من الاسمال البالية، والاطمار السحيقة ، قال ان كانت السعادة لذة النفس وراحتها ، وكان الشقاء ألمها وعناءها ، فانا سعيد لاني لا أجد في رثاثة ملبسي، ولا في خشونة عيشي ،ما يولد لي ألماً ، أو يسببُ لي هماً ، وان كانت السعادة عندكم أمراً وراء ذلك ، فأنا لا أفهمها الا كذلك ، قلت ألا يَحزنك النظر الى الاغنياء في أثاثهم ورياشهم ، وقصورهم ومراكبهم ، وخدمهم وخولهم ، ومطعمهم ومشربهم، ألا يَحزنك هذا الفرق العظيم بين حالتك وحالتهم ، قال إنما

يُصغر جميع هذه المناظر فى عينى ويهونها عندى أنى لا أجد أصحابها قد نالوا من السعادة بوجدانها ، أكثر مما نلته بفقدانها

هذه المطاعم التى تذكرها إن كان الغرض منها الامتلاء فانا لا أذكر أنى بت ليلة فى حياتى جائعاً ، وان كان الغرض منها قضاء شهوة النفس فأنا لا آكل إلا إذا جعت ،فأجد لكل مايدخل جوفى لذةً لا أحسب أن فى شهوات الطعام ما يفضلها ، أما القصور فان لدى كوخاً صغيرا لا أشعرُ أنه يضيق بى وبزوجتى وولدى فأقرعَ السن على أن لم يكن قصرا كبيرا ، وان كان لابد من إمتاع النظر بالمناظر الجميلة فحسبى أن أحمل شبكتى على عاتقى كل مطلع فجر وأذهب بها الى شاطئ النهر فأرى منظر السماء والماء ، والاشعة البيضاء ، والمروج الخضراء ، فما هى إلا لفتة الجيد أن يَطّلع من ناحية الشرق قرص الشمس كأنه مِجنٌّ من

ذهب ، أو قطعة من لهب ، فلا يبعد عن خط الأفق ميلا أو ميلين حتى ينثر فوق سطح النهر حليه المتكسر ، أو دره المتحدّر ، فاذا تجلّى هذا المنظر أمام عينيّ يتخلله سكون الطبيعة وهدوؤها ملك عليّ شعوري ووجداني فاستغرقت فيه استغراق النائم فى الاحلام اللذيذة حتى لا أحب أن أعود الى نفسى الى يوم النشور ، ولا أزال هكذا هائما فى أحلامى حتى أشعر بجذبة قوية فى يدى فأنتبه فاذا السمك فى الشبكة يضطرب ، وما اضطرابه إلا لأنه فارق الفضاء الذى كان يهيم فيه مطلق السراح وبات فى المحبس الذى لا يجد فيه مراحاً ولا مضطرَباً ، فلا أجد له شبيها فى حالتيه إلا الفقراء والأغنياء ، يمشى الفقير كما يشتهى ويتنقل حيث يريد ، كأنما هو الطائر الذى لا يقع الا حيث يطيب له التغريد والتنقير ، ولولا أن تتخطاه العيون وتنبو عنه النواظر ماطار فى كل فضاء ، ولا تنقل حيث يشاء ، أما الغنىّ فلا يتحرك ولا يسكن الا وعليه من الاحداق نطاق ، ومن

الارصاد أغلال وأطواق ، ولا يخرج من منزله الا اذا وقف أمام المرآة ساعةً يؤلف فيها من حقيقته وخياله ناظرا ومنظورا ، ثم يطيل التفكر هل يقع المنظور من الناظر موقعاً حسنا ، حتى اذا استوثق لنفسه بذلك خرج الى الناس يمشي بينهم مشية يحرص فيها على الصورة الذى استقر رأيه عليها ، فلا يطلق لجسمه الحرية فى الحركة والالتفات حتى لا يخرج بذلك عن حكمها ، ولا لفكره الحرية فى النظر والاعتبار بمشاهد الكون وآياته مخافة ان يَغفل عن إشارات السلام ، ومظاهر الاكرام

فاذا أخذتُ من السمك كفاف يومى عدت به وبعته فى الأسواق أو على أبواب المنازل ، فاذا أدبر النهار عدت الى منزلى فيعتنقنى ولدى وتبشّ فى وجهى زوجتى ، فاذا قضيت بالسعى حق عيالى وبالصلاة حق ربى نمت فى فراشى نومة هادئة مطمئنة لا أحتاج معها الى ديباج وحرير ، أو مهد وثير ، فهل أستطيع أن أعد نفسي شقياً وأنا أروح

الناس بالا ، وان كنت أقلهم مالا

لافرق بيني وبين الغني الا أن الناس لا ينهضون إجلالا لي إذا رأوني ، ولا يمدون أعناقهم نحوى اذا مررت بهم ، وأهون به من فرقٍ لاقيمة له عندي ، ولا أثر له في نفسي ، وما يعنيني من أمرهم إن قاموا أو قعدوا ، أو طاروا في الهواء ، أو غاصوا في أعماق الماء ، مادمت لاعلاقة بيني وبينهم ، وما دمت لا أنظر إليهم إلا بالعين التي ينظر بها الانسان إلى الصور المتحركة

لاعلاقة بيني وبين أحد في هذا العالم إلا تلك العلاقة التي بيني وبين ربي ، فأنا أعبده حق عبادته، وأخلص في توحيده فلا أعتقد ربوبية أحد سواه ، ولا أكتمك ياسيدي أنني لا أستطيع الجمع بين توحيد الله والاعتراف بالعظمة لاحد من الناس ، ولقد أخذ هذا اليقينُ مكانه من قلبي حتّي لو طلع عليّ الملك المتوج في مواكبه وكواكبه ، وراياته وأعلامه ، لماخفق له قلبي خفقة الرهبة والخشية ، ولا شغل

من نفسى مكاناً أكثر مما يشغله ملك التمثيل

ولقد كان هذا اليقين أكبر سبب فى عزائى وراحة نفسى من الهموم والأحزان ، فما نزلت بى ضائقة ولا هبت علىّ عاصفة من عواصف هذا الكون إلا انتزعنى من بين مخالبها وهوّنها علىّ حتى لا أكاد أشعر بوقعها ، وكيف أتألم لمصابٍ أنا أعلم حق العلم أنه مقدور لا مفر لى منه ، وأنى مأجور عليه على قدر احتمالى إياه وسكونى اليه

آمنتُ بالقضاء والقدر خيره وشرّه ، وباليوم الآخر ثوابه وعقابه ، فصغرت الدنيا فى عينى ، وصغر شأنها عندى ، حتى ما أفرح بخيرها ، ولا أحزن لشرها ، ولا أعوّل على شأن من شؤونها حتى شأن الحياة فيها ، وأقسم ما خرجت مرة إلى ضفة النهر حاملا شبكتى فوق عاتقى إلا وقع الشك فى نفسى هل أعود إلى منزلى حاملا أم محمولا

ما العالم إلا بحر زاخرٌ ، وما الناس إلا أسماكه السائجة فيه ، وما ريب المنون إلا صياد يحمل شبكته كل

يوم ويلقيها فى ذلك البحر فتمسك ما تمسك ، وتترك ما تترك ، وما ينجو من شبكته اليوم لاينجو منها غداً ، فكيف أغتبط بمالا أملك ، أو أعتمد على غير معتمد ، إذن أنا أضل الناس عقلا ، وأضعفهم إيماناً

قال المحدث فأكبرت الرجل فى نفسى كلّ الاكبار ، وأعجبت بصفاء ذهنه وذكاء قلبه وحسدته على قناعته واقتناعه بسعادة نفسه ، وقلت له ياشيخ إن الناس جميعاً يبكون على السعادة ويفتشون عنها فلا يجدونها ، فاستقر رأيهم على أن الشقاء لازم من لوازم الحياة لاينفك عنها ، فكيف تعد العالم سعيداً وما هو إلا فى شقاء ، قال لا ياسيدى ان الانسان سعيد بفطرته ، وانما هو الذى يجلب بنفسه الشقاء إلى نفسه ، يشتد طمعه فى المال فيتعذّر عليه مطمعه ، فيطول بكاؤه وعناؤه ، ويعتقد أن بلوغ الامال فى هذه الحياة حقٌ من حقوقه ، فاذا أخطأ سهمه ، والتوى عليه غرضه ، أنَّ وشكى شكاة المظلوم من الظالم ، ويبالغ فى حسن

ظنه بالأيام، فاذا غدرت به فى محبوب لديه من مال أو ولد، فاجأه من ذلك مالم يكن يقدّر وقوعه، فناله من الهم والالم مالم يكن لينااله لو خبر الدهر ، وقتل الأيام علماً وتجربة، وعرف أن جميع مافى يد الانسان عارية مستردة ، ووديعة موقوتة ، وأن هذا الاحراز الذى يزعمه الناس لانفسهم خُدعة من خُدع النفوس الضعيفة ، ووهم من أوهامها

إذاً كثر ما يصيب الناسَ من شِقوة انما يأتى من طريق الاخلاق الباطنة ، لامن طريق الوقائع الظاهرة ، فالحاسد يتألم كلما وقع نظره على محسود ، والحقود يتألم كلما تذكر أنه عاجز عن الإنتقام من عدوه ، والطماع يتألم كلما خاب أمله فى مطمع ، والشارب يتألم كلما أفاق من سكره ، والعاهر يتألم كلما ناجته بالاثم سريرته ، والظالم يتألم كلما سمع ابتهال المظلوم بالدعاء عليه، أو حاقت به عاقبةُ ظلمه ، وكذلك شأن الكاذب والنمام والمغتاب وكل من تشتمل نفسه على رذيلة من الرذائل

من أراد أن يطلب السعادة فليطلبها بين جوانب النفس الفاضلة ، وإلا فهو أشقى العالمين، وإن أحرز ذخائر الأرض وخزائن السماء

قال الصديق : فما وصل الصياد من حديثه إلى هـذا الحد حتى نهض قائماً وتناول عصاه وقال استودعك الله ياسيدى وأدعو لك الدعوة التى أحببتها لنفسك وأحببتها لك ، وهى أن يجعلك الله سعيداً فى نفسك ، كما جعلك سعيداً فى مالك ، والسلام عليك ورحمة الله

الانتحار

فى كل موسم من مواسم الامتحان المدرسى نسمع بكثير من حوادث الانتحار بين المتخلفين من التلاميذ والراسبين ، ولو رُبى التلميذ تربية دينية لما هان عليه أن يخسرَ سعادته الاخرويةَ خسراناً مبيناً أسفاً على أن لم ينل كلّ حظه من السعادة الدنيوية ، ولو رُبى تربيةً أدبية لما احتقر حياته الثمينة وازدراها ولوَى وجهه عنها لانها لم تقدّم اليه فى لُفافة الشهادة المدرسية ، ولو أن أستاذه ملأ قلبه بنور الايمان ولقّنه فيما يلقنه من قواعد الدين وأحكامه أن جنايةَ المرء على نفسه أكبرُ إثماً عند الله وأعظم جرما من جنايته على غيره لما خاطر بدينه فى آخر ساعة من ساعات حياته ، وهى الساعة التى يُنيب فيها العاصى الى ربه، ويستغفر فيها المذنب من ذنبه ، ولو أنه لقنه فيما يُلقنه من دروس

الأخلاق والآداب أن العلم صفة من صفات الكمال لاسلعة من سلع التجارة يجب أن ينظر اليه طالبه من حيث ذاته، لا من حيث كونه وسيلةً من وسائل العيش، لماجرى على تلك القاعدة الفاسدة « الشهادة بلا علم خير من العلم بلا شهادة » ولو أنه رباه على الاستقلال الذاتى وعلمهُ أن الشرف فى هذه الحياة على قدرمايبذُلُ الانسان من الجهد فى خدمة الأمة أو المجتمع سواء أكان فى قصر الملك أم فى دار الوزارة، وفى حانوت التجارة، أم فى معمل الصناعة، لما أكبرَ مناصب الحكومة هذا الاكبارَ، ولا احتفل بها احتفالَ من لا يرى للحياة معنى بدونها، ولوانه نَفَث فى رُوعه روحَ الشجاعة النفسية وعوّده الصبر والجلد فى مواقف الشدة والبلاء لما جزِعَ هذا الجزعَ الفاضح، ولاجُنَّ هذا الجنون الذى خَيلَ اليه أن عذاب النزع أهوَنُ من عذاب الهم

لايجنى الطالب على نفسه، وانما يجنى عليه والده وأستاذه والمجتمع الذى يعيش فيه

أما الوالد فانه يقول له وهو ذاهب به الى المدرسة ستكون غداً يا بنى مديرا كهذا المدير ، ووزيراً كهذا الوزير ، وكلما أراد أن يحضه على الاجتهاد فى طلب العلم ويخوّفه عاقبة فشله فى الامتحان صورَ له المستقبلَ المجرد من الوظيفة أقبح تصوير وأشنعه ، وربما أشار عليه بالانتحار من طرف خفى فيقول له اذا لم تنجح فى الامتحان فموتك أفضل من حياتك ، وأما الأستاذ فانه يضرب له من نفسه مثلا على وجوب احترام المنصب وإجلاله وإنزاله المنزلةَ الأولى بين أعمال المجتمع الانسانى اذ يراه بعينه يتجرعُ مرارةَ الذل ويعاني من كبرياء رؤسائه وقسوةِ المسيطرين عليه عناء شديداً ، ويحتمل من ذلك مالا يحتمله الرجل الشريف حرصاً على منصبه وإرعاءً عليه ، فكأنما يُلقي عليه درساً عملياً موضوعه « إن من يخاطر بمنصبه يخاطر بحياته لأن المنصب كل شئ في هذه الحياة » أما المجتمع فانه يحترم الموظف الصغير ، أكثر مما يحترم العالم الكبير ، ويطير الى

تهنئته باقبال المنصب عليه وتعزيته يوم إدباره عنه ، كأن الكوكب لا يدور الا فى دائرة المناصب نحوساً وسعوداً، فاذا رأى الناشئ ذلك أكبر الوظيفة أيما اكبار، ولج به الحرص عليها ، والتلاصق بها ، وكان سروره وحزنه على قدر قربها منه، أو بعدها عنه ، فاذا وُفق اليها لطم بأنفه قبة السماء ، وداس بنعله هام الجوزاء ، وان يئس منها قتل نفسه وهو يتمثل بقول ذلك الشاعر الأحمق : فاما الثريا وإما الثرى

أيها الناشئ : لقد جهل أبوك ، وغشك أستاذك ، وخدعك هذا المجتمع الفاسد، فكن أحسن حالا منهم، واعلم أن شرف العلم أكبر من شرفِ المنصب ، وأن المنصب ما كان شريفاً الا لأنه حسنة من حسنات العلم ، وأثر من آثاره ، فان فاتك حظك منه فلا تحفِل به ، فهو أحقر من أن تشتد فى أثره ، أو تبذل حياتك وجدا عليه ، ولا تحسد أرباب المناصب علي مناصبهم ، فانما هم يخدعونك بزخرف

من القول ، وظاهر من النعمة ، وبَهرج من الابتسام ، ووراء ذلك لو علمت قلبٌ يقطر دماً ، وفؤاد يضطرم لوعة وأُسى

خذ لنفسك حظها من العلم والادب ، ولا تحفِل بعد ذلك بشيء ، فقد ربحت كل شيء

الجمال

الجمال هو التناسبُ بين أجزاء الهيئات المركبةِ، سواء أكان ذلك فى الماديات أم فى المعقولات ، وفى الحقائق أم فى الخيالات

ما كان الوجهُ الجميل جميلاً الا للتناسب بين أجزائه ، وما كان الصوت الجميل جميلا الا للتناسب بين نغماتِه ، ولولا التناسب بين حباتِ العقد ما افتتنت به الحسناء ، ولولا التناسقُ فى أزهار الروض ما هام به الشعراء

ليس للتناسب قاعدة مطردة يستطيعُ الكاتب أن يبينها ، فالتناسب فى المرئيات ، غيره فى المسموعات ، وفى الرسوم ، غيره فى الخطوط ، وفى الشؤون العلمية ، غيره فى القصائد الشعرية ، على أنه لاحاجة الى بيانه ما دامت

الأذواق السليمة تدرك بفطرتها ما يلائمها فترتاح اليه، ومالا يلائمها فتنفر منه

إن كثيراً من الناس يستحسنون الأنف الصغير فى الوجه الكبير ، والرأسَ الكبيرَ فى الجسم الصغير ، ولا يفرقون بين البرَص فى الجسم الاسود ، والخال فى الخد الابيض ، ويَطربون لنقيق الضفادع كما يطربون لخرير المياه ، ويفضلون أصوات النواعير على أنغام العيدان ، ويُعجَبون بشعر ابن الفارض وابن معتوق والبرعى أكثر مما يعجبون بشعر أبى الطيب وأبى تمام والبحترى ، ويضحكون لما يبكى ، ويبكون مما يضحك ، ويرضون بما يغضب ، ويغضبون مما يرضى

أولئك هم أصحاب الأذواق المريضة ، وأولئك هم الذين تصدر عنهم أفعالهم وأقوالهم مشوّهة غيرَ متناسبة ولا متلائمة ، لأنهم لم يدركوا سر الجمال فيَصدرَ عنهم ، ولم تألفه نفوسهم فيصبح غريزة من غرائزهم

إن رأيتَ شاعراً يبتدئ قصائد التهنئة بالبكاء على الاطلال ، ويودِع القصائد الرثائية ، النكات الهزلية ، ويتغزل بممدوحهِ ، كما يتغزل بمعشوقه ، أو متكلماً يقتضب الاحاديث اقتضاباً ، ويهزل في موضع الجد ، ويجدّ في موضع الهزل ، أو صحفياً يضع العنوان الضخمَ للخبر التافه ، ويكتب مقدمةً في السماء لموضوع في الارض ، أو حاكما يضع الندى في موضع السيف ، والسيفَ في موضع الندى ، أو ماشياً يتلوّى في طريقه من رصيف الى رصيف ، كأنما يرسم خطاً متعرّجا ، أو لابساً في الشتاءِ غلالةَ الصيف ، وفي الصيف فروة الشتاء ، فاعلم أن ذوقه مريض ، وأنه في حاجة الى معالجة ذوقه ، كحاجة المجنون الى علاج عقله ، والمريضِ الى علاج جسمه

كما أنه ليس كل مجنون يرجى شفاؤه ، ولا كل مريض يرجى إبلاله ، كذلك ليس كل من فسد ذوقه يرجى صلاحه ، فان رأيت من تؤمل في صلاحه خيراً وتجد في نفسه

استعداداً لتقويم ذوقه فملاجه أن تحفه بأنواع الجمال وتدأب على تنبيهه الى متناسباته ومؤتلفاته ، وان استطعت أن تعلمه فناً من الفنون الجميلة كالشعر والتصوير والموسيقى فافعل ، فانها المقومات للاذواق ، والغارسات فى النفوس ملكات الجمال

الكذب

كذب اللسان من فضول كذب القلب ، فلا تأمن الكاذب على وُدّ ، ولا تثق منه بعهد ، واهرب من وجهه الهرب كله ، وأخوف ما أخاف عليك من خلطائك وسجرائك الرجلُ الكاذب

عرف الحكماء الكذب بأنه مخالفة الكلام للواقع ، ولعلهم جاروا فى هذا التعريف الحقيقة العرفية ولو شاؤا لأضافوا الى كذب الأقوال كذب الأفعال

لافرق بين كذب الأقوال وكذب الأفعال فى تضليل العقول والعبث بالأهواء وخذلان الحق واستعلاء الباطل عليه ، ولافرق بين أن يكذب الرجل فيقول إنى ثقة أمين لا أخون ولا أغدر فأقرضنى مالا أؤده اليك ثم

لا يؤديه بعد ذلك، وبين أن يأتيك بسبحة يهمهم بها فتنطق سبحته بما سكت عنه لسانه من دعوى الأمانة والوفاء، فيخدعك فى الثانية كما خدعك فى الأولى، لا بل يستطيع كاذب الأفعال أن يخدعك ألف مرة قبل أن يخدعك كاذب الأقوال مرة واحدة، لأنه لا يكتفى بقول الزور بلسانه حتى يقيم على قضيته بينة كاذبة من جميع حركاته وسكناته

ليس الكذب شيئاً يستهان به، فهو أس الشرور ورذيلة الرذائل، فكأنه أصل والرذائل فروع له، بل هو الرذائل نفسها، وانما يأتى في أشكال مختلفة، ويتمثل فى صور متنوعة

المنافق كاذب لأن لسانه ينطق بغير ما فى قلبه، والمتكبر كاذب لأنه يدعى لنفسه منزلة غير منزلته، والفاسق كاذب لأنه كذب فى دعوى الايمان ونقض ما عاهد الله عليه، والنمام كاذب لأنه لم يتق الله فى فتنته، فيتحرى الصدق فى نميمته، والمتملق كاذب لأن ظاهره ينفعك، وباطنه يلذعك

لقد هان على الناس أمر الـكذب حتى انك لتجد الرجل الصادق فتَعرض على الناس أمره وتُطرفهم بحديثه كانك تعرض عجائب المخلوقات ، وتتحدث بخوارق العادات

فويل للصادق من حياة نـكدة لايجد فيهاحقيقة مستقيمة ، وويل له من صديق يخون العهد ، ورفيق يكذب الود ، ومستشار غير أمين ، وجاهل يفشى السر ، وعالم يحرف الـكلم عن مواضعه ، وشيخ يدعى الولاية كذباً ، وتاخر يغش فى سلعته ، ويحنث فى أيمانه ، وصحفى يتجر بعقول الأحرار ، كما يتجر النخاس بالعبيدوالاماء ، ويكذب على نفسه وعلى الله وعلي الناس فى كل صباح ومساء

غرفة الاحزان

كان لى صديق أحبه لفضله وأدبه أكثر مما أحبه صلاحه ودينه ، فكان يروقنى منظره ويؤنسنى محضره ، ولا أبالى بعد ذلك بشىء من نسكه وعبادته ، أو فسقه واستهتاره ، لأننى ما فكرت قط أن أتلقى عنه علوم الشريعة أو دروس الأخلاق

قضيت فى صحبته عهداً طويلا ما أنكر من أمره ولا ينكر من أمرى شيئاً حتى سافرت من القاهرة سفراً طويلا فتراسلنا حيناً ثم انقطعت عنى كتبه فرابنى من أمره مارابنى ، ثم رجعت فجعلت أكبر همى أن أراه فطلبته فى جمع المواطن التى كنت ألقاه فيها فلم أجده ، فذهبت الى منزله فحدثنى جيرانه أنه هجره من عهد بعيد وأنهم

لايعرفون أين مصيره ، فوقفت بين اليأس والرجاء برهة من الزمان ، يغالب أولهما ثانيهما حتى غلبه ، فأيقنت أن قد فقدت الرجل ، وأنى لن أجد بعد اليوم اليه سبيلا

هنالك ذَرَفتُ من الوجد دموعاً لا يذرفها الا من قل نصيبه من الأصدقاء ، وأقفر ربعه من الأوفياء ، وأصبح غرضاً من أغراض الأيام ، لا تخطئه سهامها ، ولا تُغِبُّه آلامها (١)

بينا أنا عائد الى منزلى فى ليلة من ليالى السرار (٢) إذ دفعنى الجهل بالطريق فى هذا الظلام المدلهم الى زُقاق موحش مهجور يخيل للناظر اليه فى مثل تلك الساعة التى مررت فيها أنه مسكن الجان ، أو مأوى الغيلان ، فشعَرت كأنى أخوض بحراً أسود يزخَر بين جبلين شامخين ، وكأن أمواجه تقبل بى وتدبر ، وترتفع وتنخفض ، فما توسطت

(١) أغبه الالم جاءه حينا بعد حين (٢) ليالى السرار الليالى الاخيرة من الشهر

لجته حتى سمعت فى منزل من تلك المنازل المهجورة أنة تتردد
فى جوف الليل ثم تلتها أختها ثم أخواتها فأثر فى نفسى مسمعها
تأثيراً شديداً وقلت يا للعجب ، كم يكتم هذا الليل فى صدره
من أسرار البائسين ، وخفايا المحزونين ، وكنت قد عاهدت
الله قبل اليوم ألا أرى محزوناً حتى أقف أمامه وقفة المساعد
إن استطعت ، أو الباكى إن عجزت ، فتلمّست الطريق الى
ذلك المنزل حتى بلغته فطرقت الباب طرقاً خفيفاً فلم يفتح
فطرقته أخرى طرقاً شديداً ففتحت لى فتاة صغيرة لم تكد
تسلخ العاشرة من عمرها فتأملتها على ضوء المصباح الضئيل
الذى كان فى يدها فاذا هى فى ثيابها الممزقة ، كالبدر وراء الغيوم
المتقطعة ، وقلت لها هل عندكم مريض ، فزفرت زفرة كاد
ينقطع لها نياط قلبها ، وقالت أدرك أبى أيها الرجل فهو
يعالج سكرات الموت ، ثم مشت أمامى فتبعتها حتى وصلت
الى غرفة ذات باب قصير مسنم فدخلتها فخيل الى أنى قد
انتقلت من عالم الأحياء الى عالم الأموات ، وأن الغرفة

قبر، والمريض ميت، فدنوت منه حتى صرت بجانبه، فاذا قفص من العظم يتردد فيه النفس تردد الهواء فى البرج الخشبيّ، فوضعت يدي على جبينه ففتح عينيه وأطال النظر فى وجهى ثم فتح شفتيه قليلا قليلا وقال بصوت خافت «أحمد الله فقد وجدت صديقى» فشعرت كأن قلبي يتمشى فى صدرى جزعاً وهلعاً وعلمت أني قد عثرت بضالتي التي كنت أنشدها، وكنت أتمنى الا أعثر بها وهى فى طريق الفناء، وعلى باب القضاء، والا يجدد لى مرآها حزناً كان فى قلبي كميناً، وبين أضالعى دفيناً، فسألته مابالهُ، وما هذه الحال التى صار اليها، وكأنّ أنسه بى أمدّ مصباح حياته الضئيل بقليل من النور فأشار الى أنه يحب النهوض فمدت يدى اليه فاعتمد عليها حتى استوى جالساً وأنشأ يقص على القصة الآتية

منذ عشر سنين كنت أسكن أنا ووالدتى بيتاً يسكن بجانبه جار لنا من أرباب الثراء والنعمة، وكان قصره يضم

بين جناحيه فتاة ماضمت القصورُ أجنحتها على مثلها حسناً وبهاء، ورونقاً وجمالا، فألم بنفسى من الوجد بها مالم أستطع معه صبراً، فما زلت بها أعالجها فتمتنع، وأستنزلها فتتعذر، وأتأتّى الى قلبها بكل الوسائل فلا أصل اليه، حتى عثرت بمنفذ الوعد بالزواج فانحدرت منه اليها، فسكن جماحها، وأسلس قيادها، فسلبتها قلبها وشرفها فى يوم واحد، وماهى إلا أيام قلائل حتى عرفت أن جنيناً يضطرب فى أحشائها، فأُسقط فى يدى، وطفقت أرتئى بين أن أفىَ لها بوعدها، أو أقطع حبل ودها، فآثرت أخراهما على أولاهما، وهجرت ذلك المنزل الى المنزل الذى كنتَ تزورنى فيه، ولم أعد أعلم بعد ذلك من أمرها شيئاً

مرت على تلك الحادثة أعوام طوال وفى ذات يوم جاءنى منها مع البريد هذا الكتاب ومد يده تحت وسادته وأخرج كتاباً بالياً مصفراً فقرأتُ فيه مايأتى :

لو كان بى أن أكتب اليك لاجدد عهداً دارساً، أو وداً قديماً، ما كتبت سطراً، ولا خططت حرفاً، لأنى لاأعتقد أن عهداً مثل عهدك الغادر، ووداً مثل ودك الكاذب، يستحق أن أحفل به فأذكره، أو آسف عليه فأطلب تجديده

إنك عرفت حين تركتنى أن بين جنبيّ ناراً تضطرم، وجنيناً يضطرب، تلك للأسف على الماضى، وذاك للخوف من المستقبل، فلم تُبَل بذلك وفررت منى حتى لاتحمّل نفسك مؤونة النظر الى شقاء أنت صاحبه، ولا تكلف يدك مسح دموع أنت مرسلها، فهل أستطيع بعد ذلك أن أتصور أنك رجل شريف، لا بل لاأستطيع أن أتصور أنك انسان، لأنك ماتركت خلة من الخلال المتفرقة فى نفوس العجماوات وأوابد الوحش الا جمعتها فى نفسك وظهرت بها جميعها فى مظهر واحد

كذبت علي فى دعواك أنك تحبني، وما كنت تحب

الا نفسك ، وكل مافى الأمر أنك رأيتني السبيلَ الى إرضائها فمررتَ بى فى طريقك اليها ، ولولا ذلك ما طرقت لى بابا ، ولا رأيت لى وجهاً

خنتنى إذ عاهدتنى على الزواج فأخلفت وعدك ذَهابا بنفسك أن تتزوج امرأة مجرمة ساقطة ، وما هذه الجريمة ولا تلك السقطة الاصنعة يدك ،وجريرة نفسك، ولولاك ما كنت مجرمة ولا ساقطة ، فقد دافعتك جهدى حتى عييت بامرك فسقطت بين يديك سقوط الطفل الصغير ، بين يدى الجبار الكبير

سرقت عفتى ، فاصبحتُ ذليلة لنفس حزينة القلب ، أستثقل الحياة وأستبطئ الأجل ، وأى لذة فى العيش لامرأة لا تستطيع أن تكون زوجة لرجل،ولا أما لولد ، بل لاتستطيع أن تعيش فى مجتمع من هذه المجتمعات البشرية الا وهى خافضة رأسها ، مسبلة جفنها ، واضعة خدها على كفها ، ترتعد أوصالها ، وتذوب أحشاؤها ، خوفا من عبث العابثين ، وتهكم المتهكمين

سلبتني راحتي، لاني أصبحت مضطرة بعد تلك الحادثة الى الفرار من ذلك القصر الذى كنت متمتعة فيه بعشرة أبي وأمى ، تاركة ورائى تلك النعمة الواسعة وذلك العيش الرغد الى منزل حقير في حى مهجور لا يعرفه أحد، ولا يطرق بابه طارق ، لأقضى فيه الصبابة الباقية لى من أيام حياتى

قتلت أمي وأبى، فقد علمت أنهما ماتا، وما أحسب موتهما إلا حزنا لفقدى ، ويأسا من لقائى

قتلتنى ، لان ذلك العيش المر الذي شربته من كأسك ، والهم الطويل الذى عالجته بسببك ، قد بلغا مبلغهما من جسمي ونفسى ، فأصبحت في فراش الموت كالذبالة المحترقة تتلاشى نفساً فى نفس، وأحسب أن الله قد صنع لى، واستجاب دعائى ، وأراد أن ينقلنى من دار الموت والشقاء ، الى دار الحياة والهناء

فانت كاذب خادع ، ولص قاتل ، ولا أحسب أن الله تاركك دون أن يأخذ لى بحقي منك

ما كتبت اليك هذا الكتاب لاجدد بك عهداً ،أو أخطب اليك وداً ، فأنت أهون علىّ من ذلك ، على أنى قد أصبحت على باب القبر وفى موقف وداع الحياةبأجمعها خيرها وشرها ، سعادتها وشقائها ، فلا أمل لى فى ود ،ولا متسع لعهد ، وانما كتبت اليك لأن لك عندى وديعة وهى فتاتك ، فان كان الذى ذهب بالرحمة من قلبك أبقى لك منها رحمة الابوة فأقبل اليها وخذهااليك حتى لايدركها من الشقاء ما أدرك أمّهامن قبلها

فما أتممت قراءة الكتاب حتى نظرت اليه فرأيت مدامعه تتحدر على خديه فسألته وماذا تم له بعد ذلك ، قال إنى ماقرأت هذا الكتاب حتى أحسست برعدة تتمشى فى جميع أعضائى ، وخيل الى أن صدرى يحاول أن ينشق عن قلبى حزنا وجزعاً فأسرعت الى منزلهاوهو هذا المنزل الذى ترانى فيه الآن فرأيتها فى هذه الغرفة على هذا السرير جثة هامدة لاحراك بها ، ورأيت فتاتها الى جانبها تبكى بكاء

مراً فصعقت لهول ما رأيت، وتمثلت لى جرائمى فى غشيتى كأنما هى وحوش ضارية، وأساودُ ملتفة، هذا ينشب أظافره، وذاك يحدد أنيابه، فما أفقت حتى عاهدت الله ألا أبرح هذه الغرفة التى سميتها «غرفة الأحزان» حتى أعيش فيها عيشَها، وأموت موتها

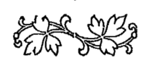
وها أنذا أموت اليوم راضيا مسروراً فقد حدثنى قلبى أن الله قد غفر لى سيئاتى بما قاسيت من العناء، وكابدت من الشقاء

وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى انعقد لسانه واكفهر وجهه وسقط على فراشه فأسلم الروح وهو يقول: ابنتى ياصديقى، فلبثت بجانبه ساعة قضيت فيها مايجب على الصديق لصديقه، ثم كتبت الى أصدقائه ومعارفه فحضروا تشييع جنازته، ومارئى مثل يومه يوم كان أكثر باكية وباكيا

ولما حثونا الترب فوق ضريحه
جزعنا ولكن أىّ ساعة مجزع

يعلم الله أنى أكتب قصته ، ولا أملك نفسى من البكاء والنشيج، ولا أنسى ما حييت نداءه لى وهو يودع نسمات الحياة وقوله « ابنتى ياصديقى »

فيا أقوياء القلوب من الرجال ، رفقاً بضعفاء النفوس من النساء ، إنكم لاتعلمون حين تخدعونهن عن شرفهن وعفتهن ، أى قلب تفجعون ، وأى دم تسفكون



الشرف

لو فهم الناس معنى الشرف لاصبحوا كلهم شرفاء

مامن عامل يعمل فى هذه الحياة الا وهو يطلب فى عمله الشرف الذى يتصوره أو يصوره له الناس ، إلا انه تارة يخطيء مكانه وتارة يصيب

يقتل القاتل وفى اعتقاده أن الشرف فى أن ينتقم لنفسه أو عرضه باراقة هذه الكمية من الدم ، ولا يبالى أن يسميه القانون بعد ذلك مجرما،لانالبيئة التي يعيش فيها لاتوافق على هذه التسمية،وهى فى نظره أعدل من القانون حكماً ، وأصدق قولا

يفسق الفاسق وفى اعتقاده أنه قد نفض عن نفسه بعمله هذاغبار الخمول والبله الذى يظلل الاعفاءوالمستقيمين ،

وأنه استطاع أن يعمل عملا لا يُقدم عليه الا كل ذى حذق وبراعة، وشجاعة وإقدام

يَسرِق السارق ويزوّر المزوّر ويخون الخائن ، وفى اعتقاد كل منهم أن الشرف كلّ الشرف فى إحراز المال وإن كان السبيل اليه دنيئاً وسافلا ، وأن للذهب رنيناً تَخفِتُ بجانب صوته أصواتُ المعترضين والناقدين شيئاً فشيئاً ثم تنقطع حتى لا يُسمع بجانبه صوتٌ سواه

هكذا يتصور الأدنياء أنهم شرفاء ، وهكذا يطلبون الشرف ويخطئون مكانه ، وما أفسد عليهم تصورهم الا الذين أحاطوا بهم من سجرائهم وخلطائهم وذوى جامعتهم ، أولئك الذين يحتقرون الموتور حتى يَغسل الدمَ بالدم فيعظمونه، وينعَوْن على الرجل العفّ المستقيم بلاهتَه وخموله حتى يفجر ويُستهتر فيُطرونه ويجلونه ، ويكرمون صاحب الذهب ولو أن كل دينار من دنانيره مِحجم من الدم ، وأولئك

الذين يسمون الفقير سافلا ، وطيب القلب مغفلا ، وطاهر السريرة بليداً ، والحليم عاجزاً

لا تعجب إن سمعت أن جماعة الأغنياء الجهلاء تنعكس فى أدمغتهم صور الحقائق حتى تلبس فى نظرهم ثوبا غير ثوبها ، وتتراءى فى لون غير لونها ، فان بين الخاصة الذين نعتدّ بعقولهم ونمتدح أفهامهم ومداركهم من لا يفرق بين الرذيلة والفضيلة ، حتى انه ليكاد يفخر بالاولى ويستحي من الأخرى

لولا فساد التصور ما افتخر قائد الجيش بأنه قتل مائة ألف من النفوس البشرية فى حرب لا يدافع فيها عن فضيلة ، ولا يؤيد بها حقاً من الحقوق الشرعية أو الاجتماعية ، ولولا فساد التصور ما وضع المؤرخون اسم ذلك السفاح بجانب أسماء العلماء والحكماء والأطباء خَدَمةِ الانسانية وحَمَلة عرشها وأصحاب الأيادى البيضاء عليها فى سطر واحد من صحيفة واحدة ، ولولا فساد التصور ما جلس القاضى المرتشى فوق

كرسيّ القضاء يفتل شاربيه ، ويصعّر خدّيه ، وينظر نظرات الاحتقار والازدراء الى المتهم الواقف بين يديه موقف الضراعة والذل ، ولا ذنب لهُ عنده إلا أنه جاع وضاقت بهِ مذاهب العيش فسرق درهما ، وهو يسرق الدنانير فى جميع آنائه وأوقاته ، ولولاه لما توهّم وهو اللص الكبير ، أنه أشرفُ من هذا اللص الصغير ، ولو باتا عند قدريهما لوقفا معا فى موقف واحد أمام قاض عادل يحكم بادانة الأول ، لانه سرق مختاراً ليرفه عيشه ، وبراءةِ الثانى ، لأنه سرق مضطراً لينقذ حياته من براثن الموت .

فمن شاء أن يهذب أخلاق الناس ، ويقوم معوجها ، فليهذب تصوراتهم ، وليقوّم أفهامهم ، يُوافِه ما يريد من التهذيب والتقويم .

ليسَ من الرأى أن يشير المعلمُ على المتعلم أن يجعل هذا المجتمع الانسانى ميزانا يزن به أعماله ، أو مرآة يرى

فيها حسناته وسيئاته ، فالمجتمع الانسانى مصاب بالسقم فى فهمه ، والاضطراب فى تصوره ، فلا عبرة بحكمه ، ولا ثقة بوزنه وتقديره

ليس من الرأى أن يرشد المعلمُ المتعلمَ الى أن يطلب فى حياته الشرف الاعتبارى ، فليس كل ما يعتبره الناس شرفاً هو فى الحقيقة كذلك

ألا تراهم يَعُدون أشرف الشرف أن يتناول الرجل من الملك قطعة من الفضة أو الذهب يُحلى بها صدره ، وربما كانوا يعلمون أنه ابتاعها بماله ، كما تبتاع المرأة من الجوهرىّ حليتها

لا شرف الا الشرف الحقيقى ، وهو الذى يناله الانسان يبذل حياته أو ماله أو راحته فى خدمة المجتمع البشرى جميعه أو خدمة نوع من أنواعه

فالعالم شريف ، لأنه يجلو صدأ العقل الانسانى ويصقُل مرآته ، والمجاهد فى سبيل الذود عن وطنه شريف ، لأنه

يحمى مواطنيه غائلة الاعداء ، ويقيهم عادية الفناء ، والمحسن الذى يضع الاحسان فى موضعه شريف، لأنه يأخذ بأيدى الضعفاء ، ويحيى أنفس البؤساء ، والحاكم العادل شريف، لانه رسول العناية الالهية الى المظلومين يمنعهم أن يبغىَ عليهم الظالمون ، وصاحب الأخلاق الكريمة شريف ،لانه يؤثر بكرم أخلاقه وجمال صفاته فى عشرائه وخلطائه ، ويُلقى عليهم بالقدوة الصالحة أفضلَ درس فى الأخلاق والآداب ، والصانع والزارع والتاجر أشراف متى كانوا أمناء مستقيمين، لأنهم هم الذين يحملون على عواتقهم هذا المجتمع البشرى ويحتملون فى سبيل ذلك ما يحتملون من المؤونة والمشقة حذرا عليه من التهافت والسقوط

فان رأيت فى نفسك أيها القارئ أنك واحد من هؤلاء فاعلم أنك شريف ، والا فاسلك طريقهم جهدَك ، فان لم تبلغ غايته،فأخذُ القليل خير من ترك الكثير ، فان لم يكن هذا ولا ذاك فلتبك على عقلك البواكى

الحب والزواج

قرأت فى بعض المجلات قصة قصها أحد الكتاب موضوعها أن كاتبها غاب عن بلده بضعة أعوام ثم عاد اليها بعد ذلك فزار صديقاً له من أسرياء الرجال ووجوههم ومن ذوى الأخلاق الكريمة والأنفس العالية فوجده حزيناً كئيباً على غير ما يعهد من حاله قبل اليوم ، فاستفهم منه عن دخيلة أمره فعرف أنه كان متزوجاً من فتاة يحبها ويجلها ويفديها بنفسه وماله فلم تحفظ صنيعه ولم ترع عهده وأنها فرت منه الى عشيق لها رقيق الحال وضيع النسب ، فاجتهد الكاتب أن يَلقى تلك الفتاة ليعرف منها سر فرارها من بيت زوجها فلقيها فى منزل عشيقها فاعتذرت اليه عن فَعلتها بأنها لاتحب زوجها لانه في الأربعين من عمره وهي

لم تبلغ العشرين ، وقالت إنهــا جرت فى ذلك على حكم الشرائع الطبيعيةِ ،وان خالفت الشرائع الدينية ، لأن الاولى عادلة،والثانية ظالمة ، وقالت ان مايسميه الناس بالزنا والخيانة هو فى الحقيقة طهارة وأمانة ، لأن أساسه الحب ، وكل ما كان أساسه الحب فهو طاهر شريف ، وإن كان فى أعين الناس عيباً وعاراً ، وقالت ما الخيانة ولا الجريمة ، ولا الغش ولا الخداع ،الا أن تأذن المرأة لزوجها الذى تكرهه بالالمام بها إلمام الازواج بنسائهم مادامت لاتحبه ولا تألف عشرته ، وقالت لو أدرك الناس أسرار الديانات وأغراضها لعرفوا أنها متفقة فى هذه المسألة مع الشرائع الطبيعية ، وأنها ربما تَعُدّ المرأة فى بيت زوجها زانية ، وفى بيت عشيقها طاهرة ، اذا كانت تكره الأول وتحب الثانى

هــذا ملخص القصة على طولها ، وأحسَبها قصــةً موضوعة على نحو ما يضع الكتاب القصص الخيالية لنشر رأى من الآراء أو تأييد مذهب من المذاهب ، لان

الكاتب قد أعذر[1] تلك الفتاةَ فيما فعلت ، واقتنع بصحة أقوالها وصحة مذهبها وأعداها على زوجها[2] وقضى لها فيما كان بينهما

وسواء أكانت القصة حقيقة أم خيالية فالحق أقول إن الكاتب أخطأ في وضعها ، وما كنت أحسب إلا أن مذهب الاباحية[3] قد مضى وانقضى بانقضاء العصور المظلمة حتى قرأت هذه القصة منشورة باللغة العربية بين ابناء الأمة العربية فنالني من الهم والحزن ما الله عالم به

قرأنا ما كتب الكاتبون فى سبيل الدفاع عن المرأة الساقطة وهى التى هفت فى حياتها هفوة دفعها اليها دافع خداع أو سائق حاجة ثم ثاب اليها رشدها وهداها فقلنا لا بأس بتهوينهم ذنبا جسمته العادة ، وألبسته ثوبا أوسع من ثوبه ، ولا بأس برحمتهم فتاة مذنبة تحاول الرجوع الى ربها ، والتوبة من

---

(١) أعذرها قبل عذرها (٢) أعداها عليه انتصف لها منه (٣) مذهب قديم كان يستحل أصحابه كل شيء رأيا واعتقادا

ذنبها ، ويأبى المجتمع البشرى الا أن يسد عليها أبواب السماء المفتحة للقاتلين والمجرمين

أما وقد وصل الحد الى تزيين الزنا للزانية وتهوين إثمه عليها وإغراء العفيفة الصالحة بالتمرد علي زوجها والخروج عن طاعته كلما دعاها الى ذلك داع من الهوى فهذا مالا يطاق احتماله ، ولا يستطاع قبوله

إن فتاة الرواية لم تهف فى جريمتها فقط كما يهفو غيرها من النساء لانها مقيمة فى منزل عشيقها من زمن بعيد ، وقد عقدت عزمها علي البقاء فيه مادامت روحها باقية فى جسدها ، ولم يسُقها الى ذلك سائق شهوة بشرية إن صح أن تكون الشهوة البشرية عذرا يدفع مثلها الى مثل ما صنعت ، لأنها فرت من فراش زوجها ، لا من وحشة خلوتها ، ولا سائقُ جوع ، لانها كانت أهنأ النساء عيشاً ، وأروحهن بالا ، بل كانت على حالة من الرفاهية والنعمة

والتقلب فى أعطاف العيش البارد لم ترَ مثلها من قبل ولا من بعد ، إذن فهى امرأة مجرمة لا يمنحها العدل من الرحمة ما منح المرأةَ الساقطة

إن كانت هذه الفتاة عفيفة طاهرة كما يزعم الكاتب فقد أخطأ علماء اللغة جميعاً فى وضع كلمة الفساد فى معاجمهم لأنها لا مسمى لها فى هذا العالم ، عالمِ العفة والطهارة ، والخير والصلاح ، ولا يمكن أن يكون المراد منها فتاةَ المواخير لأنها لم تترك وراءها زوجا معذبا منكوبا ، ولم ترض عن حياتها الجديدة التى انتقلت اليها قط ولا اغتبطت بعيشها فيها اغتباط تلك الفتاة

كل الأزواج ذلك الزوجُ إلا قليلا ، فاذا جاز لكل زوجة أن تفرَّ من زوجها الى عشيقها كلما وقع فى نفسها الضجر من معاشرة الاول وبرقت لها بارقة الانس من بين ثنايا الثاني ، فويل لجميع الرجال من جميع النساء ، وعلى

النظام البيتىّ والرابطة الزوجية بعد اليوم ألف سلام

أيها الكاتب : ليس فى استطاعتى ولا فى استطاعتك ولا فى استطاعة أحد من الناس أن يقف دورةَ الفلك ويصد كرّ الغداة ومر العشى حتى لا يبلغ الاربعين من عمره مخافة أن تراه زوجته غير أهل لعشرتها اذا علمت أن فى الناس من هو أصغر منه سناً وأكثر رونقا وأنضر شبابا

إن الضجر والسآمة من الشىء المتكرر المتردد طبيعة من طبائع النوع الانسانى فهو لا يصبر على ثوب واحد أو طعام واحد أو عشير واحد ، وقد علم الله سبحانه وتعالى ذلك منه وعلم أن نظام الاسرة لا يتم الا اذا بنى على رجل وامرأة تدوم عشرتهما ، ويطول ائتلافهما ، فوضع قاعدة الزواج الثابت ، ليهدم بها قاعدة الحب المضطرب ، وأمر الزوجين أن يعتبرا هذا الرباط رباطاً مقدساً حتى يحول بينهما وبين رجوعهما الى طبيعتها، وذهابهما فى أمر الزوجية

مذهبهما فى المطاعم والمشارب، من حيث الميلُ لكل جديد ، والشغف بكل غريب

هذا هو سر الزواج وهذه حكمته ، فمن أراد أن يجعل الحب قاعدة العشرة بدلا من الزواج فقد خالف إرادة الله وحاول أن يهدم ما بناه ليهدم بهدمه السعادة البيتية

أى امرأة متزوجة بأجمل الرجال لا تحدثها نفسها بالرغبة فى استبداله بأجملَ منه ، وأى رجل متزوج بأجمل النساء لا يتمنى أن يكون فى منزله أجملُ منها ، لولا هذا الرباط المقدس رباط الزوجية ، فهو الذى يعالج أمثال هذه الامانى وتلك الهواجس وهو الذى يعيد الى النفوس الثائرة سكونها وقرارها

لا بأس أن يتثبت الرجل قبل عقد الزواج من وجود الصفة المحبوبة لديه فى المرأة التى يختارها لنفسه ، ولا بأس أن تصنع المرأة صنيعه ، ولكن لا على معنى أن يكون الحب الشهوى هو قاعدة الزواج ، يحيا بحياته ، ويموت

بموته ، فالقلوب متقلبة ، والاهواء نزاعة ، بل بمعنى أن يكون كلٌّ منهما لصاحبه صديقاً ، أكثر منه عشيقاً ، فالصداقة ينمو بالمودة غرسها ، ويمتد ظلها ، أما الحب فظل يتنقل ، وحال تتحول



الاسلام والمسيحية

ما عجبت لشيء في حياتي عجبي لهؤلاء الذين يعجبون كثيراً مما كتبه اللورد كرومر عن الاسلام كأنما كانوا يتوقعون من رجل يدين بدين غير دين الاسلام ويضن به ضنّه بنفسه وماله أن يؤمن بالوحدانية ، ويصدق الرسالة المحمدية ، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويحج البيت ما استطاع اليه سبيلا

إن اللورد كرومر يعتقد كما يعتقد كل مسيحي متمسك بيسوعيته أن الاسلام دين موضوع ابتدعه رجل عربي بدوي أمي ما قرأ في حياته صحيفة ، ولا دخل مدرسة ، ولا سمع حكمة اليونان ، ولا رأى مدنية الرومان ، ولا تلقى شيئاً من علوم الشرائع والعمران

هذا مبلغ معتقده فى ذلك الرجل فكيف يرى نفسه بين يديه أصغر من أن يناقشه ويناظره ويخطئه فيما وضعه للناس من الشرائع والاحكام ، وكيف يسمح لنفسه أن ينظر اليه بالعين التى ينظر بها المسلم اليه من حيث كونه نبياً مرسلا موحى اليه من عند الله تعالى بكتاب كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أما ما نقرؤه أحيانا لبعض علماء الغرب المسيحيين من الثناء على الاسلام واطراء أحكامه وآياته فهو مكتوب بأقلام قوم مؤرخين قد أدوا للتاريخ حق الامانة والصدق ، فلم يعبث التعصب الدينى بكتاباتهم ، ولا تمشت الروح المسيحية فى أقلامهم ، ولا ريب فى أن اللورد كرومر ليس واحداً منهم ، فان من قرأ كتابه « مصر الحديثة » خيل اليه أنه يسمع صوت راهب فى صومعته قد لبس قلنسوته ومسوحه وعلق صليبه فى زناره

فهل يحق بعد ذلك لاحد من المسلمين أن يندهش

أو يذهب به العجب كلَّ مذهب إذا رأى فى كتاب اللورد كرومر ما يراه كل يوم فى كتب المبشرين الانجيليين ، وجرائدهم ومجلاتهم ، من الطعن على الاسلام وعقائده وشرائعه

بلغ التعصبُ الدينى بجماعة المبشرين أن حكموا بوجود اللحن فى القرآن بعد اعترافهم بأنه كتاب عربى نظمه على حسب معتقدهم رجلٌ هو فى نظرهم أفصح العرب ، وليست مسألة الاعراب واللحن مسئلةً عقلية يكون للبحث العقلى فيه مجال ، وانما الاعراب ما نطق به العرب واللحن مالم ينطقوا به ، فلو أنهم اصطلحوا على نصب الفاعل ورفع المفعول مثلا لكان رفعُ الأول ونصب الثانى لحنا ، ولكنّ جهلة المبشرين لم يدركوا شيئاً من هذه المسلّمات ، واستدلوا على وجود اللحن فى القرآن بقواعد النحو التى مادوّنها مدونوها الا بعد ان نظروا فى كلام العرب وتتبعوا تراكيبه وأساليبه ، وأكبرُ ما اعتمدوا عليه

في ذلك هو القرآن المجيد ، فالقرآن حجة على النحاة، وليست النحاة حجة على القرآن ، فاذا وجد في بعض تراكيب القرآن أو غيره من الكلام العربي ما يخالف قواعد النحاة حكمنا بأنهم مقصرون فى التتبع والاستقراء ، على أنهم ماقصروا فى شيء من ذلك ، وما تركوا كثيراً ولا قليلا ولا نادراً ولا شاذاً الا دونوه فى كتبهم ، فلا القرآن بملحون ، ولا النحاة مقصرون ، ولكن المبشرين جاهلون ، فاذا كان التعصب الدينى أنطق ألسنتهم بمثل هذه الخرافة المضحكة فليس بغريب أن نسمع من هذا الرجل المتشبه بهم هذا الطعن على الاسلام في عقائده وأحكامه

إنا لا ننازع اللورد كرومر ولا أمثاله من الطاعنين على الاسلام فى معتقدهم ، ولكنا نحب منهم الا ينازعونا فى معتقدنا ، وأن يعطونا من الحرية فى ذلك ما أعطوه لانفسهم

يقول اللورد كرومر إن الدين لاسلامى دين جامد لا يتسع صدره للمدنية الانسانية ولا يصلح للنظام الاجتماعى، ويقول إن مالا يصلح له الدين الاسلامى يصلح له الدين المسيحى ، ويستدل على الاسلام بالمسلمين ، وعلى المسيحية بالمسيحيين

فى أى عصر من عصور التاريخ كانت الديانة المسيحية مبعث العلم ومطلع شمس المدنية والعمران ، أفى العصر الذى كانت تدور فيه رحى الحروب الدموية بين الارثوذكس والكاثوليك تارة وبين الكاثوليك والبروتستانت تارة أخرى بصورة وحشية فظيعة أسودّ لها لباس الانسانية، وبكت الارض منها والسماء ، أم فى العصر الذى كانت ارادة المسيحي فيه صورة من إرادة الكاهن الجاهل، فلا يَعلم الا يعلمه اياه ، ولا يفهم الا ما يلقيه اليه ، فما كان يترك له الحرية حتى فى الحكم على نفسه بكفر أو ايمان ، وبهيمية أو إنسانية ، فيكاد يتخيل فى نفسه أن له ذنباً متحركا

وخيشوما طويلا وأنه يمشى على أربع إذا قال له الكاهن أنت كلب، أو قال له إنك لست بانسان ، أم فى العصر الذى كان يعتقد فيه المسيحى أن دخول الجمل فى سَم الخياط أقرب من دخول الغنى فى ملكوت السموات ، أم فى العصر الذى كان يحرم فيه الكاهن الاعظم على المسيحي أن ينظر فى كتاب غير الكتاب المقدس،وأن يتلقى علماً فى مدرسة غير مدرسة الكنيسة ، أم فى العصر الذى ظهرت فيه النجمة ذات الذَنب فذُعر لرؤيتها المسيحيون ورفعوا الى البابا عرائض الشكوى فطردها من الجو فولت الادبار ، أم فى العصر الذى أَهدى فيه الرشيد العباسى الساعةَ الدقاقة الى الملك شارلمان فلما رآها الشعب المسيحى وسمع صوتها فر من وجهها ظناً منه أنها تشتمل على الجن والشياطين ، أم فى العصر الذى أُلفت فيه محكمة التفتيش لمحاكمة المتهمين بمزاولة العلوم فحكمت فى وقت قصير على ثلاثمائة وأربعين ألفاً بالقتل حرقاً أو صلبا ، أم فى العصر الذى أحرق فيه

الشعب المسيحى فتاة حسناء بعد ما كشط لحمها وعرق عظمها لانها كانت تشتغل بعلوم الرياضة والحكمة

هذا الذى نعرفه أيها الفليسوف التاريخى من تاريخ العلم والعرفان والمدنية والعمران فى العصور المسيحية ، ولا نعلم أكانت تلك المسيحية التى كان هذا شأنها وهذا مبلغ سعة صدرها صحيحة فى نظرك أم باطلة ، وانما نريد أن نستدل بالمسيحيين على المسيحية وإن لم نقف على حقيقتها ، كما فعلت أنت فى استدلالك بالمسلمين على الاسلام وان لم تعرف حقيقته وجوهره ، على أن استدلالنا صحيح واستدلالك باطل ، فان المدنية الحديثة مادخلت أوربا الا بعد أن زحزحت المسيحية منها لتحل محلها كالماء الذى لا يدخل الكأس الا بعد أن يطرد منه الهواء لانه لايتسع لهما ، فان كان قد بقي أثر من آثار المسيحية اليوم فى أكواخ بعض العامة فى أوربا فما بقى الا بعد أن عفت عنه المدنية ورضيت بالابقاء عليه ، لا باعتبار أنه دين

يجب إجلاله واعظامه ، بل باعتبار أنه زاجر من الزواجر النفسية التى تستعين الحكومات بها وبقوتها على كسر شِرّة النفوس الجاهلة ، فلا علاقة بين المسيحية والتمدين الغربى من حيث يُستدل به عليها ، أو باعتبار أنه أثر من آثارها ، ونتيجة من نتائجها ، ولو كان بينه وبينها علاقة ما افترقت عنه خمسة عشر قرنا كانت فيها أوربا وراء مايتصوره العقل من الهمجية والوحشية والجهل ، فما نفعتها مسيحيتها ، ولا أغنى عنها « كهنوتها »

أما المدنية الاسلامية فانها طلعت مع الاسلام فى سماءواحدة من مطلع واحدفى وقت واحد ، ثم سارت الى جانبه كتفاً لكتف ما ينكر من أمرها ولا تنكر من أمره شيئاً ، فالمتعبد فى مسجده ، والفقيه فى درسه ، والمعرب فى خزانة كتبه ، والرياضى فى مدرسته ، والكيمائى فى معمله ، والقاضى فى محكمته ، والخطيب فى محفله ، والفلكى أمام إسطرلابه ، والكاتب بين محابره وأوراقه ،

إخوة متصافون ، وأصدقاء متحابون ، لايختصمون ولا يقتتلون ، ولا يكفر بعضهم بعضاً ، ولا يبغى أحد منهم على أحد

أيها الفيلسوف التاريخى : إن كان لابدمن الاستدلال بالاثر على المؤثر فالمدنية الغربية اليوم أثر من آثار الاسلام بالأمس ، والانحطاط الاسلامى اليوم ضربة من ضربات المسيحية الأولى ، واليك البيان

جاء الاسلام يحمل للنوع البشرى جميع ما يحتاج اليه فى معاده ومعاشه ، ودنياه وآخرته ، ومايفيده منفرداً ، وما ينفعه مجتمعاً

هذب عقيدته بعد ماأفسدها الشرك بالله والاسفاف إلى عبادة التماثيل والاوثان وإحناء الرؤوس بين أيدى رؤساء الاديان،وأرشده الى الايمان بألوهية إله واحد لا يشرك به شيئاً ، ثم أرشده الى تسريح عقله ونظره فى ملكوت السموات والارض ليقف على حقائق الكون وطبائعه ،

وليزداد إيمانا بوجود الاله وقدرته وكمال تدبيره ، وليكون اقتناعه بذلك اقتناعا نفسياً قلبياً، فلا يكون آلة صماء ، في يد الاهواء ، تفعل به ماتشاء ، ثم أرشده الى مواقف تذكره بربه ، وتنبهه من غفلته ، وتطرد الشرور والخواطر السيئة عن نفسه كلما ابتغت اليها سبيلا ، وهي مواقف العبادات ، ثم أطلق له الحرية في القول والعمل ولم يمنعه الا من الشرك بالله والاضرار بالناس ، وعرفه قيمة نفسه بعد ما كان يجهلها ، وعلمه أن الانسانية لافرق بين فقيرها وغنيها ، ووضيعها ورفيعها ، وضعيفها وقويها ، وأن الملك والسُّوقة ، والشريف الهاشمي ، والعبد الزنجي ، أمام الله والحق سواء ، وأن الامر والنهي ، والتحليل والتحريم ، والنفع والضر ، والثواب والعقاب ، والرحمة والغفران ، بيد الله وحده ، لا ينازعه فيها منازع ، ولا يملكها عليه أحد من الانبياء والمرسلين ، والملائكة المقربين ، ثم نظر في أخلاقه فأرشده الى محاسنها ، ونفره من مساوئها ، حتى علمه آداب الأكل والشرب ،

والنوم والمشى، والجلوس والكلام، والتحية والسلام، ثم دخل معه منزله فعلمه كيف يبر الابن أباه، ويرحم الوالد ولده، ويعطف الأخ على أخيه، ويكرم الزوج زوجته، وتطيع الزوجة زوجها، وكيف يكون التراحم والتواصل بين الاقرباء وذوى الرحم، ثم نظر فى شؤونه الاجتماعية ففرض عليه الزكاة التى لو جمعت ووضعت في مواضعها المشروعة لما كان فى الدنيا بائس ولا فقير، وندبه الى الصدقة ومساعدة الأقوياء للضعفاء، وعطف الاغنياء على الفقراء، ثم شرع له شرائع للمعاملة الدنيوية، ووضع له قوانين البيع والشراء والرهن والهبة والقرض والتجارة والاجارة والمزارعة والوقف والوصية والميراث، ليعرف كل انسان حقه، فلا يغبن أحد أحداً، ثم قرر له عقوبات دنيوية تمنعه أن يبغى بعضه على بعض بشتم أو سب أو قتل أو سرقة أو انتهاك حرمة أو مجاهرة بمعصية أو شروع فى فتنة أو خروج على أمير أو سلطان، ثم نظر فى شؤونه السياسية فقرر الخلافة وشروطها،

والقضاء وصفاته ، والامارة وحدودها ، وقرر كيف يعامل المسلمون مخالفيهم في الدين ، البعيدين عنهم ، والنازحين اليهم ، وذكر مواطن القتال معهم ، ومواضع المسالمة لهم

وجملة القول أن الدين الاسلامي ماغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ولا ترك الانسان يمشي في ميدان هذه الحياة خطوة من مهده الى لحده الا مد يده اليه وأنار له مواقع أقدامه وأرشده الى سواء السبيل

طلعت هذه الشمس المشرقة في سماء الغرب فملأت الكون نوراً واشراقاً ، واختلف الناس في شأنها ما بين معترف بها ، ومنكر لوجودها ، ولكنهم كانوا جميعاً سواء في الانتفاع بنورها ، والاستنارة بضيائها ، على تفاوت في تلك الاستنارة ، وتنوع في ذلك الانتفاع

طلعت هذه الشمس المشرقة فتمشت أشعتها البيضاء الى أوربا من طريق اسبانيا وجنوب ايتاليا وفرنسا فأبصرها

عدد قليل من أذكياء الغربيين فانتبهوا من رقدتهم ، واستيقظوا من سباتهم ، ورأوا من جمال المذاهب الاسلامية وشرائع الكون ونظاماته وقواعد الحرية والمساواة مالفت نظرهم الى المقابلة بين المجتمع الغربى الخامل الضعيف والمجتمع الشرقى النابه اليقظ ، فقالوا أيمكن أن يعيش الانسان حراً على ظهر هذه المسكونة لا يستعبده ملك ولا يسترقه كاهن ، أيمكن أن يبيت المرء ليلة واحدة فى حياته هادئاً فى مضجعه مطمئناً فى مرقده لا يروعه دولاب العذاب ولا سيف الجلاد ، أيمكن أن تملك النفس حريتها فى النظر الى نظام العالم وطبائعه ودراسة العلوم الكونية ومزاولتها ، أيمكن أن يطلع فجر المدنية على هذا المجتمع الغربى فيمحو ظلمته التى طال عهدنا بها حتى غشيت أبصارنا فما يكاد يرى بعضنا بعضاً

كانت هذه الخواطر المترددة فى عقول أولئك الاذكياء هي الخطوة الأولى التي مشتها أوربا فى طريق المدنية والعمران

بفضل الاسلام وشرائعه التى عرفها هؤلاء الافراد من مخالطة المسلمين فى أوربا ومطالعة كتبهم ومناظرة حضارتهم ومدنيتهم ، ثم أخذوا يعلمونها الناس سراً ويبثونها فى نفوس تلاميذهم شيئاً فشيئاً ويلقون فى سبيل نشرها عناء شديداً ، واستمر هذا النزاع بين العلم والجهل قروناً عدة حتى انتهى أمره بالثورة الفرنسية فكانت هى القضاء الاخير على الوحشية السالفة ، والهمجية القديمة

أيها الفيلسوف التاريخى : إنك لا بد تعلم ذلك حق العلم لانه أقل مايجب على المؤرخ أن يعلمه كما تعلم أن المدنية الاسلامية اذا وسعت غيرها فأحْرِ بها أن تسع نفسها ، ولكن التعصب الدينى قد بلغ من نفسك مبلغه فما كفاك أن أنكرت فضل صاحب الفضل عليك حتى أنكرت عليه فضله فى نفسه

لا حاجة بى أن أشرح لك المدنية الاسلامية أو أسرد لك أسماء علمائها وحكمائها ومؤلفاتهم فى الطبيعة

والكيمياء والفلك والنبات والحيوان والمعادن والطب والحكمة والأخلاق والعمران ، أو اعدد لك مدارسها ومجامعها ومراصدها فى الشرق والغرب، أو أصف لك مدنها الزاهرة ، وأمصارها الزاخرة ، وسعادتها وهناءها ، وعزتها وسطوتها ، فأنت تعرف ذلك كله إن كنت مؤرخا كما تقول

غير أنى لا أنكر ما لحق بالمسلمين فى هذه القرون الأخيرة من الضعف والفتور ، وما أصاب جامعتهم من الوهن والانحلال ، ولكن ليس السبب فى ذلك الاسلامَ كما تتوهم بل المسيحيةَ التى سرت عدواها اليهم على أيدى قوم من المسيحيين أو أشباه المسيحيين لبسوا لباس الاسلام وتزيوا بزيه ودخلوا بلاده وتمكنوا من نفوس ملوكه الضعفاء ، وأمرائه الجهلاء ، فأمدوهم بشىء من السطوة والقوة تمكنوا به من نشر مذاهبهم السقيمة وعقائدهم الخرافية بين المسلمين حتى أفسدوا عليهم مذاهبهم وعقائدهم وأوقعوا الفتنة فيهم وحالوا بينهم وبين الاستمداد من روح

الاسلام وقوته فكان من أمرهم بعد ذلك ما كان

كل مانراه اليوم بين المسلمين من الخلط فى عقيدة القضاء والقدر وعقيدة التوكل وتشييد الاضرحة وتجصيص القبور وتزيينها والترامى على أعتابها والاهتمام بصور العبادات وأشكالها دون حكمها وأسرارها وإسناد النفع والضرر الى رؤساء الدين وأمثال ذلك أثر من آثار المسيحية الاولى وليس من الاسلام فى شيء

أيها الفيلسوف التاريخي : لاتقل إننا متعصبون تعصباً دينيا فانك قد أسأت الينا والى ديننا فلم نر بداً من الذب عنا وعنه بما نعلم أنه حق وصواب ، على أنه لاعار علينا فيما تقول ، وهل التعصب الدينى الا اتحاد المسلمين يداً واحدة على الذود عن أنفسهم ، والدفاع عن جامعتهم ، وإعلاء شأن دينهم ونصرته حتى يكون الدين كله لله

إن كان رفضاً حبُّ آل محمد

فليشهد الثقلان أني رافضى

أهناء أم عزاء

فارق مصر على أثر إعلان الدستور العثمانى كثير من فضلاء السوريين بعد ما عمَروا هذه البلاد بفضائلهم ومآثرهم وصيروها جنة زاخرة بالعلوم والآداب ولقنوا المصريين تلك الدروس العالية فى الصحافة والتأليف والترجمة ، وبعد ما كانوا فينا سفراء خير بين المدنية الغربية والمدنية الشرقية ، يأخذون من كمال الاولى ليتمموا ما نقص من الاخرى ، وبعد ما علموا المصرى كيف ينشط للعمل وكيف يجد ويجتهد فى سبيل العيش وكيف يثبت ويتجلد فى معركة الحياة

قضوا بيننا تلك البرهة من الزمان يحسنون الينا فنسيء اليهم ، ويعطفون علينا فنسميهم تارة دخلاء ، وأخرى

ثقلاء ، كانما كنا نحسب أنهم قوم من شذاذ الآفاق أو نفايات الامم جاءوا الينا يصادروننا فى أرزاقنا ، ويتطفلون على موائدنا ، ولو أنصفناهم لعرفناهم ، وعرفنا أن أكثرهم من بيوتات المجد والشرف ، وانما ضاقت بهم حكومة الاستبداد ذرعا ، وكذلك شأن كل حكومة مستبدة مع أحرار النفوس وأباة الضيم ؛ فأحرجت صدورهم ، وضيقت عليهم مذاهبهم ، ففروا من الظلم تاركين وراءهم شرفا ينعاهم ، ومجداً يبكى عليهم ، ونزلوا بيننا ضيوفاً كراماً ، وأساتذة كباراً ، فما أحسنّا ضيافتهم ، ولا شكرنا لهم نعمتهم

وبعد فقد مضى ذلك الزمن بخيره وشره ، وأصبحنا اليوم كلما ذكرناهم خفقت أفئدتنا مخافة أن يلحق باقيهم بماضيهم ، فلا نعلم أنشكر للدستور أن فرج عنهم كربتهم ، وأمنهم على أنفسهم ، وردهم الى أوطانهم ، أم ننقم منه أنه كان سبباً فى حرماننا منهم بعد أُنسنا بهم ، واغتباطنا بحسن عشرتهم ، وجميل مودتهم ، ولا ندرى هل نحن بين يدى

هذا النظام العثمانى الجديد فى هناء أم فى عزاء

فيا أيها القوم المودعون ، والكرام الكاتبون

اُذكرونا مثل ذكرانا لكم
رب ذكرى قربت من نزحا
واذكروا صبا اذا غنى بكم
شرب الدمع وعاف القدحا



الزوجتان

حدثني أحد الاصدقاء قال : سأقص عليك قصة ليست من خيالات الشعراء ولا أكاذيب القصاصين

أويت الى مضجعي في ليلة من ليالى الشتاء حالكة الجلباب ، غدافية الاهاب ، فما استقبلت أول طليعة من طلائع النوم حتى قُرع باب غرفتى فتسمعت فاذا الخادم تقول : إن امرأة سيئة الحال رثة الثياب فى زى المتسولات تلح فى طلب مقابلتك وتقول إن لها عندك شأناً ، فقلت في نفسى لا شأن لى مع امرأة وربما كانت ذات حاجة وكانت حاجتها إلىّ أكثر من حاجتى الى النوم ، على أن النوم لا يفوتنى ، فليل الشتاء ، أطول من يوم القضاء، فارتديت ردائى ونزلت فاذا فتاة فى ملاءة بالية وخمار خَلَق

ينم بجمالها كما ينم السحاب المتقطع بضوء الشمس ، واذا هي تُرعد وتضطرب وتقول بصوت شجيّ : أما في الناس أخو همة ومُروءة يعين على الدهر الغادر ويطفئ هذه الجذوة التي تتأجج بين أضالعي بقطرة واحدة من الرحمة ، فقلت من أنت يرحمك الله ، قالت أنا فلانة زوج فلان ، فَدَهِشت وغَصَصت بريقي حتى ما أجد بِلة أحرك بها لساني لهول ما سمعت ، وسوء ما رأيت ، وقلت ياللعجب ! زوجُ فلان على عظمه وعظمها ، وجلاله وجلالها ، تخرج في مثل هذه الساعة في مثل هذه البِزّة ، وسألتها ماشأنك ياسيدتي ومم تبكين ، قالت لا تحدث نفسك بريبة ولا تذهب بك الظنون مذاهبها فوالله ما جئت اليك تحت ستر الليل الا وأنت أوثق الناس عندي ، وأرفعهم في عيني ، ولولا شدة أقلقت مضجعي وفرقت ما بين جفنيّ والكرى ما خضت اليك سواد الليل في مثل هذه الساعة ولا احتملت في سبيل ذلك ما احتملت ، قلت عهدي بسيدتي رخية البال

ناعمة العيش سعيدة الحظ بزوج عذب الأخلاق كريم السجايا لا يؤثر هوى نفسه على هواك ولا يعدل بك أحداً، قالت إنك تقص على حديث الأمس وقد مضى به الفلك الدائر، والكوكب السيار، فاستمع منى حديث اليوم

أظنك تذكر تاريخ زواجى منه وانه كان منذ ثلاثة أعوام وأن أبي قد آثره وفضله على جميع الخاطبين اليه من علية القوم وجلتهم وأنا لا ألومه على ذلك رحمة الله عليه فما أراد بى شراً ولا اعتمد أن يسئ الاختيار لى ولكنه كان رجلا طيب السريرة طاهر القلب نخدعه الخادعون عنى، ومن ذا الذى لا يخدع بشاب متعلم مهذب من ذوي المناصب الكبيرة والرتب العالية ، وكيفما كان الامر فقد تم عقد الزواج بيننا فاغتبطت به واغتبط بى برهة من الزمان حسبتها دائمة لا انقطاع لها حتى يفرق بيننا الموت، وكنت امرأة أجمع فى نفسي جميع ما يمت به النساء الى الرجال، فما خنته ولا ضقت ذرعاً به ، ولا قطبت فى وجهه مرة، ولا أتلفت له مالا،

ولا نقضت له عهداً، فجازاني بالاحسان سوءًا ،وكفر بنعمة الله بعد الايمان ، وخان ودى ، ونقض عهدى ، لا لذنب جنيته ، أو وصمة يصمني بها ، ولكنه رجل ملول متبرّم ، ولا تغضب ياسيدى إن قلت لك إن قلب الرجل متقلب متلون يسرع الى البغض كما يسرع الى الحب ، وإن هذه المرأة التي تحتقرونها وتزدرونها وتضربون الامثال بخفة عقلها وضعف قلبها أوثق منه عقدا ، وأمتن ودا ، وأوفى عهدا ، ولو وفى الزوجُ لزوجته وفاءها له ما استطاع أن يفرق بين قلبيهما الا ريب المنون ، قلت أنا لا أغضب لشيء الا للانسانية أن يخفر ذمامها ، وينقض عهدها ، ثم ماذا تم بعد ذلك ، قالت مات أبي كما تعلم وخلف لي مالا أمكنت منه زوجي فأتلفه بين الخمر والقمر ، فكنت أُغضي على ذلك رحمة به وشفقة عليه واستبقاء لوده ، حتي اذا صفرت يدى وأقفر ربعي أحسست منه مللا كان يدعوه الى سوء عشرتي وتعذيب جسمي ونفسي ، وكان كثيراً

ما يتهكم بى ويقول إنى لاأحب المرأة الجاهلة التى لا تفهمنى ولا افهمها ، وآونة كان يعرض بى قائلا إن الرجل السعيد هو الذى يرزق زوجة متعلمة تقرأ له الجرائد والمجلات ، وتتبسط معه فى الشؤون الاجتماعية والسياسية ، بل يتجاوز التعريض أحياناً الى التصريح فيقول كلما دخل على متأففاً متذمراً ، ليت لى زوجة كفلانة فانها تحسن الرقص والغناء والتوقيع على الآلات الموسيقية فكنت أشك فى سلامة عقله وأقول فى نفسى كيف يفضل الزوجة المتبذّلة المستهتَرة على الحييّة المحتشمة ، ووالله ما تمنيت مرة أن أكون على الصفة التى يحبها ويرضاها مع ما كنت أبذل فى رضاه من ذات اليد وذات النفس ، وبعد فما زال الملل يدب فى نفسه دبيب الصهباء فى الاعضاء حتى تحول الى بغضاء شديدة ، فما كان يلحظنى الا شزراً ، ولا يدخل المنزل الا لتناول غرض أو قضاء حاجة ثم يخرج لشأنه ، فكنت أحتمل كل هذا بقلب صبور ، وجنان وقور ، حتى عرض له

بعد ذلك أن نُقل الى منصب أرقى من منصبه فى بعض بلاد الاقاليم فسافر وحده وتركنى فى المنزل وحيدة لا مؤنس لى غير طفلتى فلبثت أترقب كتابا منه يدعونى فيه الى اللحاق به فما أرسل كتابا ولا رسولا ولا نفقة ، فاستكتبت اليه الكتابَ بعد الكتاب فما أسلس قياده ، ولا طاوع عناده ، فسافرت اليه مخاطرة بنفسى غير مبالية بغضبه لأعلم غاية شأنه معه ، فما نزلت من القطار حتى قيض الله لى من وقفنى على حقيقة أمره وأعلمنى أنه تزوج من فتاة متعلمة تقرأ له الجرائد والروايات وتفاوضه فى المسائل الاجتماعية والسياسية وتحسن الرقص والغناء والتوقيع على القطع الموسيقية فداخلنى من الهم ما الله به عليم ، وجزعت ولكن أىُّ ساعةِ مجزع ، ولا أظن الا أن العدل الآلهى سيحاسبه على كل قطرة من قطرات الدموع التى أرقتها فى هذا السبيل حساباً غير يسير .

وكأنه شعر بمكانى ألجاء الى يتهددنى ويتوعدنى فتوسلت

اليه ببكاء طفلته التى كنت أحملها على يدى وذكرته بالعهود والمواثيق التى تعاقدنا عليها وذهبت فى استعطافه واستيدنائه كل مذهب فكنت كأنى أخاطب ركوداً صماء[1]، أو أستنزل أبود أعصماء[2]، ثم طردنى وأمر من حملنى الى المحطة فعدت من حيث أتيت

فما وصلت الى المنزل حتى خلعت ملابسى ولبست هذه الثياب وجئتك متنكرة فى ذمام الليل لانى وحيدة فى هذا العالم لاقريب لى ولا حميم ولانى أعلم كرمك وهمتك ومابينك وبين ذلك الرجل من الود والاتصال عسى أن ترى لى رأياً فى التفريق بينى وبينه علنى أجد فى فضاء الحرية منفذاً كسم الخياط أرتشف منه ما أتبلغ به أنا وطفلتى حتى يبلغ الكتاب أجله

فأحزننى من أمر تلك الفتاة البائسة ما أحزننى، ووعدتها

---

(١) الركود من الركود وهو الثبات والسكون . والصخرة الصماء الصلبة المصمتة (٢) أبدت البهيمة توحشت ، والعصماء من الظباء التى فى ذراعيها بياض وسائرها أسود

بالنظر فى أمرها بعد أن هونت عليها بعض أحزانها ولواعجها ، فعادت الى منزلها وعدت الى مضجعى أفكر فى هذه الحادثة الغريبة وقد اكتنفنى همان ، هم تلك البائسة التى لم أر فى تاريخ شقاء النساء قلباً أشقى من قلبها ، ولا نجماً أنحس من نجمها ، وهم ذلك الصديق الذي ربحته سنين عدة وخسرته فى ساعة واحدة ، فقد كنت أغبط نفسى عليه فأصبحت أعزيها عنه ، وكنت أحسبه إنساناً فاذا هو ذئب عملّس [1] تستره الصورة البشرية وتواريه البشاشة والابتسام

هذا ما قصه على ذلك الصديق الكريم ، ثم لم أعد أعلم بعد ذلك ما تم من أمره مع تلك الفتاة المسكينة ولا ماتم من أمرها مع زوجها حتى جاءنى منه أمس ذلك الكتاب بعد مرور عام على تلك القصة الغريبة ، وهذا نصه

(١) العملس السريع

سيدى

يهمنى كثيراً أن أرى بين كتب التهنئة التى ترد إلى كتاباً منك لأسر بمشاركتك إياى فى سرورى وهنائى

إنك لابد تذكر تلك القصة التى كنت قصصتها عليك منذ عام فى شأن تلك الفتاة البائسة التي خانها زوجها « فلان » وغدر بها وهجرها إلى أخرى غيرها بعد ما جردها مما كانت تملك يدها وما كان من أمر مجيئها عندى وبث شكواها إلى وربما كنت لا تعلم بما كان من أمرها بعد ذلك فاعلم أنها دفعت زوجها الى موقف القضاء فضاق بأمرها ذرعاً فطلقها وكنت أفكر في ذلك التاريخ كما تعلم فى الزواج من زوج صالحة أجد السعادة فى العيش بجانبها وما كنت لأجد زوجة أشرف نفساً ولا أكرم عنصراً ولا أذكى قلباً منها ، فتزوجتها فأمتعت نفسى بخير النساء ، وأنقذت الانسانية المعذبة من شقوتها وبلائها ، وأبشرك أن الله قد انتقم لهذه الفتاة المظلومة من ذلك الرجل الظالم

انتقاماً شديداً ، فقد حدثني من يعلم دخيلة أمره أنه يعاني اليوم من زوجه الجديدة الموت الأحمر ، والشقاء الأكبر ، وأنها امرأة قد أخذت التربية الحديثة من نفسها مأخذاً عظيماً فحولتها إلى فتاة غربية في جميع شؤونها وأطوارها ، والرجل المصري شرقي بفطرته كائناً من كان ، أما غربيته فهي متكلفة متعملة يدور بها لسانه ، ولا أثر لها في نفسه ، فهو يقاسي من تلك المرأة الخرقاء ، أضعاف ما كانت تقاسيه منه أشرف النساء ، والسلام

فى سبيل الاحسان

الاحسان شيء جميل وأجمل منه أن يحل محله ، ويصيب موضعه

الاحسان فى مصر كثير ، ووصوله الى مستحقه وصاحب الحاجة اليه قليل ، فلو أضاف المحسن إلى إحسانه إصابة الموضع فيه لما سمع سامع فى ظلمة الليل شكاة بائس ولا أنة محزون

ليس الاحسان هو العطاء كما يظن عامة الناس ، فالعطاء قد يكون نفاقا ورياء ، وقد يكون أحبولة ينصبها المعطي لاصطياد النفوس وامتلاك الأعناق ، وقد يكون رأس مال يتجر فيه صاحبه ليبذل قليلا ويربح كثيراً

إنما الاحسان عاطفة كريمة من عواطف النفس تتألم

لمناظر البؤس ومصارع الشقاء ، فلو أن جميع مايبذله الناس من المال ويسمونه إحسانا صادر عن تلك العاطفة الشريفة لما تجاوز محله، ولا فارق موضعه .

فوضى الاحسان

الأحسان فى مصر فوضى لا نظام له ، يناله من لا يستحقه ،ويحرم منه مستحقه ، فلا بؤساً يرفع ، ولا فقراً يدفع ، فمثله كمثل السحاب الذى يقول فيه أبو العلاء

ولو ان السحاب همى بعقل   لماأروى مع النخل القَتادا [١]

الأحسان فى مصر أن يَدخل صاحب المال ضريحاًمن أضرحة المقبورين فيضع فى صندوق النذور قبضة من الفضة أو الذهب ربما يتناولها من هو أرغد منه عيشاً،وأنعم بالا ، أو يهدى ما يسميه نذراً من نَعم وشاء الى دفين فى قبره قد شغله عن أكل اللحوم والتفكه بها ذلك الدود الذى يأكل لحمه ، والسوس الذى ينخُر عظمه ، وما أهدى

(١) القتاد شجر صلب له شوك لا فائدة منه

شاته ولا بقرته لو يعلم الا الى « وزارة الأوقاف » وكان خيراً له أن يهديها الى جاره الفقير الذى يبيت ليله طاويا يتشهى ظِلفاً [1] يمسك رمقه ، أو عُرقوبا يطفئ لوعته

وأعظم ما يتقرب به محسننا الى الله ويحسب أنه باغ من البر والمعروف غايتيهما أن ينفق بضعة آلاف من الدنانير فى بناء مسجد للصلاة فى بلد مملوء بالمساجد ، حافل بالمعابد ، وفى البلد كثير من البائسين وذوى الحاجات ، يَنشدون مواطن الصِلات، لاأماكن الصلوات ، أو يبنى بنية ضخمة فخمة مرفوعة القباب ، فسيحة الرحاب ، مموهة الجوانب والأركان ، مذهبة السقوف والجدران ، يسميها «سبيلا» ولا يهولنك هذا الاسم الضخم فكل مافى الأمر أن السبيل مكان يشتمل على حوض من الماء ربما لا يكون بينه وبين ماء النهر الا بضع خطوات ، على أن الماء كالهواء ، ملء الارض والسماء ، أو يقف الضياعَ

(١) ظلف البقره ظفرها

الواسعة من الارض لتُنفق غلتها على أقوام من ذوى البطالة والجهالة نظير انقطاعهم لتلاوة الآيات ، وترديد الصلوات ، وقراءة الأحزاب والأوراد ، وهو يحسب أنه أحسن اليهم ، ولو عرف موضع الأحسان لأحسن اليهم بقطع ذلك الاحسان عنهم علهم يتعلمون صناعة أو مهنة يرتزقون منها رزقاً شريفاً ، فان كان يظن أنه يعمل فى ذلك عملا يقربه إلى الله فليعلم أن الله تعالى أجل من أن يعبأ بعبادة قوم يتخذون عبادته سلماً إلى طعام يطعمونه ، أو درهم يتناولونه ، أو يفتح أبواب منزله لهؤلاء المحتالين المتلصصين الذين يسمونهم مشايخ الطرق ، ولو أنصفوهم لسموهم قطاع الطرق ، ولا فرق بين الفريقين الا أن هؤلاء يتسلحون بالبنادق والعِصىّ ، وأولئك يتسلحون بالسُبح والمساويك ، ثم يسقطون على المنازل سقوط الجراد على المزارع فلا يتركون صادحاً ولا باغماً ، ولا خُفاً ولا حافراً ، ولا

شيئاً مما تنبت الأرض من بقلها وقِثائها وفومها وعدسها وبصلها الا أتوا عليه

أسوأ الاحسان

لم أر مالا أضيع ولا عملا أخيب ولا إحسانا أسوأ من الاحسان إلى هؤلاء المتسولين الذين يطوفون الارض ويقلبونها ظهراً لبطن ويجثمون فى مفارق الطرق وزوايا الدروب وعلى أبواب الاضرحة والمزارات يُصمون الاسماع بأصواتهم المزعجة ، ويُقذون النواظر بمناظرهم المستبشعة ، ويزاحمون بمناكبهم الفارس والراجل ، والجالس والقائم ، فلو أن نجماً هوى إلى الارض لهووا على أثره ، أو طائراً طار الى الجو لكانوا قوادمه وخوافيه[1]

وإن شئت أن تعرف المتسول معرفة حقيقية لتعرف هل يستحق عطفك وحنانك وهل ما تسديه اليه من المعروف تسديه الى صاحب حاجة فاعلم أنه فى الأعم الاغلب من أحواله رجل لا زوجة له ولا ولد ينفق عليهما ، ولا

(١) القوادم الريشات التى فى مقدم الجناح والخوافى التى اذا ضم الطائر جناحيه خفيت .

مسكن له يحتاج إلى مُؤن ومرافق ، ولا شهوة له في مطعم أو مشرب أو ملبس ، حتى لو علم أن الانقطاع عن ذلك الخسيس من الطعام والقذر من الشراب لا يقعده عن السعي في سبيله لانقطع عنه ، وهو لو شاء أن يتزوج أو يتخذ له مأوى يأوى اليه لفعل، ولوجد في حرفته متسعاً لذلك ، ولكنه الحرص قد أفسد قلبه وأمات نفسه ، فهو يتوسل بأنواع الحيل وصنوف الكيد ليجمع مالا لا فائدة له من جمعه ، ولا نية له في إصلاح شأنه به اذا اجتمع عنده منه ما يقوم له بذلك، بل ليدفنه في باطن الارض حتى يُدفن معه، أو لينظمه في سلك مرقعته حتى يرثه الغاسل من بعده ، ولقد يبلغ به الحرص الدنيء والشره السافل أن يحمل في سبيل المال مالا يستطيع مجاهد أن يحمل في سبيل الله، فيتعمد قطع يده أو ساقه أو إتلاف عينيه أو إحداهما ليستعطف القلوب عليه ، وكثيراً ما يحسد صاحبه اذا رآه أكثر منه دمامة وأعظم تشويهاً ، كما يحكى أن شحاذاً

مقطوع الساق قد وضع مكانها أخرى من الخشب تقابل مع آخر كفيف البصر فتنافسا فى مصيبتيهما أيتهما أقذى للأعين وأقتل للنفوس وأجلب للرحمة والشفقة ، فقال الاول للثاني. لقد وهبك الله نعمة العمى ومنحك بسلب ناظريك أفضل حبالة لاصطياد القلوب ، واستفراغ الجيوب ، فقال له صاحبه وأين يبلغ العمى من هذه القدم الضخمة الثقيلة التى تجلب فى كل عام وزنها ذهباً

إن أكبر جريمة يجرمها الانسان الى الانسانية أن يساعد هؤلاء المتسولين بما له على الاستمرار فى هذه الخطة الدنيئة فيغرى كل من شعر فى نفسه بالميل الى البطالة وإيثار الراحة بالسعى على آثارهم ، والاحتراف بحرفتهم ، فكأنه قطع من جسم الانسانية عضواً كاملا ، لو لم يقطعه لكان عضواً عاملا ، وكأنه هدم بعمله هذا جميع المساعى الشريفة التى بذلها الانبياء والحكماء قروناً عديدة لاصلاح

المجتمع الانسانى وتهذيب أخلاقه وتخليصه من آفات الجمود والخمول، فهل رأيت معروفا أقبح من هذا المعروف، وإحسانا أسوأ من هذا الاحسان

تنظيم الاحسان

ليست كمية المال التى ينفقها المحسنون فى سبيل الاحسان مما يستهان به، فلو قال قائل إنها تبلغ فى مصر وحدها كل عام مليونا من الذهب لما أخطأ التقدير

سألت رجلا من وجوه الريفيين المعروفين بالبر والاحسان عن كمية ماينفقه كل عام فى هذا السبيل فأطلعنى على جريدة حسابه فرأيتها هكذا

جنيه

١٠ ولائم لمشايخ الطرق

٦٠ ليالى فى موالد البيومى والعفيفى والدشطوطى

٧٢ مرتبات قراءة القرآن والدلائل والصلوات فى مسجده ومنزله

٣٠ هبات لجماعة الطوافين فى البلاد الذين يستجدون باسم المجد القديم والشرف الداثر

١٨ صدقات للمتسولين على تقدير خمسة قروش يومياً تقريباً

١٠ توضع فى صناديق الاضرحة

٤٠ ثمن خبز ولحم وملابس توزع فى المواسم الدينية

---

٢٤٠ المجموع

فهذه أربعون ومائتا جنيه ينفقها فى سبيل الاحسان رجل واحد من متوسطى الثروة فى عام واحد ، وفى مصر مئات مثله وعشرات يزيدون عليه وآلاف يقلون عنه ، فلا غرابة فى أن يقدر هذا النوع من الاحسان بمليون جنيه ينفقه منفقوه على غير شئ سوى إغراء الكسلان بكسله ، وحمل العامل على ترك عمله ، وفى اعتقادى لو أن هذا المقدار حل من الاحسان محله ، وأصاب منه موضعه ، وأنفق فى سبيل الخير النافعة، ووجوه البر الحقيقية، لارتقى بالامة

المصرية الى ذروة الكمال ، ولكان له الأثر الجليل فى وصولها الى ما تتطلع اليه من هناء العيش وسعادة الحياة

لذلك أقترح فى تنظيم الاحسان اقتراحا نافعاً وأدعو الكاتبين الذين لا مصلحة لهم فى اثارة الخواطر وتهييج النفوس وضرب الناس بعضهم ببعض أن يساعدوني بأقلامهم على تحقيق ما أتمناه فى هذا المقترح المفيد

أقترح أن يقوم جماعة من سراة الأمة ووجوهها وأصحاب الرأى فيها بتأليف مجتمع فى القاهرة يسمى « مجتمع الاحسان » ويكون له فى كل مدينة من مدائن الاقاليم فرع تابع له

أما أعماله التى أحب أن يقوم بها بالاتحاد مع فروعه فهى ثلاثة

١ — استخدام فريق من مهرة الكتاب وفصحاء الخطباء يقومون بتعليم أفراد الأمة بكل واسطة من وسائط النشر وبكل وسيلة من وسائل التأثير معنى الاحسان ،

وما هو الغرض منه ، وماهى أفضل وجوهه ، وأى أنواعه أجمع لخيرى الدنيا والآخرة

ب — بذل الجهد فى حمل الناس على اعتبار مجتمع الاحسان هذا بيت مال لهم أو وكالة عامة عنهم تتولى جمع الصدقات منهم وتوزيعها على مستحقيها ، وحسبها أن تأخذ من كل فرد فى كل عام مجموع ما يحسن به عادة فى ذلك العام ، فلا يكون بعد ذلك مأخوذاً بشىء من الاحسان أمام ربه وأمام أمته أكثر مما قدمه لهذا المجتمع

ج — إنفاق ما يجتمع من المال على تربية اليتامى الذين لا كاسب لهم ، والقيام بأود العاجزين عن الكسب ، وتفقدُ شؤون الذين نكبهم الدهر وتنكر لهم بعد العز والنعمة وصيانةُ ماء وجوههم أن تراق على تراب الأعتاب ، والانفاق على تعليم من يتوسم فيهم الذكاء والفطنة ويرجى أن تنتفع بهم الأمة فى مستقبلها من أبناء الفقراء ، الى أمثال هذه الاعمال الخيرية الشريفة التى لا يتحقق الاحسان

بدونها ، ولا ينصرف معناه الا اليها

أنا أعتقد اعتقاداً لا ريب فيه أن من يخطو الخطوة الاولى فى سبيل هذا العمل الجليل ومن يضع الحجر الاول في بناء مجتمع الاحسان ، هو أفضل عامل فى الوجود وأشرف انسان

أدب المناظرة

أنا لا أقول الا ما أعتقد، ولا أعتقد الا ما أسمع صداه من جوانب نفسي، فربما خالفت الناس فى أشياء يعلمون منها غير ما أعلم ، ومعذرتى اليهم فى ذلك أن الحق أولى بالمجاملة منهم ، وأن فى رأسى عقلا أجله عن أن أنزل به الى أن يكون سَيقة [1] للعقول ، وريشة فى مهاب الاغراض والاهواء

فهل يجمل بعد ذلك بأحد من الناس أن يرمينى بجارحة من القول أو صاعقة من الغضب لأنى خالفت رأيه أو ذهبت غير مذهبه أو أنْ يرى انّ له من الحق فى حملى على مذهبه، أكثر مما يكون لى من الحق فى حمله على مذهبى

(١) السيقة مايساق سوقا ومنه إنما ابن آدم سيقة يسوقه الله

لا بأس أن يؤيد الانسان مذهبه بالحجة والبرهان ، ولا بأس أن ينقض أدلة خصمه ويزيفها بما يعتقد أنه مبطل لها ، ولا ملامة عليه فى أن يتذرع بكل ما يعرف من الوسائل الى نشر الحقيقة التى يعتقدها إلا وسيلة واحدة لا أحبها له ولا أعتقد أنها تنفعه أو تغنى عنه شيئاً ، وهى وسيلة الشتم والسباب.

إن لأخلاص المتكلم تأثيراً عظيما فى قوة حجته وحلول كلامه المحل الأعظم من القلوب والافهام ، والشاتم يعلم عنه الناس جميعاً أنه غير مخلص فيما يقول ، فعبثاً يحاول أن يحمل الناس على رأيه ، أو يقنعهم بصدقه ، وإن كان أصدق الصادقين

أتدرى لم يسب الانسان مناظره ؟ لأنه جاهل وعاجز معاً ، أما جهله فلأنه يذهب في واد غير وادى مناظره وهو يظن أنه فى واديه ، ولانه ينتقل من موضوع المناظرة الى البحث في شؤون المناظر وأطواره وصفاته

وطبائعه كانّ كل مبحث عنده مبحث « فسيولوجى » ، وأما عجزه فلانه لو عرف الى مناظره سبيلا غير هذا السبيل لسلكه ، وكفى نفسه مؤونة ازدراء الناس إياه وحماها الدخولَ في مأزق هو فيه من الخاسرين محقاً كان أم مبطلا

لا يجوز بحال من الاحوال أن يكون الغرض من المناظرة شيئاً غير خدمة الحقيقة وتأييدها ، وأحسب أن لو سلك الكتاب هذا المسلك فى مباحثهم لاتفقوا على مسائل كثيرة هم لا يزالون مختلفين فيها حتى اليوم ، وما اختلفوا فيها الا لانهم فيما بينهم مختلفون ، يسمع أحدهم الكلمة من صاحبه ويعتقد أنها كلمة حق لا ريب فيها ولكن يبغضه فيبغض الحق من أجله فينهض للرد عليه بحجج واهية وأساليب ضعيفة وان كان هو قويا فى ذاته ، لان القلم لا يقوى الا اذا استمد قوته من القلب ، فاذا عيَّ بالحجج والبراهين لجأ الى المراوغة والمهاترة ، فيقول لمناظره مثلا إنك جاهل لا يعتد

برأيك ، أو إنك مضطرب الرأي لاثبات لك تقول اليوم غير ماقلت بالأمس ، وهنالك يقول له الناس رويداً لاتخلط فى كلامك ، ولا تراوغ فى مناظرتك ، ولاشأن لك بعلم صاحبك أوجهله ، فانه يقول شيئاً فان كان صحيحاً فسلم به، أو باطلا فبين لنا وجه بطلانه ، وهبه قولا لاتعلم قائله ، ولا شأن لك باضطراب صاحبه وثباته ، فربما كان بالأمس على رأى تبين له خطؤه اليوم ، والمرء يخطئ مرة ويصيب ، فاذا ضاق بمناظره وبالناس ذرعاً فر الى أضعف الوسائل وأوهنها فسب مناظره وشتمه وذهب فى التمثيل به كل مذهب ، فيسجل على نفسه الفرار من تلك المعركة والخذلان فى ذلك الميدان

على أن أكثر الناس متفقون على ما يظنون أنهم مختلفون فيه ، فان لكل شيء جهتين ، جهة مدح وجهة ذم ، فاما أن تتساويا، أو تكبر إحداهما الاخرى ، فان كان الاول فلا معنى للاختلاف ، وإن كان الثاني وجب على

المختلفين أن يعترف كل منهما لصاحبه ببعض الحق، لا أن يكون كل منهما من سلسلة الخلاف فى طرفها الأخير

كان يقع بين ملك من الملوك ووزيره خلاف فى مسائل كثيرة حتى يشتد النزاع بينهما وحتى لا يسلس أحدهما لصاحبه فى طرف مما يخالفه فيه، فحضر حوارهما أحد الحكماء فى احدى الليالى وهما يتناظران فى المرأة، يعلو بها الملك الى مصاف الملائكة، ويهبط بها الوزير الى منزلة الشياطين، ويسرد كل منهما على مذهبه أدلته، فلما علا صوتهما واشتد لجاجهما خرج ذلك الحكيم وغاب عن المجلس ساعة ثم عاد وبين أثوابه لوح على أحد وجهيه صورة فتاة حسناء، وعلى الآخر صورة عجوز شوهاء، فقطع عليهما حديثهما وقال لهما أحب أن أعرض عليكما هذه الصورة ليعطينى كل منكما رأيه فيها، ثم عرض على الملك صورة الفتاة الحسناء فامتدحها ورجع الى مكان الوزير وقد قلب اللوح خلسة من حيث لا يشعر واحد منهما بما يفعل وعرض

عليه صورة العجوز الشمطاء فاستعاذ بالله من رؤيتها وأخذ يذمها ذماً قبيحاً ، فهاج غيظ الملك على الوزير وأخذ يرميه بالجهل وفساد الذوق وقد ظن أنه يذم الصورة التى رآها هو، فلما عادا إلى مثل ما كانا عليه من الخلاف الشديد استوقفهما الحكيم وأراهما اللوح من جهتيه فسكن ثائرهما وضحكا ضحكاً كثيراً ، ثم قال لهما هذا ما أنتم فيه منذ الليلة ، وما أحضرت اليكم هذا اللوح إلا لاضربه لكما مثلا لتعلما أنكما متفقان فى جميع ما كنتما تختلفان فيه لو انكما تنظران إلى المسائل التى تختلفان فيها من جهتيها ، فشكرا له همته، وأثنيا على فضله وحكمته ، وانتفعا بحيلته انتفاعاً كثيراً، فما كانا يختلفان بعد ذلك الا قليلا

الاحسان فى الزواج

ورد إلى فى البريد هذا الكتاب بهذا التوقيع

حضرة السيد الفاضل

ضمنى وجماعة من الأصدقاء مجلس جرى فيه الحديث عن صديق لنا عرف امرأة من البغايا فاخذته الرأفة بها فتزوجها وكان القوم ما بين مستحسن لهذا العمل ومستهجن له وطالت مدة الجدل بيننا ساعات ولم يستطع أحد الفريقين أن يقنع الآخر برأيه فاتفق رأينا جميعاً على أن نكتب اليك بذلك علك تلقى على هذا الموضوع نظرة من نظراتك الصادقة والسلام

ف . س

أيها السائل الكريم

إن كان باعث الرجل على الزواج بهذه البغى شهوة يريد

قضاءها من أمرأة يعشقها ولا يرى له سبيلا إلى طول استمتاعه بها والاستئثار بحظه منها إلا هذا السبيل كما هو شأن الذين يتزوجون من البغايا فقد أخطأ خطأ جماً لان من كان هذا شأنه لا يعنيه إلا أمر نفسه ولا يشغله من شؤون تلك المرأة إلا الشأن الذى يرتبط بشهوته، ويتعلق بلذته، وآية ذلك أنه لا ينظر بعد اتصاله بها فى إصلاحها، ولا يحاول أن ينزع من بين جنبيها ملكة الفساد الراسخة فى نفسها ، ولا يداخلها مداخلة المؤدّب المهذب الذى يصور فى نظرها معيشة الفساد بصورة تنفر منها وتشمئز لها ، بل لا يكفيها مؤونة العيش ولا يرفهها ولا يقلبها فى الرغد والنعمة إلا إذا شعر بأن فى قلبه بقية من الشغف بها ، فاذا أقفر قلبه من حبها وعلم أن فراقها لا يَهيج له وجداً ، ورجوعها إلى عيشها السالف لا يثير منه غيرة ، فارقها فراقا هادئاً مطمئناً لا يمازجه حزن على فسادها ، ولا يخالطه أسف على سقوطها ، وهنالك تعود تلك

المسكينة إلى عشها الذى طارت منه وقد أمسكت بين جوانحها من الحقد والموجدة على معيشة الصلاح والاستقامة ما الله عالم به

فالرجل الذى يتزوج من البغى قضاء لشهوته وإيثاراً للذته، لا ينفعها ولا يحسن اليها، لانه لا يهذب نفسها، ولا يفي لها بما عاهدها عليه من البقاء معها، والاستمرار على عشرتها، بل يسيء اليها بسوء تصرفه معها فيبغّض اليها الصلاح ويحبب اليها الفساد، وعندى أنه فى عمله هذا فاسق لا متزوج، لانه لو لم ير أن الزواج وسيلة من وسائل الاستئثار والتوسع فى الاستمتاع ما سمى مهراً ولا عقد عقداً

فإن كان حقاً ما تقول من أن باعثه الى ذلك الرحمة والرأفة والحنان والشفقة فقد أحسن كل الاحسان، ولا أحسب أن بين أعماله الصالحة عملا هو أفضل عند الله ذخراً، وأعظم أجرا، من هذا العمل الصالح

العرض أثمن من الحياة فان كان من يمنح الحياة فاقدَها شريفاً فأشرف منـه من يرد العرض الضال الى صاحبه المفجوع فيه

ليت الرجال يتفقون جميعاً على أن يستنقذوا بهذه الوسيلة الشريفة كل امرأة ساقها فقرها وعدمها أو فقد عائلها الى البِغاء ، بل ليتهم يتفقون على الزواج منهن قبل أن تضيق بهن حلقات العيش فيسقطن

لم لا يكون بابا من أبواب الاحسان أن يتفقد المحسنون من الرجال الفقيرات من النساء فيتزوجوا منهن أو يزوجوهن من أولادهم وأقربائهم وإن لم يكنّ من ذوات الجمال أو ذوات النسب ، لانه احسان ، والاحسان لايجمل الا اذا أصاب موضعه من الشدة ومكانه من الشقاء

لو عرف المحسنون معنى الاحسان لعرفوا أن إنفاق الاموال على بناء التكايا والزوايا وتوزيعه على المتسولين والمتكففين ووقفه على القارئين والذاكرين لايدخر لهم

من المثوبة والاجر عند الله ما يدخره لهم الاحسانُ الى النساء ، بالعصمة من البغاء

البغاء للبغيّ شقاء ماجناه عليها إلا الرجل ، فجدير به أن يغرم ما أتلف، ويصلح ما أفسد

يهاجم الرجل المرأة ويعد لمهاجمتها ماشاء الله أن يمده من وعد كاذب ، وقول خالب ، وسحر جاذب ، حتى اذا خدعها عن نفسها ، وغلبها على أمرها ، وسلبها أثمن ماتملك يدها ، نفض يده منها ،وفارقها فراقا لالقاء بينهما من بعده

هنالك تجلس فى كِسر بيتها جلسة الكئيب الحزين مسبلة دمعها على خدها ، ملقية رأسها على كفها ، تفلى أناملها التراب ، لا تدرى أين تذهب ، ولا ماذا تصنع ، ولا كيف تعيش

تطلب العيش من طريق الزواج فلا تجد من يتزوجها ،

لأن الرجل يسميها ساقطة ، وتطلبه من طريق العمل فلا تجد ما تحسنه منه ، لأن الرجل أهمل شأنها ، فلم يعلمها من العلم ما تستعين به على ضائقة العيش ، وتطلبه من طريق التسول فلا تجده ، لأن الرجل يؤثر أن يمنحها القنطار حراما ، على أن يمنحها الدرهم حلالا ، فلا تجد لها بدًّا من أن تطلبه من طريق البغاء

فها أنت ذا ترى أن شقاء المرأة الساقطة روايةٌ من الروايات المحزنة ، وأن الرجل هو الذى يمثل جميع أدوارها ، ويظهر فى كل فصل من فصولها ، ومهما حال بيننا وبينه من ذلك الستار المسبل ، فانا لا نزال نعتقد أن الرجل غريمُ المرأة ، وأن حقاً عليه أن يؤدىَ دينه ، ويغرم أَرشَ[1] جنايته

إن أبى الرجل أن يتزوج المرأة بغيًّا فليحل بينها وبين البغاء ، ولا سبيل له إلى ذلك الا اذا اعتبر الزواج بابا من

(١) الارش دية الجراحات

أبواب الاحسان ، أى انه يتزوجها لها أكثر مما يتزوجها لنفسه ، وأحق النساء بالاحسان أولئك اللواتي سلبهن الله نعمة الجمال والمال ، وحلية الحسب والنسب ، فان أبى الا أن يتزوج من المرأة السعيدة ، فليذكر أنه هو الذى أخذ الشقية من يدها ، وساقها بنفسه الى مواطن الشقاء ، ورماها بيده فى هوّة الفسق والبغاء



لاهمجية فى الاسلام[1]

أيها المسلمون : ان كنتم تعتقدون أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق المسيحيين إلا ليموتوا ذبحاً بالسيوف وقصعاً بالرماح ، وحرقا بالنيران ، فقد أسأتم بربكم ظنا ، وأنكرتم عليه حكمته فى أفعاله ، وتدبيره فى شؤونه وأعماله ، وأنزلتموه منزلة العابث اللاعب الذى يبنى البناء ليهدمه ، ويزرع الزرع ليحرقه ، ويخيط الثوب ليمزقه ، وينظم العقد ليبدده

لم يزل الله سبحانه وتعالى مذ كان الانسان نطفة فى رحم أمه يتعهده بعطفه وحنانه ، ويمده برحمته وإحسانه ، ويرسل اليه فى ذلك السجن المظلم الهواء من منافذه ، والغذاء من مجاريه ، ويذود عنه آفات الحياة وغوائلها نطفة فعلقة فمضغة فجنينا فبشراً سوياً

(١) كتبت لمناسبة ما أشيع من هياج المسلمين على المسيحيين فى ولاية أطنه من ولايات الدولة العثمانية وقتلهم اياهم وتمثيلهم بهم فى عام ٩٠٩

إن إلهاً هذا شأنه مع عبده وهذه رحمته به واحسانه اليه محال عليه أن يأمر بسلبه الروح التى وهبه إياها ، أو يرضى بسفك دمه الذى أمده به ليجرى فى شراينه وعروقه لا ليسيل بين تلال الرمال ، وفوق شعاف الجبال

فى أى كتاب من كتب الله وفى أى سنة من سنن أنبيائه ورسله ، قرأتم جواز أن يعمد الرجل الى الرجل ، الآمن فى سربه ، القابع فى كسر بيته ، فينزع نفسه من بين جنبيه ، ويفجع فيه أهله وقومه ، لانه لا يدين بدينه ، ولا يذهب مذهبه فى عقائده

لو جاز لكل انسان أن يقتل كل من يخالفه في رأيه ومذهبه لاقفرت البلاد من ساكنيها ، وأصبح ظهر الأرض أعرى من سَراة أديم

ان وجود الاختلاف بين الناس فى المذاهب والاديان والطبائع والغرائز سنة من سنن الكون ، لا يمكن تحويلها ولا تبديلها ، حتى لو لم يبق على ظهر الأرض الا

رجل واحد لجرد من نفسه رجلا آخر يخاصمه وينازعه ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة

إن الحياة فى هذا العالم كالحرارة لا تنتج الا من التحاكّ بين جسمين مختلفين ، فمحاولة توحيد المذاهب والاديان محاولة القضاء على هذا العالم وسلبه روحه ونظامه

أيها المسلمون : ليس ما كان يجرى فى صدر الاسلام من محاربة المسلمين المسيحيين كان مراداً به التشفى والانتقام منهم ، أو القضاء عليهم ، وانما كان لحماية الدعوة الاسلامية أن يعترضها فى طريقها معترض أو يحول بينها وبين انتشارها فى مشارق الارض ومغاربها حائل ، أى ان القتال كان ذوداً ودفاعا ، لا تشفياً وانتقاما

وآية ذلك ان السّريّة من الجيش ما كانت تخطو خطوة واحدة فى سبيلها الذى تذهب فيه حتى يصل اليها أمر الخليفة القائم أن لا تزعج الرهبان فى أديرتهم ، والقساوسة فى صوامعهم ، وأن لا تحارب إلا من يقاومها ، ولا تقاتل

إلا من يقف فى سبيلها ، ولقد كان أحرى أن تُسفك دماء رؤساء الدين المسيحى وتسلب أرواحهم لو أن غرض المسلمين من قتال المسيحيين كان الانتقام منهم ، والقضاء عليهم

لو أنكم قضيتم على كل من يتدين بدين غير دينكم ، حتى أصبحت رقعة الأرض خالصة لكم ، لانقسمتم على أنفسكم مذاهب وشيعاً ، ولتقاتلتم على مذاهبكم تقاتل أرباب الأديان على أديانهم ، حتى لا يبقى على وجه الارض مذهب ولا متمذهب

أيها المسلمون : ما جاء الاسلام الا ليقضى على مثل هذه الهمجية والوحشية التى تزعمون أنها الاسلام

ما جاء الاسلام الا ليستل من القلوب أضغانها وأحقادها ثم يملؤها بعد ذلك حكمة ورحمة ، فيعيش الناس فى سعادة وهناء ، وما هذه القطرات من الدماء التى أراقها فى هذا السبيل الا بمثابة العمل الجراحىّ الذى يتذرع به الطبيب الى شفاء المريض

عذرتكم لو أن هؤلاء الذين تريقون دماءهم كانوا ظالمين لكم فى شأن من شؤون حياتكم، أو ذاهبين فى معاشرتكم والكون معكم مذاهب سوء تخافون مغبتها، وتخشون عاقبتها، أما والقوم فى ظلالكم والكون تحت أجنحتكم أضعف من أن يمدوا اليكم يد سوء، أو يبتدروكم ببادرة شر، فلا عذر لكم

عذرتكم بعض العذر لو لم تقتلوا الأطفال الذين لا يسألهم الله عن دين ولا مذهب قبل أن يبلغوا سن الحلم، والنساء الضعيفات اللواتى لا يحسنّ فى الحياة أخذاً ولا رداً، والشيوخ الهالكين الزاحفين وحدهم الى القبور قبل أن تزحفوا اليهم، وتتعجلوا قضاء الله فيهم

أمّا وقد أخذتم البرىء بجريرة المذنب فأنتم مجرمون لا مجاهدون، وسفاكون لا محاربون

من أى صخرة من الصخور أو هضبة من الهضبات نحتّم هذه القلوب التى تنطوى عليها جوانحكم، والتى

لا تروعها أنّات الثكالى ، ولا تحركها رنّات الأيامى

من أى نوع من أنواع الأحجار صيغت هذه العيون التى تستطيعون أن تروا بها منظر الطفل الصغير والنار تأكل أطرافه وتتمشى فى أحشائه على مرأى ومسمع من أمه وأمه عاجزة عن معونته لأن النار لم تترك لها يداً تحركها ، ولا قدما تمشى عليها

لا أستطيع أن أهنئكم بهذا الظفر والانتصار لأنى أعتقد أن قتل الضعفاء جبنٌ ومَعجزة ، وأن سفكَ الدماء بغير ذنب ولا جريرة وحشيةٌ أحرى أن يُعزّى فيها صاحبها ، لا أن يُهنأ بها

أيها المسلمون : اقتلوا المسيحيين ما شئتم وشاءت لكم شراستكم ووحشيتكم ، ولكن حذار أن تذكروا اسم الله على هذه الذبائح البشرية ، فالله سبحانه وتعالى أجلُّ من أن يأمر بقتل الأبرياء ، أو يرضى باستضعاف الضعفاء، فهو أحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين

البخيل

سألني سائل ماذا يستفيد الانسان من بخله حتى على نفسه وأى غرض يرمى اليه من ذلك، فأجبته بهذا الجواب

البخل إحدى الملكات النفسية ، والملكة صفة راسخة فى النفس تصدر عنها آثارها عفواً بدون روية ولا اختيار ، فكما لا يسئل المسرف عن سبب إسرافه ، والغاضب عن غايته من غضبه ، والحاسد عن غرضه من حسده ، كذلك لا يسئل البخيل عما يستفيده من بخله وحرصه ، فكثيراً ما تَعرض لارباب هذه الملكات عوارضُ تنزع بهم الى الرغبة عن التخلى عنها حيناً فلا يجدون الى ذلك سبيلا لمكان تلك الملكات من نفوسهم ونزولها منها منزلة لا تزعجها الرغبات ، ولا تزعزعها الارادات ، وربما عرض للبخيل ما يدفعه الى بذل شيء من ماله فاذا وضع يده فى كيسه

وحاول القبض على شيء مما فيه أحس كان تياراً كهربائياً قد سري من نفسه الى يده فتشنجت أعصابها وتصلبت أناملها وأعيت على الالتواء والانثناء فأخرجها صفراً كما أدخلها وبوده أن لا يفعل لولا أن للغريزة قوة فوق قوة الارادة وسلطانا تخضع له الرغبات وتنقاد اليه العقول الا اذا كان وراءها وازع من القانون يزعها ، فانه يكسر شِرتها أحيانا ، وإن لم ينتزعها انتزاعا

ويحكى أن شحيحاً تحركت فى قلبه يوماً الشفقة على ابنته الجائعة العارية فأراد نفسَه على أن يبذل لها شيأ من ماله فتأبت عليه فأذن لوكيله أن يختلس لها من ماله مايسد خلّتها من حيث لا يعلمه بذلك ولا يدعه ينتبه لشيء منه علماً بأنه لا يستطيع أن يكون كما يريد

فالوجه فى السؤال أن يقال ما هى الأسباب التى غرست ملكة البخل فى نفس البخيل فيكون الجواب عن ذلك إن الاسباب تختلف باختلاف الاشخاص

وأطوارهم وأخلاقهم وتربيتهم ، ونحن نذكر أهم تلك الاسباب من حيث ذاتها بقطع النظر عن افتراق ما يفترق منها واجتماع ما يجتمع

الأول — الوراثة — وهى وان كانت سبباً ضعيفاً لما يعرض للأخلاق الموروثة أحيانا من التغير والانقلاب بمعاشرة المتصفين باضدادها والتأثر بمخالطتهم الا أنها كثيراً ما تنمو وتتجسم اذا أُغفلت ولم يعترضها ما يسد سبيلها ويقف فى طريق نمائها

الثانى — التربية — إذا نشأ الطفل بين أهل أشحاء ولم يكن فى فطرته ما يقاوم سلطان التربية على نفسه أخذ إخذهم فى الحرص وتخلق فيه بأخلاقهم كما يتخلق بها فى العقائد والعادات من حيث لا يفكر فى استحسان أو استهجان كأنما هى عدوى الامراض التى تسرى الى الانسان من حيث لا يدرى بها ولا يشعر بسريانها ، ويحكى أن رجلا دخل منزلا يعرف أهله بالشح والحرص فرأى

طفلا صغيراً فى يده ليمونة صغيرة فطلب اليه أن يعطيه إياها فاجابه الطفل « إن يدك لا تسعها »

الثالث — سوء الظن بالله — ذلك أن المتدين اذا أخذت عقيدة القضاء والقدر من نفسه مأخذها رسخ فى قلبه الايمان بأن لله سبحانه وتعالى عيناً ساهرة على عباده الضعفاء فهو أرحم من أن يغفل شأنهم ويكلهم الى أنفسهم ويسلمهم لصروف الليالى وعاديات الايام ، فلا يلجُّ به الحرص على الجمع ، ولا يزعجه الخوف من البذل ، وعلى العكس منه ضعيف الايمان، ضعيف الثقة بواهب الأرزاق، ومقسم الحظوظ والجدود، فهو لسوء ظنه به لا يزال الخوف من الفقر نُصب عينيه حتى يصير البخل ملكة راسخة فيه

الرابع — النكبات — كثيراً ما تحل بالانسان نكبات تصهر قلبه وتزعج غريزته من مستقرها ، ومن ذلك النكبات التى يكون مرجعها قلة المال: كأن يقع الرجل فى خصومة يرى أنه لولا ضيق ذات يده لما وقع فى أمثلها ،

فكلما تمثلت له نكبته لج به الحرص وأغرق فى المنع حتى يصير ذلك غريزة فيه وخلقاً ثابتاً له ، ومن ذلك جديد النعمة الذى ذاق مرارة الفقر حقبة من الزمان وكابد منه ما كابد من الآلام والاوجاع فانه مهما حسنت حاله وانتعشت نفسه وفاضت خزائنه بالفضة والذهب لا تذهب من فمه تلك المرارة ولا تضيع من ذاكرته آلامها ، فلا يزال يتملك قلبه وسواس مقلق يخيل اليه مالا يتخيل، ويريه مالا يرى ، كمن تمثل له خيال الشيطان مرة فى أبشع صورة وأفظع شكل فهاله منظره ، وذهب الخوف منه برشده ، فلا يزال يراه فى كل مكان وزمان ، وفى حالتي الامن والخوف ، والوحشة والانس

الخامس — اللؤم — فان النفس إذا خبثت طينتها ولؤم طبعها كان من أخص صفاتها الحقد على الوجود بأجمعه وبغض الخير للناس قاطبة فكيف يمنحهم من ذات يده ما يزيده ألماً على ألم ، وخسرة فوق حسرة ،

وهو لو استطاع أن يمنع عنهم سارية السماء ويعترض دونهم نابتة الارض لفعل

السادس - سقوط الهمة - إذا نشأ الانسان عالى الهمة طموحا إلى المعالى محباً للذكر الحسن والثناء الجميل سهل عليه أن يبذل فى سبيل ذلك كل ما يستطيع بذله من ذات يده أو ذات نفسه ، وحب المجد أسال الذهبَ من خزائن الاغنياء ، وصير نفوس الشجعان نهباً مقسما بين شفرات السيوف ، وأسنة الرماح ، طلباً لسعادة الحياة بالذكر ، وسعادة الممات بالخلود ، فمن لساقط الهمة ضعيف النفس بدافع يدفعه الى بذل المال على مكانته الراسخة فى قلبه ، وامتزاج حبه بلحمه ودمه ، أيدفعه حب الثناء وهو لا يشعر بلذته ، أم خوف المذمة وهو لا يتألم منها ، ولا يحس بمرارتها ، أم سعادة الحياة وسعادة الممات ، وهو لا يفهم للسعادة معنى غير ما فهمه الزبرقان بن بدر حينما قنع على لسان الحُطيئة من المكارم بلقمة يمضغها ، وحلة يلبسها

السابع — فساد المجتمع الانسانى — ذلك أن كثيراً من الناس قد بلغ بهم حب المال والتعبد له أن صاروا يعظمون صاحبه لا لفائدة يرجونها، أو خير يطمعون فيه، بل لأنه ذو مال وذو المال فى نظرهم أحق الناس بالمحبة والاكرام والاجلال والاعظام، وان لم يحصلوا منه على طائل، فلو أنهم عبدوا الله سبحانه وتعالى بهذا النوع من العبادة ساعة واحدة لأصبحوا من عباده المقربين، فمن ذا الذى لا يحب من البخلاء ان ينال هذه المنزلة فى نفوس هؤلاء المتملقين وليس بينه و بينها الا الحرص على مافى يده، وهو عمل لا يتكلفه ولا يتعمل له، بل هو أشهى الاشياء اليه، وأكثرها ملاءمة لفطرته، ليزداد شرفا وعزاً، كلما ازداد بالحرص ثراء ووفراً، ومن هنا قال أحد البخلاء لأولاده يابنى لأَنْ يعلم الناس أن عند أحدكم مائة ألف درهم أعظم له فى أعينهم من أن يقسمها فيهم، وقال رجل لآخر يابخيل، فقال له لا أحرمنى الله بركة هذا الاسم، فانى لا أكون بخيلا الا إذا كنت غنياً، فسم لى المال ولقبنى بما تشاء

هذه هى أهم الاسباب التى تألفت منها رذيلة البخل ، فان أغفلنا النظر اليها وسلمنا للسائل صحة سؤاله عما يستفيده البخيل من بخله حتى على نفسه ، وفرضنا البخيل مختاراً فيما يفعل غير مساق الى هـذا المورد الوبيل بسائق الغريزة الفاسدة كان منالُ النجم أقرب من تطبيق حاله هذه على قاعدة من قواعد العقل ، لأن الله تعالى خلق الانسان وركب فيه رغبات وشهوات مختلفة بعضها نفسى والآخر جسدى ، فهو لا يزال يتطلبها مالم يعجز عنها ، فصاحب المال الكثير الذى يقنع بالشملة والمضغة ، والجرعة والظُلة ، ويحمل فى كل لحظة أشد الآلام من مقاومة نزوات نفسه ونزعاتها إلى ميولها ورغباتها ، لا يمكن أن يُحمل حاله على محمل العجز ، لانه قادر ، ولا على الزهد ، لانه ما زهد فيما لا ينفع فيزهدَ فيما ينفع ، ولا على الخوف من الفقر ، لأن عنده من المال ما يفنى الأعمار ، فهيهات أن يُفنيَه عمر واحد ؛ ولا على الرغبة

فى سعادة الذرية ، لان محبة الأب لولده لا يمكن أن تزيد على رغبته فى أن يراه شريكا له فى سعادته ، فأما أن يشقى هو فى حياته ، ليَسعدَ ولده بعد مماته ، فما لا يقبله العقل ، ولا يدخل فى دائرة من دوائر الفهم ، فلم يبق لنا الا أن نتوسل الى علماء النفس أن يأذنوا لنا بالتوسع فى تفسير معنى الجنون ، حتى لا يكون مقصوراً على المربدين والهاذين ، بل يكون شاملا للعايشين الذين لا يدرون ما يأخذون وما يدعون ، والذين يجلبون لأنفسهم بارادتهم واختيارهم آلاما نفسية هى أشد مما يجلبه المجانين على أنفسهم بمناطحة الجدران ، ومطاردة الصبيان ، كما نتوسل الى علماء الشرائع أن يضعوا قانونا لاستخراج المال من خزائن المقترين ، كما وضعوا قانوناً لحفظ المال فى صناديق المبذرين ، فان تبذير المال يضر قوما وينفع أقواما ، أما حبسه فيضر صاحبه ، ويضر معه الناس أجمعين

البعوض والانسان

جلست ليلة أمس الى منضدتي وعلقت قلمى بين أصابعى ، وأنشأت أفكر فى الموضوع الذى يجمل بى أن أكتب فيه ، وتلك عادتى التى يعرفها عنى كثير من خلطائى وعشرائى أننى لا أميل الى الكتابة في بياض النهار ، ولا أحب أن أخط حرفا على ما أحب وأرتضى الا فى ظلام الليل وهدوئه

ولا يظن المولعون باكتناه الحقائق واستشفاف الضمائر من اخواننا الفضوليين أنى أريد بذلك مراعاة النظير بين سواد المداد وسواد الظلام ، أو أننى أترقب طلوع النجم لأتسلق أشعته الى سماء الخيال ، فكل ذلك لم يكن ، وليس فى الناس من هو أدرى بدخيلة

أمرى منى ، وكل مافى المسئلة أن هذه عادتى ، وتلك طريقتى ، وكفى

لم أكد أفرغ من التفكير فى الموضوع حتى شعرت بطنين البعوض فى أذنى ، ثم أحسست بلذعاته فى يدى ، فتفرق من ذهنى ما كان مجتمعاً ، وتجمّع من همى ما كان مفترقا ، ولم أر بداً من إلقاء القلم وإعداد العُدّة لمقاومة هذا الزائر الثقيل

طاردته بالمذبّة فما أجدى ذلك نفعاً لانه على الطيران أقوى منى على المطاردة ، وفتحت النوافذ لاخرج ما كان داخلا ، فدخل ما كان خارجا ، وحاولت قتله فوجدته مبعثراً ، ولو كان مجتمعاً فى دائرة واحدة لهلك بضربة واحدة ، ولم أر فى حياتي أمة ينفعها تفرقها ويؤذيها تجمعها غير أمة البعوض ، فما أضعف هذا الانسان وما أضل عقله فى اغتراره بقوته ، واعتداده بنفسه ، واعتقاده أن فى يده زمام الكائنات يُصرّفها كيف يشاء ، ويسيرها كما يريد ، وأنه لو أراد

أن يَذهب بنظام هذا الوجود ، ويأتى لهُ بنظام جديد ، لما كان بينه وبين ذلك الا أَن يُرسل أشعة عقله دفعةً واحدةً ، ويشحذ سيف ذكائه ، ويبتعث عزيمته ، ويقتدح فكرته

يزعم ذلك وهو يعلم أنه أضعف من أن يحتال لنفسه فى مدافعة أصغر الحيوان جسما وعقلا ، وأدناها قيمة وشأنا ، بيد أنه يعلم ذلك بلسانه وفى فلتات وهمه ، ولو علمه علماً يتغلغل فى نفسه ، ويتمثل فى سويداء قلبه لكفكف من غُلوائه ، وخفّض من كبريائه ، وعلم علم اليقين أن الانسان العاقل والحيوان الملهم والنبات النامى والجماد الجامد سواء بين يدى القوة الالهية الكبرى ، التى لا ينفع معها حول ولا قوة

علمتُ أنى عَييتُ بأمر هذا الحيوان ، فلذْتُ بجانب الصبر ، والصبرُ كما يعلم معشر الصابرين حجة العاجز ، وحيلة الضعيف ، وأيسر ما يستطيع أن يدفع به دافعٌ عن نفسه ملامة اللائمين ، وفضول المتطفلين ، وقلت فى نفسى

لو كان البعوض يفهم ما أقول لقصصت عليه قصتى ، وشرحت له عذرى ، وسألته أن يمنحنى ساعة واحدة أقوم فيها بكتابة رسالتى هذه ، ثم هو بعد ذلك فى حل من جسمى ودمى ، ينزل منهما حيث يشاء ، ويمتص منهما ما يشاء ، ولكنه ويا للأسف لا يسمع شكاتى ، ولا يرحم ضراعتى ، ولا يفهم معنى الرحمة ، ولا يعرف قيمة المروءة ، لأنه ليس بانسان .

أحسب ان لذعات البعوض قد أخذت مأخذها من عقلى وفهمى ، وانى قد بدأت أهذى هذيان المحموم ، فمن أين لى أن لو كان البعوض إنسانا كان يسمع شكاتى ، ويكشف ظلامتى ، أو انه يفهم معنى الرحمة ، ويعرف قيمة المروءة ، ومتى كان الانسان أحسن حالا من البعوض وأرحم منه قلبا وأشرف غاية ، فأتمنى أن لو كان مكانه ، بل ومن أين لى أن هذا الذى أحسبه بعوضا ليس بانسان قد تقمص جسم البعوض وتمثل لى فى صورته الضئيلة وجناحه الرقيق ، وأى غرابة

فى أن أتخيل ذلك ما دام الانسان والبعوضُ سواءً فى حب الشر، والميل الى الاذى، ومادامت الصورة الجثمانية لا قيمة لها فى جانب الجواهر الذاتية، والاجزاء المقوّمة للماهية

أى قيمة لما يمتصه البعوض من جسم الانسان مجتمعاً فى جانب ما يمتصه القاتل من جسم المقتول منفرداً

إن البعوض فى امتصاصه الدم من الجسم أقلُّ من القاتل ضرراً، وأشرفُ غاية، وأجمل مقصداً، لأنه ان آذى الجسم فقد أبقى على الحياة، ولأنه يطلب عيشه، الذى يحيا به وهذا طريقه الطبيعى الذى لا يعرف له طريقا سواه، ولا يستطيع أن يرى لنفسه غيره، ولو استطاع لعافت نفسهُ أن يكون كالانسان يتطوع للشر، ويتعبَّد بالضر

إنى وجدت بين الانسان والبعوض شَبهاً قريباً فى صفات كثيرة، أنا ذاكرٌ لك طرفا منها، وتاركه لفطنتك الباقى

البعوضُ يمتص من الدم فوق ما يستطيع احتماله ، فلا يزال يشرب حتى يمتلئ فينفجر ، فهو يطلب الحياة من طريق الموت ، ويفتش عن النجاة فى مكامن الهلاك ، وهو أشبه شئ بشارب الخمر يتناول الكأس الاولى منها ، لأنه يري فيها وجه سروره وصورة سعادته ، فتطمعه الأولى فى الثانية ، والثانية فى الثالثة ، ثم لا يزال يلح بالشراب على نفسه حتى يتلفها ويُودِي بها ، من حيث يظن أنه يُنعشها ، ويجلب اليها سرورها وهناءها

البعوض سيئ التصرف فى شؤون حياته ، لانه لا يسقط على الجسم الا بعد أن يَدُل على نفسه بطنينه وضوضائه ، فيأخذ الجالس منه حِذره ، ويدفعه عن مطلبه ، أو يفتك به قبل بلوغه اليه ، فمثله فى ذلك كمثل بعض الجهلة من أصحاب المطالب السياسية يطلبون المآرب النافعة المفيدة لأنفسهم ولأمتهم غير أنهم لا يكتمونها ، ولا يحسنون الاحتفاظ بها فى صدورهم ، ولا يبتغون الوسيلة اليها الا بين الصراخ

والضجيج ، ولا يمسكون بالحلْقة الأولى من سلسلتها حتى يملأوا الخافقين بذكرها ، ويشهدوا الملأ الأعلى والأدنى عليها ، وهنالك يدرك عدوُّهم مقصدهم ، فيعُدّ له عدّته ، ويتلمّس وجه الحيلة في إفساده عليهم هادئاً ساكناً من حيث لا يشعرون

البعوض خفيف فى وطأته ، ثقيل فى لذعته ، فهو كذلك الصاحب الذى يسرك منظره ، ويسوءك مخبره ، يلقاك بابتسامة هى العذب الزلال ، رقة وصفاء ، والسحر الحلال ، جمال وبهاء ، وبين جنبيه فى مكان القلب صخرة لا تنفذها أشعة الحب ، ولا يتسرب اليها سلسبيل الوفاء ، يقول لك انى أحبك ليغلبك على قلبك ، ويملك عليك نفسك ، فان تم له ما أراد سلبك مالك إن كنت من ذوى المال ، وجاهك ، إن كنت من ذوى الجاه ، فان لم تكن هذا ولا ذاك أغراك بالسير فى طريق يُسقط

مروءتك ، ويَثلم شرفك ، فان فاته ما يشفى به داء بطنته ، لا يفوته ما يطفئ به نار حقده ومَوْجدته

لا يزال البعوض ملحًّا فى مهاجمتى ، فلا طاقة لى بكتابة سطر واحد أكثر مما كتبت والسلام



الجزع

ياصاحب النظرات

لى صديق سقط فى امتحان (البكالوريا) هذه السنة فأثر فيه ذلك السقوط تأثيراً كبيراً فهو لا ينفك باكياً متألماً حتى أصبحنا نخاف عليه الجنون ، وكلما عزيناه عن مصابه يقول كيف أستطيع معاشرة إخوانى ومعارفى وكيف أستطيع مقابلة والدى وأهلى فهل لك أيها السيد أن تعالج نفسه بنظرة من نظراتك التى طالما عالجت بها قلوب المحزونين ؟

حقوقى

ليست المسئلة مسئلة صديقك وحده بل مسئلة الساقطين أجمعين ، فان المرء لا يكاد يتناول نظره منهم فى هذه الايام إلا وجوهاً قد نسج الحزن عليها غبرة سوداء ،

وجفوناً تحار فيها مدامعها حيرة الزئبق الرجراج ، حتى ليخيل اليك أن نازلة من نوازل القضاء قد نزلت بهم ، فزلزت أقدامهم ، أو فاجعة من فواجع الدهر قد دارت عليهم دائرتها ، فأثكلتهم ذخائر نفوسهم ، وجواهر عقولهم ، وأقامت بينهم وبين سعادة العيش وهنائه سداً لا تَنفذه المعاول ، ولا تنال من أيْده الزلازل

خفض عليك قليلا أيها الطالب فالأمر أهون مما تظن وأصغر مما تقدِّر ، واعلم وما أحسبك إلا عالما أنك لم تسقط من قمة جبل شامخ الى سفح متحجر فتبكى على شظية طارت من شظايا رأسك ، ولم يَهْوِ بك القضاء الى هوة عميقة لا خلاص لك منها أبد الدهر

إنك قد سعيت الى غرض فان كنت هيأت له أسبابه ، وأعددت له عدته ، وبذلت له من ذات نفسك ما يبذل مثله الباذلون فى مثله ، فقد أعذرت الى الله والى الناس والى نفسك فحرىٌّ بك أن لا تحزن على مصاب لم

يكن عملا من أعمال يديك ، ولا جناية من جنايات نفسك عليك ، وان كنت قصرت فى تلمس أسبابه ، ومشيت فى سبيله مشية الظالع المتقاعس ، فما حزنك على فوات غرض كان جديراً بك أن تترقب فواته قبل وقت فواته ؟ وما بكاؤك على مصاب كان خيراً لك أن تعلم وقوعه قبل يوم وقوعه ؟

مالك تبكى بكاء الواثق بمواتاة الايام ، ومطاوعة الاقدار ، وهل تستطيع أن تبرز لنا صورة العهد الذى أخذته على الدهر أن يكون لك كما تحب وتشتهى ، وعلى الفلك أن لا يدور الا بسعدك ، ولا يجرى إلا بجدك ، وعلى القلم أن لا يكتب فى لوحه الا ما دللته عليه ، وأوحيت به اليه

لا تجعل لليأس سبيلا الى نفسك ، فلعل الأمل يعوض عليك فى غدك ، ما خسرت فى أمسك ، وامض لشأنك ولا تلتفت الى ما وراءك ، فان تم لك فى عامك المقبل من طلبتك ما أردت فذاك ، أو لا ، فما فقدتَ إذ فقدتَ الاورقةً

كان كل ماتستفيده منها أن تشترى بها قيداً لرجلك ، وغُلا لعنقك ، ثم ترتبط فى سجن من سجون الحكومة بجانب رئيس من الرؤساء المدلين بأنفسهم ، يسومك من الذل والخسف مالا يحتمله الاسراء فى سجون الآسرين

إن اعتدادك بهذه الورقة هذا الاعتداد كله وإكبارك اياها هذا الاكبار العظيم ، دليل على أنك كنت تريد أن تجعلها منتهى أملك ، وغاية همتك ، وأنك لا ترى بعدها مزيداً من الكمال لمستزيد ، فان صدقت فراستى فيك ، فاعلم أن الله قد خار لك فى هذا المصير ، وساق اليك من الخير مالا تعرف السبيل اليه ، وانه ما خيب رجاءك فى هذا الكمال الموهوم إلا لتطلب لنفسك كمالا معلوما ، وما صرف عنك هذه الشهادة المكتوبة فى صفحات الأوراق ، إلا لتسمى وراء الشهادة المكتوبة فى صفحات القلوب

إن كنت تبكى على الشرف فبابُ الشرف مفتوح بين يديك لا شأن للحكومة فيه ، ولا حاجب لها عليه ،

وما هو إلا أن تجدَّ في التزيد من العلم والمعرفة ، واستكمال ما ينقصك من الفضائل النفسية ، فاذا أنت شريفٌ في نفسك وفي نفوس الخاصة من الناس ، واذا أنت في منزلة يحسدك عليها كثير من أرباب الشهادات والمناصب ، ولا حيا الله شرفا يحيا بورقة ويموت بأخرى ، ولا مجداً يأتي به سطر ويذهب به سطر ، وان كنت تبكي على العيش ففي أي كتاب من كتب الله المنزلة ، قرأت أن أرزاقه وقفٌ على الموظفين ، وحبائس على المستخدَمين ، وأنه لا يأمر بصرف درهم واحد من خزائنه الا اذا جاءته سفتجة بتوقيع أمير ، أو إشارة وزير

أيها الطالب : قل لأبيك وأخيك وأهلك وأصدقائك ومعارفك بلا خجل ولا استحياء ، ان الذي وهبني عقلي لم يسلبنيه ، وأن الذي صوّر لي أعضائي لم يحلْ بيني وبين الذهاب بها في ما خلقت له ، وان الذي خلقني سوف يهدين ، انه الرزاق ذو القوة المتين

النبوغ

من العجز أن يزدرى المرء نفسه فلا يقيم لهـا وزنا ، وأن ينظر الى من هو فوقه من الناس نظر الحيوان الاعجم الى الحيوان الناطق ، وعندى أن من يخطئ فى تقدير قيمته مستعلياً ، خير ممن يخطئ فى تقديرها متدلياً ، فان الرجل اذا صغرت نفسه فى عين نفسه يأبى لها من أعماله وأطواره إلا مايشا كل منزلتها عنده ، فتراه صغيراً فى علمه ، صغيراً فى أدبه ، صغيراً فى مروءته وهمته ، صغيراً فى ميوله وأهوائه ، صغيراً فى جميع شؤونه وأعماله ، فان عظمت نفسه عظم بجانبها كل ما كان صغيراً فى جانب النفس الصغيرة

ولقد سأل أحد الائمة العظماء ولده وكان نجيباً أى غاية تطلب فى حياتك يابنى ، وأى رجل من عظماء الرجال تحب

أن تكونه ، فأجابه أحب أن أكون مثلك ، فقال ويحك يابنى لقد صغرت نفسك ، وسقطت همتك ، فلتبك على عقلك البواكى ، لقد قدّرت لنفسى يا بنى فى مبدإ نشأتي أن أكون كعلى ابن أبى طالب ، فما زلت أجدّ وأكدح حتى بلغت المنزلة التى تراها ، وبينى وبين علىّ ما تعلم من الشأو البعيد والمدى الشاسع ، فهل يسرك وقد طلبتَ منزلتى أن يكون ما بينك وبينى من المدى مثلُ ما بينى وبين علىّ

كثيراً ما يخطئ الناس فى التفريق بين التواضع وصِغر النفس ، وبين الكبر وعلوّ الهمة ، فيحسبون المتذلل المتملق الدنىء متواضعاً ، ويسمون الرجل إذا ترفع بنفسه عن الدنايا ، وعرف حقيقة منزلته من المجتمع الانسانى متكبراً ، وما التواضعُ الا الأدب ، ولا الكبرُ إلا سوء الأدب ، فالرجل الذى يلقاك متبسما متهللاً ، ويقبل عليك بوجهه ، ويصغى اليك إذا حدثته ، ويزورك مهنئاً ومعزيا ،

ليس صغير النفس كما يظنون ، بل هو عظيمها ، لأنه وجد التواضع أليق بعظمة نفسه فتواضع ، والأدبَ أرفع لشأنه فتأدب

فتًى كان عذب الروح لا من غضاضة
ولكنّ كبراً أن يقالَ به كبر

فاذا بلغ الذل بالرجل ذى الفضل أن ينكس رأسه للكبراء ويتهافت على أيديهم وأقدامهم لثما وتقبيلا ، ويتبذّل بمخالطة السوقة والغوغاء بلا ضرورة ولا سبب ، ويكثر من شتم نفسه وتحقيرها، ورميها بالجهل والغباوة ، ويُبصبص برأسه وهو سائر فى طريقه بصبصةَ الكلب بذنبه، ويجلس فى مدارج الطرق وعلى أفواه الدروب جلسة البائس المسكين ، فاعلم أنه صغيرُ النفس ساقط الهمة ، لا متواضعٌ ولا متأدب

إن علو الهمة إذا لم يخالطه كبر يزرى به ويدعو صاحبه الى التنطع وسوء العشرة كان أحسن ذريعة يتذرع بها

الانسان الى النبوغ فى هذه الحياة ، وليس فى الناس من هو أحوج الى علو الهمة من طالب العلم ، لان حاجة الأمة الى نبوغه أكثر من حاجتها الى نبوغ سواه من الصانعين والمحترفين ، وهل الصانعون والمحترفون إلا حسنة من حسناته ، وأثر من آثاره ، بل هو البحر الزاخر الذى تستقى منه الجداول والغدران

فيا طالب العلم كن عالي الهمة ، ولا يكن نظرك فى تاريخ عظماء الرجال نظراً يبعث فى قلبك الرهبة والهيبة فتتضاءل وتتصاغر كما يفعل الجبان المستطار حينما يسمع قصة من قصص الحروب ، أو خرافة من خرافات الجان ، وحَذار أن يملك اليأسُ عليك قوتك وشجاعتك فتستسلم استسلام العاجز الضعيف وتقول من لى بسلم أصعد عليها الى السماء حتى أصل الى قبة الفلك فأجالس فيها عظماء الرجال

ياطالب العلم أنت لا تحتاج فى بلوغك الغاية التي بلغها

النابغون من قبلك إلى خلق غير خلقك ، وجوّ غير جوّك ، وسماء وأرض غير سمائك وأرضك ، وعقل وأداة غير عقلك وأداتك ، ولكنك فى حاجة الى نفس عالية كنفوسهم ، وهمة عالية كهممهم ، وأمل أوسع من رُقعة الأرض ، وأرحب من صدر الحليم ، ولا يقعدنّ بك عن ذلك ما يهمس به حاسدوك فى خلواتهم من وصفك بالوقاحة أو بالسماجة ، فنعم الخلق هى ان كانت السبيلَ الى بلوغ الغاية ، فامض على وجهك ودعهم فى غيهم يعمهون

جناحان عظيمان يطير بهما المتعلم الى سماء المجد والشرف ، علو الهمة ، والفهم فى العلم ، أما علو الهمة فقد عرفته ، وأما الفهم فى العلم ، فاليك الكلمة الآتية

العلمُ علمان ، علم محفوظ وعلم مفهوم ، أما العلم المحفوظ فيستوى صاحبه فيه مع الكتاب المرقوم ، ولا فرق بين أن تسمع من الحافظ كلمة ، أو تقرأ فى الكتاب صفحة ، فان أشكل عليك شيء مما تسمع ، فانظر إنْ نطقَ الكتاب

بشرح مشكلاته ، نطق الحافظ بتفسير كلماته

الحافظ يحفظ ما يسمع لانه قوى الذاكرة ، وقوة الذاكرة قدر مشترك بين الذكى والغبى والنابه والخامل ، لأن الحافظة ملكة مستقلة بنفسها عن بقية الملكات ، وإنك لترى الشيخ الفاني الذى لا يميز بين الطفولة والهرم ، والذى يبكى على الحلوى بكاء الطفل عليها ، ويرتعد فرقا حينما يسمع ابنته تخيف طفلها باسماء الجن الشياطين ، يسرد لك من تواريخ شبيبته وكهولته مالو دونته لكان تاريخاً صحيحاً ضخماً مملوءاً بالغرائب والنوادر ، وقيل لأحد العلماء إن فلانا حفظ متن البخارى فقال لقد زادت نسخة فى البلد

ذلك هو السر العظيم فى كثرة المتعلمين وقلة العاملين ، لان من فهم معلوماً من المعلومات حق الفهم أشربته روحه ، وخالط لحمه ودمه ، ووصل من قلبه الى سويدائه ، وكان إحدى غرائزه ، فلا يرى له بداً من العمل به رضى أم أبى

لولا أن العلم الدينى قد أصبح اليوم علماً محفوظاً لما وجدت

فى العلماء من يجمع بين اعتقاد الوحدانية وبين التردد على أبواب الاحياء والاموات في مزاراتهم وفى مقابرهم يسألهم المعونة والمساعدة على قضاء الله وقدره ، ولا وجدت بين الذين يحفظون قوله تعالى « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً » من يسند النفع والضرر إلى كل من سال لعابه ، وتعزق إهابه ، ولا وجدت فى الناس كثيراً من ضعفاء العزيمة الذين يحفظون ما ورد على ألسنة الأنبياء والحكماء من مدح الفضائل وذم الرذائل ، ثم لا تجد فرقاً بينهم وبين العامة فى ارتكاب المنكرات ، والنفور من الصالحات

لو كان العلم المحفوظ علماً وهو على ما نشاهدونعلم من سوء الأثر وقلة الجدوى ما ورد مدح العلم فى كتاب ولا سنة ، ولا قدسه كاتب ، أو ترنم بمدحه شاعر ، فاذا سمعت ذكر العلم فاعلم انه العلم المفهوم لا المحفوظ ، واذا أردت أن تلقّب بالعالِم فلا تلقبْ به من يحفظ ، بل من يفهم ما يَحفظ ، وآيةُ فهمِ المعلوم تأثُّرِ العالِمِ به ، وظهورُه في حركاته وسكناته ،

وترقرقه فى شمائله ترقرق الصهباء فى وجه شاربها ، ولا تثق بالحافظ فيما ينقل اليك، فربما مر بالمعلوم مُحرّفا فأخذه على علاته ، وأقبحُ ما عرفنا من أطواره أنه يجمع فى حافظته بين النقيض ونقيضه ، والغث والثمين ، والجيد والزائف ، فكأن ذاكرته حانوت عطار اختلطت فيها الأدوية الشافية، بالعقاقير السامة

وجملة الأمر أن الحافظ البحتَ لا رأى له فى مبحث فيسئل عن مذهب ، ولا أثرَ لمعلوماته فى نفسه فيُقتدَى به ، ولا ذوق له فى الفهم فيُعتمد على شرحه وتأويله

أما العلم المفهوم فهو الواسطة التى اذا جمع المتعلم بينها وبين علو الهمة طار الى المجد بجناحين ، وكان له سبيل مختصر إلى منزلة العظماء ودرجة النابغين ، والعلم سلسلة طويلة طرفاها فى يدى آدمَ أبي البشر وإسرافيل صاحب الصور (١) ومسائله حلقات يصنع كل نابغة من النوابغ

(١) المراد أن العلوم لايتم تدوينها ولا تنحصر مسائلها ما دامت العقول تفكر فالعمل دائب فيها من ابتداء الدنيا الى انتهائها

في كل عصر من العصور واحدة منها ، ولن يبلغ المتعلم درجة النبوغ إلا إذا وضع في العلم الذى مارسه مسألة ، أو كشف حقيقة ، أو أصلح هفوة ، أو اخترع طريقة ، ولن يتسلس له ذلك الا اذا كان علمه مفهوما لامحفوظا ، ولا يكون مفهوما إلا اذا أخاص المتعلم اليه ، وتعبّد له ، وأنس به أنس العاشق بمعشوقه ، ولم ينظر اليه نظر التاجر لسلعته ، والمحترف لحرفته ، فالتاجر يجمع من السلع ما ينفق سوقه ، لا ما يغلو جوهره ، والمحترف لا يهمه من حرفته إلا لقمة الخبز وجرعة الماء ، أحسن أم أساء

لا يزور العلم قلباً مشغولا بترقب المناصب ، وحساب الرواتب ، وسوق الآمال وراء الأموال ، كما لا يزور قلباً مقسما بين تصفيف الطرة ، وصقل الغرة ، وحسن القوام ، وجمال الهندام ، وطول الهيام ، بالكأسين كاس المدام ، وكأس الغرام

البائسات

زرت منذ أيام حاكم بلدة فى منزله فرأيت بين يديه فتاة في الثانية عشرة من عمرها بائسة عليلة ، تشكو ألماً في عنقها ، وجرحا فى ذراعها، وهماً فى نفسها ، وتدير فى الحاضرين عيوناً حائرة مضطربة كأنما هى مركبة على زئبق رجراج ، فسألتُ ما شأنها ، فعلمت أن أهلها زوجوها وهى فى هذه السن وعلى هذه السذاجة من رجل وحشى الخَلق والخلق ثم زفوها اليه فحاول أن يفترشها ، وهى على حالة لا تستطيع معها أن تلم بفراشٍ ، فامتنعت عليه ، فأراد اغتصابها فعجزَ ، فضربها هذا الضربَ الذي رأينا آثاره فى جسمها ، ففرت منه الى منزل أهلها فنقموا منها هذا الاباء الذى سموه بلادة وغفلة وأعادوها إلى منزل زوجها

كما يعاد المجرم الفارّ من سجنه اليه مرة أخرى ، وهنالك عاد زوجها الى عادته معها ، فعادت هى الى فرارها ، فعاد أهلها الى قسوتهم وجبروتهم ، فلما أعياها الأمر خرجت الى الطريق العامة هائمة على وجهها لا تعرف لهـا مذهباً ولا مستقراً حتى رُفع أمرها إلى ذلك الحاكم فأمر باستدعائها وآواها فى منزله ليخلصها من ذلك الموقف الذى كانت فيه بين ذراعىْ وجبهةِ الأسد ، وما فرغ من هذه القصة حتى رُفعت اليه حادثة أخرى تشبه الحادثة الأولى من جميع وجوهها إلا أن الزوج فى هذه المرة خدع زوجه عن نفسها وسقاها مخدراً فعقرها كما عقر شقىُّ ثمود ناقته من قبل

إن المرأة المصرية شقية بائسة ، ولا سبب لشقائها وبؤسها إلا جهلها وضُعف مداركها

إنها لا تحسن عملا ، ولا تعرف باب مرتزق ، ولا تجد بين يديها سلعة تتّجر بها وتقتات منها إلا قلب الرجل ، فان استطاعت أن تمتلكه عاشت عيشاً رغداً ، أوْ لاَ ، فلا

مفر لها من الشقاء من المهد الى اللحد

ودون امتلاكها هذا القلب القاسيَ المتحجر أهوالٌ عِظام وعقبات جسام لو كُلف الرجل نفسُه على مابه من قوة وأيدٍ وسَعة حيلة أن يجتاز واحدة منها لسقط بين اليأس والاستسلام

متى بلغت الفتاة سن الزواج سواءاً كان ذلك على تقدير الطبيعة أو على تقدير أولئك الجهلاء أولياء أمر تينك الفتاتين استثقل أهلها ظلها وبَرِموا بها وحاسبوها على المضغة والجرعة ، والقوْمة والقَعدة ، ورأوا أنها عالة عليهم، وأن لا حق لها في العيش في منزل لا يستفيد من عملها شيئاً ، وودوا لو طلع عليهم وجه الخاطب أيّ خاطب كان يحمل في جبينه آية البشرى بالخلاص منها

وإن قوما هذا مبلغ عقولهم من الفهم ، وقلوبهم من القسوة ، وهذه منزلة فلذات أكبادهم من نفوسهم، لا يمكن بحال من الأحوال أن يفاوضوها في اختيار الزوج، أو يحسنوا الاختيار لها حين يختارون

فاذا دخلت هذا المنزل الجديد الذى لا تعرفه، ولا تعرف شأناً من شؤون أهله دخلت فى دور الجهاد العظيم بينها وبين قلب الرجل

فان كانت ذات جمال أو مال فقد استوثقت لنفسها وأمنت آلام الهجر وفجائع التطليق، وإلا فهى تقاسى كل صباح ومساء فى الحصول على الحسن المجلوب، والجمال المصنوع، آلاما جثمانية تطفئ نور شبيبتها، وتذبل زهرة حياتها، وتلاقى فى سبيل مصانعة الزوج ومداراته والبكاء فى موضع الابتسام إن ابتسم، والابتسام فى موضع البكاء إن بكى، مايجعل أخلاقها فضاء مملوءاً بالكذب والتكييد، والخبث والرياء، وهى فوق ذلك تنتظر من فم زوجها فى كل ساعة كلمة الطلاق، كما ينتظر القاتل من فم قاضيه كلمة الاعدام

ليست كلمة الاعدام من قبيل الاستعمال المجازىّ فما أنس لا أنسى ليلة زرت فيها صديقاً لى فرأيت عند باب منزله امرأة بائسة ليس وراء ما بها من الهم غاية، وكأنما هى الخلال رقة وذبولا، ووراءها صبية ثلاث يدورون

حولها، ويجاذبونها طرف ردائها ، فتُسبل فضل مئزرها على مآقيها المقرّحة رأفة بهم أن يلموا ببعض شأنها فيبكوا لبكائها ، فسألتها عن شأنها فأخبرتني أنها مطلقة من زوجها وأن بيدها حكما من المحكمة الشرعية بالنفقة لأولادها وقدمر عليها زمن طويل و « الادارة » تماطلها في إنفاذه ، فجاءت الى هذه الصديق تستعين به على أمرها ، ثم أخذت تشرح من حالها وحال أطفالها في مقاساة الشدة ، ومعالجة القوت ، ما أسال شؤوننا ، وصعّد زفراتنا ، وأمسكنا له أكبادنا خشيةً أن تَصدعا

فخففت أنا وصديقي شيئًا من آلامها فانصرفت ، وفي صباح تلك الليلة سمعنا أن امرأة فقيرة ماتت بحمى دماغية فسألنا عنها فعلمنا أنها صاحبتنا بالأمس وأنها ماتت شهيدة الزوجية الفاسدة

أيها الرجل ، إن كنت تعتقد أن المرأة إنسان مثلك وهبها الله مدارك مثل مداركك ، واستعداداً مثل استعدادك ، فعلمها كيف تأكل لقمتها من حرفة غير

هذه الحرفة النكدة ، وإلا فأحسن اليها وارحمها كما ترحمُ كلبك وشاتك

إن كنت زوجاً فلا تطردها من منزلك بعد أن تقضى مأربك منها كما تصنع بنعلك التى تلبسها ، وإن كنت أباً فهذه فلذة كبدك فلا تضق بها ذرعاً ، ولا تُلق بها في جُحر وحش ضار يأكل لحمها ، ويمتص دمها ، ثم يلقى اليك بعظامها

ويا أيها المحسنون ، والله لا أعرف لكم باباً في الاحسان تنفذون منه الى عفو الله ورحمته أوسع من باب الاحسان الى المرأة

علموها لتجعلوا منها مدرسة يتعلم فيها أولادكم قبل المدرسة ، وأدبوها لينشأ فى حجرها المستقبل العظيم ، للوطن الكريم

﴿ تم الجزء الاول ﴾

فهرس الجزء الأول من النظرات

تم الفهرس

